دراسات في تاريخ المغرب والأندلس

تأليف

الدكتورة نهلة شهاب أحمد

أستاذ تاريخ المغرب والأندلس

كلية التربية - جامعة الموصل



دراسات في تاريخ المغرب والأندلس

تأليف
الدكتورة نهلة شهاب أحمد
أستاذ تاريخ المغرب والأندلس
كلية التربية - جامعة الموصل

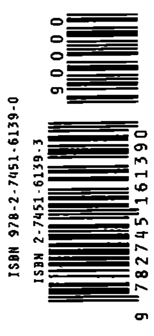


Title : STUDIES
IN THE HISTORY
OF MAGHREB AND ANDALUSIA

Classification: Historical studies
Author :Dr. Nahla Shihab Ahmad
Publisher : Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Pages : 192
Year : 2009
Printed in : Lebanon
Edition : 1st

الكتاب: دراسات في تاريخ
المغرب والأندلس

التصنيف : دراسات تاريخية
المؤلف : الدكتورة نهلة شهاب أحمد
الناشر : دار الكتب العلميـــة - بيروت
عدد الصفحات: 192
سنة الطباعة : 2009
بلد الطباعة : لبنان
الطبعة : الأولى



الإهـــــداء ...

إلى زوجي وأبنائي

حبّاً واعتزازاً

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

نقدم للقارئ العربي هذه المجموعة من الدراسات والبحوث المختارة في تأريخ العرب المسلمين وحضارتهم في المغرب والأندلس وجميعها قد نشرت في المجلات العلمية الرصينة داخل العراق وخارجه، ومجموع هذه الدراسات الثمان تتميز بأنها تتكامل في موضوعاتها، فهي تضم دراستين تناولتا جوانب من التاريخ السياسي والعسكري للمغرب والأندلس، الأولى عن مدينة تونس ودورها في مواجهة الغزو البيزنطي في العصر الأموي، والثانية عن الأهمية السياسية والعسكرية لمضيق جبل طارق منذ الفتح العربي الإسلامي حتى عصر الخلافة 92 - 422هـ / 710 - 1030م، وتضم خمس دراسات تناولت أُسراً كان لها دورها السياسي والعسكري والحضاري في حقب تاريخية مختلفة في تأريخ المغرب والأندلس. أما الدراسة الأخيرة فجاءت عن تاريخ الفكر الأندلسي، إذ تناولت محنة ابن رشد بين الفلسفة والسياسة في محاولة لتقديم رؤية جديدة عن محنة الفيلسوف والمفكر.

وقد إرتأينا أن ننشر هذه الدراسات مجتمعة لتيسير تناولها والرجوع إليها من قبل الباحثين والمهتمين بالدراسات المغربية والأندلسية، ونأمل أن يجد المختصون في هذه الدراسات عوناً لهم في دراستهم، كما نأمل أن تعود بالفائدة على المثقفين عامة وأن نساهم في دفع الباحثين لدراسة الجوانب العديدة من تاريخ المغرب والأندلس والتي هي بحاجة إلى البحث والتقصي، وإنجاز بحوث دقيقة مكثفة من شأنها أن تكون علامة وفاء منّا لتاريخ حافل أشرق على الإنسانية من خلال العطاء الحضاري للمغرب والأندلس، ومن الله التوفيق والعون لخدمة تاريخنا وحضارتنا الزاهرة.

نهلة شهاب أحمد

مدينة تونس ودورها
في مواجهة الغزو البيزنطي
في العصر الأموي

نبذة تاريخية عن البحرية العربية قبل إنشاء قاعدة تونس:

عرف العرب ركوب البحر منذ فترة قديمة سبقت ظهور الإسلام [1]، بحكم الموقع الجغرافي للجزيرة العربية، وإحاطتها بعدة بحار، فمن الشرق الخليج العربي وخليج عمان، ومن الغرب البحر الأحمر، ومن الجنوب البحر العربي، حيث كانوا ملاحين وأدلاء من الطراز الأول، وركوبهم البحر كان لغرض التجارة والنقل البحري[2]، بل وهناك كتابات تشير إلى ركوب العرب للبحر لغرض القتال، وهذا ما وجدناه في شعر النابغة الذبياني في وصفه لسفن الأنباط في صراعها مع سفن البيزنطيين حيث يقول:

له بحر يقمص بالعدولي	وبالخلج المحملة الثقال
مضر بالقصور يذود عنها	قراقير النبيط إلى التلال [3]

أمّا ما ورد عن ابن خلدون من تخلف العرب في ثقافة البحر وركوبه، وتفوق البيزنطيين والأفرنجة البحري بقوله: " أن العرب لبداوتهم لم يكونوا مهرة في ثقافته وركوبه، والروم والأفرنجة لممارستهم أحواله ومرباهم في التقلب على أعواده مرنوا عليه وأحكموا الدراية بثقافته " [4].

نراه يقول أن العرب لبداوتهم لم يكونوا مهرة في ثقافة البحر وركوبه، والعرب ليس كلهم بدواً، فهناك العرب المستقرون الذي أنشأوا الحضارات في اليمن وسواحل الخليج العربي، ثم إن ابن خلدون لم ينف ركوب العرب البحر، بل نفى مهارتهم [5]، وهذا لا يعني جهلهم الكامل بشؤونه، فاللغة العربية مليئة بمصطلحات بحرية عربية، كما أن لفظة البحر قد وردت في القرآن الكريم في آيات كثيرة، مما يدل على أن البحر وشؤونه لم يكن غريباً على العرب [6]، ولكن العرب قبيل ظهور الإسلام كانوا قد أهملوا شؤون البحر وابتعدوا عن الملاحة لأسباب منها خلو الجزيرة العربية من الأشجار التي تصلح أخشابها لصناعة السفن، وعدم

توفر الزفت والقطران ومعدن الحديد المستخدم لصناعة المسامير والمراسي، فضلاً عن خطورة الملاحة في البحر لكثرة الشعاب المرجانية [7].

وكان أول من ركب البحر في الإسلام لغرض القتال هو العلاء بن الحضرمي والي البحرين في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ (13 - 23 هـ / 634 - 644 م) عندما توجه سنة (17 هـ / 638 م) لفتح فارس من غير إذن الخليفة، فقام الفرس بقطع خط الرجعة على الجيش الفاتح، وأجبروه على العودة إلى البصرة عن طريق البر بعد أن غرقت سفنهم، وعندما علم الخليفة بالأمر قام بمعاقبة وعزل العلاء بن الحضرمي[8]، لأنه كان يدرك بأن العرب المسلمين في هذا الوقت ليس باستطاعتهم ملاقاة الروم والفرس في البحر لقلة خبراتهم وثقافتهم البحرية [9]، ولذلك عمد إلى انتهاج سياسة بحرية دفاعية، حيث اهتم بتحصين السواحل وشحنها بالمقاتلين لمراقبة تحركات العدو واستخدام وسائل الإنذار ليلاً بإيقاد النيران لتنبيه المقاتلين من أجل التأهب والاستعداد لمواجهة العدو [10].

ثم أعقبت محاولة العلاء الحضرمي محاولات أخرى توجت بحصول والي الشام معاوية بن أبي سفيان على موافقة الخليفة عثمان بن عفان ﷺ (24 - 35 هـ / 644 - 656 م) بإنشاء أول أسطول عربي إسلامي في سنة 27 هـ / 647 م [11]، وبعد أن أصبح معاوية بن أبي سفيان خليفة المسلمين (41 - 60هـ / 661 - 679م) قام بتطوير السياسة البحرية للدولة العربية، حيث اهتم اهتماماً كبيراً بإنشاء الأساطيل البحرية ليس من أجل حماية المدن الساحلية وصد هجمات الروم البيزنطيين فحسب، بل لمهاجمة القواعد البيزنطية التي كانت مركزاً لشن الهجمات البحرية على السواحل العربية، وكانت (عكا) أول قاعدة تبنى لهذا الغرض، حيث أمر " بجمع الصنّاع والنجارين، فجمعوا ورتبهم على السواحل، وكانت الصناعة في الأردن بعكا " [12].

وقد ساهم ولاة معاوية بن أبي سفيان في بناء قواعد بحرية لصناعة السفن، ففي سنة 54 هـ قام والي مصر مسلمة بن خالد الأنصاري ببناء دار لصناعة السفن في جزيرة الروضة [13]، واتبع الخليفة عبد الملك بن مروان (65 - 86 هـ / 685 - 705 م) نفس سياسة الخليفة معاوية من حيث الاهتمام الكبير بالقوة البحرية، وتقوية الأسطول العربي بسبب ماعاناه من بحرية أعداءه البيزنطيين، لذا فقد أوعز

لواليه على المغرب حسان بن مالك الغساني ببناء قاعدة تونس البحرية في أفريقية.

بناء قاعدة تونس:

شكلت طبيعة المغرب العربي وامتداد سواحله كشريط طويل يبدأ من ساحل برقة وطرابلس شرقاً وينتهي عند المحيط الأطلسي غرباً، دافعاً قوياً لسكان هذه المنطقة عبر العصور التاريخية في ممارسة دورها ونشاطها البحري، وقد أشار ابن خلدون إلى أثر هذا الامتداد الساحلي في ثقافة أهل المغرب بالشؤون البحرية حين قال: " والساكنون بسيف هذا البحر وسواحله من عدوتيه يعانون من أحواله مالا تعانيه أمة من أمم البحار، فقد كانت الأفرنجة والقوط بالدعوة الشمالية من هذا البحر الرومي، وكانت أكثر حروبهم ومتاجرهم في السفن، فكانوا مهرة في ركوبه والحرب في أساطيله ولما أسف من أسف عنهم إلى ملك العدوة الجنوبية مثل الروم والقوط إلى المغرب أجازوا في الأساطيل وملكوها وتغلبوا على البربر بها وانتزعوا من أيديهم أمرها وكان لها بها المدن الحافلة مثل قرطاجنة وسبيطلة وطنجة، وكان صاحب طنجة من قبلهم يحارب صاحب رومة ويبعث الأساطيل لحربه مشحونة بالعساكر والعدد فكانت هذه عادةً لأهل هذا البحر. معروفةً في القديم والحديث "(14).

وقد أدرك العرب الفاتحون هذه الحقيقة، وانتبهوا إلى ضرورة القيام ببناء قاعدة بحرية لإبعاد خطر الروم عن سواحل المغرب العربي، وقد تم تحقيق ذلك على يد والي أفريقية حسان بن النعمان الغساني سنة (84 هـ / 703م)، واختلف المؤرخون في أسباب بناء قاعدة تونس، فمنهم من يذكر أنها بنيت على أثر غارة الروم على مرسى رادس* وقتل وسبي من بها من المسلمين (15). وفيهم من يرى أنها بنيت على أثر هجوم الروم على قرطاجنة واستردادها بعد رحيل حسان عنها وقتل وأسر من بقي من المسلمين فيها، حيث لم يكن لهم ملجأ يتحصنون فيه من عدوهم (16)، لذا أيقن حسان بضرورة تخريب قرطاجنة التي يصعب الدفاع عنها والقيام بإنشاء مدينة جديدة تقام مقامها، وتستجمع فيها خصائص المدن الداخلية من حيث الحماية من الغزو وخصائص المدن الساحلية من حيث القرب من البحر، فكتب إلى الخليفة عبد الملك بن مروان بذلك وأرسل وفداً من أشراف العرب بلغ عددهم 40 رجلاً صوّروا له حالة المسلمين، وما يعانوه من غارات الروم عليهم،

ونصحوه بإمداد هذه البلاد ونصرة أهلها [17]، فتأثر عبد الملك لما أصاب المسلمين، وكتب إلى أخيه عبد العزيز بن مروان والي مصر يأمره بإرسال ألف أسرة قبطية ممن لهم خبرة بصناعة السفن، وأن يحسن عونهم وتجهيزهم من أجل بناء المدينة الجديدة التي تقرر أن تكون منفذاً على البحر، تصنع فيها السفن وتكون قاعدة لانطلاق الحملات البحرية ضد الروم، وحماية القيروان في الداخل من هجماتهم المفاجئة [18].

وقد ساهم البربر في عملية البناء، وذلك بقطع الأخشاب في الغابات وإيصالها إلى دار الصناعة لإنتاج السفن [19].

وأنشأت مدينة تونس في موضع قرية صغيرة عرفت باسم " ترشيش " على بعد اثني عشر ميلاً شرقي مدينة قرطاجنة، وجعل رادس مرسى لها [20]، وكان موضع تونس بعيد وغير مفتوح على البحر مثل قرطاجنة حيث " تقع على لسان يكون شبه جزيرة محصورة بين السبخة [سبخة الريانة] شمالاً والبحيرة [بحيرة تونس] جنوباً، بينما تقع تونس إلى الداخل غرب البحيرة ضحلة لا تسمح بسير المراكب الحربية وجب حفر قناة في وسطها تصل ما بين دار الصناعة في تونس والميناء أو المرسى في رادس " [21]. وقد أشار الدينوري والبكري إلى ذلك بقولهما أن حساناً جر البحر حتى أدخله دار الصناعة [22].

وينسب بعض المؤرخين بناء دار صناعة السفن في تونس إلى موسى بن نصير أو عبيد الله بن الحبحاب [23]، ولكن من المحتمل أن اختلاف المؤرخين في ذلك يعود إلى إسهام هؤلاء الولاة الثلاثة في بنائها، حيث أن حساناً هو الذي بدأ في بنائها ثم نمت واتسعت في عهد موسى بن نصير وعبيد الله بن الحبحاب حتى أصبحت تونس في عهدهما من أعظم ثغور أفريقية في الجهاد البحري [24].

دور قاعدة تونس في مقاومة الغزو البيزنطي وتثبيت الوجود العربي في البحر المتوسط:

بعد أن أكملت تونس بناء أسطولها الخاص وأصبحت مهيأة للقيام بالعمليات الحربية اتبع ولاة أفريقية وفي مقدمتهم موسى بن نصير سياسة بحرية من أهدافها السيطرة على جزر غرب البحر المتوسط (صقلية، سردينيا، جزر البليار، قوصرة) واتخاذها قواعد بحرية متقدمة تحمي السواحل المغربية وتنطلق منها الحملات

البحرية نحو جزيرة أيبريا [25]، وكان في مقدمة الجزر التي فتحت هي:

أولاً: جزيرة قوصرة:

وتعرف حاليا باسم بنطلارية Bantelleria وتقع جنوب صقلية على مقربة من ساحل أفريقية، حيث تبعد نحو مائة كيلو متر عن مدينة مازر الواقعة في المركز الجنوبي الغربي من صقلية [26]، ونظراً لموقعها المهم في الدفاع عن المغرب العربي، ولكونها قاعدة متقدمة للهجوم على صقلية، ومراقبة حركات الأسطول البيزنطي فقد بادر موسى بن نصير في إرسال حملة بحرية سنة 88 هـ / 707 م بقيادة عبد الملك بن قطن الفهري، ففتحها وضمّها إلى ولاية أفريقية [27].

ثانياً: جزيرة صقلية:

تقع في وسط البحر المتوسط، وتعد من أكبر جزره، وقد اتخذها البيزنطيون قاعدة لشن الهجمات البحرية على السواحل المغربية، وإعاقة تقدم القوات العربية الإسلامية [28]، مما دفع العرب المسلمين إلى توجيه الحملات البحرية المستمرة نحو صقلية، حيث اتبع موسى بن نصير ومن جاء بعده من ولاة أفريقية سياسة تقوم على الضغط المتواصل على صقلية، هدفها إشغال البيزنطيون بالدفاع عن أنفسهم بدلاً من التفكير بشن الهجمات على السواحل المغربية، وكانت أولى الحملات الموجهة من قاعدة تونس نحو صقلية هي (حملة الأشراف) سنة 85 هـ / 704 م، بقيادة عبد الله بن موسى بن نصير، التي ضمّت كبار رجال المسلمين، وقد حققت هذه الحملة أهدافها المرسومة لها وظفرت بغنائم كبيرة، وعادت سالمة [29]. وفي السنة التالية 86 هـ / 705 م وجهت حملة ثانية قادها عياش بن أخيل الذي هاجم مدينة سرقوسة التي تعد من أكبر مدن جزيرة صقلية فقاتل أهلها، وعاد سالماً ومحملاً بالغنائم الوفيرة [30].

ثم توقف إرسال الحملات نحو صقلية حتى سنة 102 هـ / 720م، ويبدو أن سببه يعود إلى انشغال العرب بفتح الأندلس، ولكن ما إن استكمل فتح الأندلس حتى استؤنف من جديد إرسال الحملات البحرية نحو صقلية، ففي سنة 102 هـ / 720 م عزم والي أفريقية (يزيد بن أبي مسلم) على إرسال حملة بحرية نحو صقلية، انتدب لقيادتها (محمد بن أوس الأنصاري)، فنجح في مهمته وعاد محملاً

بالغنائم [31]. وقاد (قثم بن عوانة) حملة ناجحة نحو صقلية سنة 108هـ /727م، وفي السنة التالية 109 هـ / 728 م هاجم الوالي بشر بن صفوان صقلية بنفسه وعاد إلى القيروان محملاً بالغنائم [32]. كما عهد والي أفريقية (عبيدة بن عبد الرحمن السلمي) إلى عثمان بن أبي عبيدة الفهري بقيادة حملة سنة 110 هـ / 728 م على رأس 700 مقاتل لمهاجمة سرقوسة عاصمة صقلية، وقد كللت الحملة بالنجاح وأسر قائد البيزنطيين [33].

وفي سنة111هـ /729م أرسلت حملة أخرى بقيادة المستنير بن الحارث الحريثي على رأس أسطول بلغت عدد سفنه 180 سفينة، ونزل سرقوسة وضرب عليها الحصار، وبقي هناك حتى حلول فصل الشتاء وعند عودته تعرض إلى سوء الأحوال الجوية التي أدت إلى غرق معظم سفنه، حيث لم ينج منها سوى 17 سفينة، وعوقب المستنير على ذلك من قبل الوالي (عبيد الله بن عبد الرحمن السلمي) لأنه لم يحسن توقيت العودة [34].

ثم توالت الحملات الموجهة إلى صقلية وذلك في السنوات (112 - 115 هـ / 730 - 733 م) بقيادة كل من (ثابت بن خثيم) و (عبد الملك بن قطن) و(عبد الله بن قطن) و (بكر بن سويد)، وقد حققت هذه الحملات أهدافها وعادت سالمة عدا الحملة الأخيرة التي ضربت مراكبها بالنار الأغريقية من قبل البيزنطيين[35].

وسار والي أفريقية الجديد (عبيد الله بن الحبحاب) على نهج سلفه من الولاة في إرسال الحملات البحرية إلى صقلية حيث انتدب سنة (116 هـ / 734 م) القائد عثمان بن أبي عبيدة الفهري على رأس حملة نحو صقلية، وقد أصاب أجزاء منها، ولكن في طريق العودة اعترضته سفن البيزنطيين ودخل معها في اشتباك بحري انتهى بهزيمة البيزنطيين، على الرغم من استشهاد بعض المسلمين وأسر البعض الآخر ومنهم ولدي القائد عمر وسليمان [36].

وفي سنة 118 هـ / 736 م سيّر ابن الحبحاب حملة أخرى بقيادة (قثم بن عوانة الكلبي) ونزل عند مدينة (أولية)، ولم تحقق هذه الحملة أهدافها، إذ تذكر الروايات بأن الروم أحاطوا بقثم ثم خلوا عنه [37].

وقد عزم ابن الحبحاب على فتح صقلية نهائياً من خلال الحملة التي أعد لها وأرسلها سنة 122 هـ / 739 م بقيادة (حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع

الفهري)، وبرفقة ابنه عبد الرحمن بن حبيب، وقد احتل حبيب جزءاً من الجزيرة، ثم وجّه ابنه على رأس جماعة من الفرسان للقاء البيزنطيين، حيث اشتبك معهم وحقق انتصاراً كبيراً، ثم تقدم نحو مدينة سرقوسة، وخرج إليه البيزنطيون لمواجهته، ولكنه استطاع التغلب عليهم وأجبرهم على الصلح ودفع الجزية، ثم عاد إلى القاعدة التي استقر بها والده [38]، وكان حبيب قد صمم على البقاء في صقلية حتى يستكمل فتحها، لكنه اضطر إلى الانسحاب مع قواته بعد وصول كتاب ابن الحبحاب الذي يأمره بالعودة إلى أفريقية لقمع تمرد الخوارج بقيادة (ميسرة المدغري) في المغرب الأقصى الذي اغتنم فرصة تغيب جزء كبير من الجند العرب في حملة صقلية [39]، وقد استأثرت قضية إخماد تمرد الخوارج اهتمام الدولة العربية الإسلامية، حيث لم ترسل حملات أخرى إلى صقلية حتى نهاية الدولة الأموية.

ثالثاً: جزيرة سردينيا:

تعد من الجزر الكبيرة في البحر المتوسط [40]، وتقع إلى الشمال الغربي من جزيرة صقلية، وكانت أولى الحملات الموجهة إلى سردينيا سنة 84 هـ / 703 م في عهد موسى بن نصير والتي اشترك فيها الأسطول المصري إلى جانب الأسطول المغربي، حيث أرسل أمير مصر عبد العزيز بن مروان (عطاء بن رافع الهذلي) على رأس الأسطول المصري، ورسا في مدينة سوسة، وهناك أمر موسى بن نصير بتزويده بما يحتاج إليه من مؤن وأرزاق وأسلحة ولكنه في الوقت نفسه حذره من ركوب البحر لأن موسمه قد فات، وأنه سوف يواجه متاعب وأخطار بسبب سوء الأحوال الجوية في تشرين الثاني، ولكن القائد الهذلي لم يأخذ بنصيحة موسى بن نصير وشحن سفنه متوجهاً إلى جزيرة سردينيا ونزل عند مدينة (سلسلة) وافتتحها، وعاد محملاً بغنائم كثيرة، وفي طريق العودة اعترضته عاصفة شديدة أدت إلى تحطيم معظم سفنه، وغرقه وغرق عدد من جنوده، وعندما علم موسى بن نصير بما حدث أرسل حملات تفتيشية إلى السواحل بقيادة يزيد بن مسروق لإنقاذ الجند الذين نجوا من الغرق، ثم أمر موسى بإدخال السفن المتضررة في دار صناعة السفن بتونس لتصليحها وإعدادها ثانية في الحملات البحرية [41]، وأرسل موسى بن نصير سنة 87هـ /705 م ابنه عبد الله إلى سردينيا وافتتح إحدى مدنها المسماة ب (بولة)،

وفي السنة نفسها أرسل عبد الله بن حذيفة الأزدي على رأس حملة إلى سردينيا، وقد حقق هدفه وعاد بأموال كثيرة [42]، ثم تلتها حملة ثالثة سنة 89 هـ / 707 م بقيادة عبد الله بن مرة، الذي استطاع أن يفتح عدد من مدنها ومحملاً بالغنائم [43].

ويذكر ابن الأثير حملة أخرى وجهت إلى سردينيا سنة 92 هـ / 710 م، ولكنه لم يشر إلى أسم قائد هذه الحملة ولا عدد المقاتلين والسفن الموجهة إليها، بل يكتفي بالقول بأن موسى بن نصير بعد انتهاءه من فتح الأندلس سير طائفة من جنده إلى سردينيا فدخلوها وحققوا أهدافهم، ولكن عند عودتهم غرقت سفنهم في البحر [44].

واستمرت الحملات إلى سردينيا في ولاية بشر بن صفوان، ففي سنة 103 هـ / 721م وجّه (يزيد بن مسروق اليحصبي)، وفي سنة 106هـ /724م أرسل (محمد ابن أبي يسكر)، وكانت الحملة لأخيرة في عهده سنة 109 هـ / 727 م بقيادة (حسان بن محمد بن أبي بكير)، وقد حققت هذه الحملات أهدافها، وعادت سالمة إلى أفريقية [45].

ويبدو أن تزايد هذه الحملات نحو سردينيا جاء بعد فتح العرب للأندلس لوقوعها بين القواعد البحرية في المغرب العربي وساحل الأندلس الشرقي [46].

ووجه الوالي (عبيدة بن عبد الرحمن السلمي) حملة إلى سردينيا سنة 114 هـ / 732 م بقيادة (عبد الله بن زياد الأنصاري) وتكللت بالنجاح [47]، كما أرسل الوالي (عبيد الله بن الحبحاب) إلى القائد (حبيب بن أبي عبيدة الفهري) سنة 117 هـ / 735 م بقيادة حملة إلى سردينيا، حيث فتح إحدى قراها وغنم غنائم كثيرة، ثم قاد (قثم بن عوانة) حملة أخرى سنة 119هـ /737م، هاجم فيها إحدى قلاع سردينيا وافتتحها، ولكن في طريق العودة غرق مع بعض سفن المسلمين، ونجا البعض الآخر [48].

ولم تحدثنا الرواية عن أسباب الغرق، هل كان بسبب سوء الأحوال الجوية أم بسبب اعتراض الأسطول البيزنطي له [49]، ثم توقفت الحملات نحو سردينيا والأسباب التي دعت إلى ذلك هي نفس أسباب توقف الحملات نحو صقلية [50].

رابعاً: جزر البليار:

وهي مجموعة من الجزر تقع في الشمال الغربي من البحر المتوسط بين

جزيرة صقلية وشبه جزيرة أيبريا، وقد أطلق عليها العرب تسمية الجزائر الشرقية نظراً لوقوعها شرق الأندلس، وتتكون من خمس جزر رئيسية هي: (ميورقة، منورقة، يابسة، فرمنتيرة، وقبريرة) [51]، وتشير المصادر إلى حملة بحرية واحدة وجهت من قاعدة تونس، كانت في سنة 89 هـ / 701 م، حيث عهد موسى بن نصير لابنه عبد الله بقيادة هذه الحملة والتي افتتح فيها جزيرتي ميورقة ومنورقة، ثم انصرف راجعاً إلى أفريقية [52].

ويمكن أن نستنتج مما تقدم بأن بناء قاعدة تونس أصبحت بمثابة رباط لحماية القيروان من الهجمات المفاجئة للروم البيزنطيين، فقد أحالت بينهم وبين أفريقية، إذ لم يعد بمقدروهم الوصول إليها وأصبحت في الوقت نفسه قاعده لانطلاق الحملات البحرية المستمرة ضد قواعد الروم البيزنطيون في غربي البحر المتوسط.

هوامش البحث:

(1) محمد غانم الصغير، التوسع الفينيقي في غرب أفريقيا (الجزائر: 1979)، ص 15 - 18.

(2) محمد إسماعيل الندوي، تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية (بيروت: د. ت)، ص 17.

(3) قاسم راضي مهدي، مظاهر البيئة البحرية في الشعر الجاهلي، مجلة المورد، العدد (3) (بغداد: 1981)، ص131؛ وانظر: سالم عبد علي العبيدي، القوات البحرية العربية في العصر الأموي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب - جامعة الموصل، 1990)، ص 10.

(4) عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون (بيروت: د. ت)، ص 253.

(5) انظر: العبيدي، المرجع السابق، ص 10.

(6) محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (القاهرة: د. ت)، ص 14.

(7) عبد العزيز سالم، أحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس (بيروت: 1969)، ص 14؛ فتحي عثمان، الحدود الإسلامية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري (القاهرة: د. ت): 2 / 335.

(8) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: د. ت) 4 / 80 - 81.

(9) سالم والعبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، ص 16.

(10) أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق: رضوان محمد رضوان (بيروت: 1978)، ص 134.

(11) المصدر نفسه، ص 157 - 158.

(12) المصدر نفسه، ص 124، ولمزيد من التفاصيل، انظر: سالم والعبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، ص 19، 20.

(13) أبو عمر محمد بن يوسف الكندي، الولاة والقضاة، تحقيق: رهن كست (بيروت: 1908)، ص 38.

(14) المقدمة، ص 252 - 253؛ وانظر: عبد العزيز سالم، أحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية في مصر والشام (بيروت: 1972)، ص 77 - 78.

* رادس: هي ميناء لمدينة تونس، واسم رادس يطلق على الميناء أو القرية المطلة عليه وبين ميناء رادي وتونس بحيرة يذكر بانها كانت أرضاً طيبة كثيرة الجنات والمياه والزرع، لكن مياه البحر غمرتها وحولتها إلى بحيرة. انظر: مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق: سعد زغلول عبد الحميد (الأسكندرية: 1958)، ص 120؛ محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: 1975)، ص 265.

(15) أبو إسحاق إبراهيم الرقيق القيرواني، تاريخ أفريقية والمغرب، تحقيق: المنجمي الكعبي (تونس: 1967)، ص 66؛ أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني، رحلة التجاني، تقديم حسن حسني عبد الوهاب (تونس: 1958)، ص 6؛ الحميري، المصدر السابق، ص 265.

(16) أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، نشر: ديسلان (الجزائر: 1857)، ص 37 - 38.

=

=

(17) المصدر نفسه، ص 37 - 38؛ التجاني، المصدر السابق، ص 6؛ وانظر: موسى لقبال، المغرب الإسلامي (الجزائر: 1981)، ص 71؛ حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب (القاهرة: 1947)، ص 260.

(18) البكري، المصدر السابق، ص 38؛ التجاني، المصدر السابق، ص 68؛ وقارن: الرقيق القيرواني، المصدر السابق، ص 66؛ عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي (الأسكندرية: 1979): 1 / 232.

(19) البكري، المصدر السابق، ص 38.

(20) أبو بكر عبد الله المالكي، رياض النفوس، تحقيق: حسين مؤنس (القاهرة: 1951): 1 / 38؛ البكري، المصدر السابق، ص 37؛ وانظر: سالم والعبادي، تاريخ البحرية في المغرب والأندلس، ص 32.

(21) عبد الحميد، المرجع السابق: 1 / 90، وانظر الشكل رقم (1).

(22) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، الأمامة والسياسة (منسوب)، تحقيق: طه محمد الزيني (القاهرة: 1967): 2 / 57؛ البكري، المصدر السابق، ص 38.

(23) المصدر نفسه، ص 39؛ الرقيق القيرواني، المصدر السابق، ص 107؛ مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص 120 - 121؛ محمد بن القاسم القيرواني ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار أفريقية وتونس، تحقيق: محمد شمام (تونس: 1378 هـ)، ص 9.

(24)(F. P. Scbag, " Les Trava ux maritimes de Hassan Ibn Nu'man'n Institut de Belles letters Arabes XXX I I I, 1970, P. 55.

(نقلاً عن: عبد الواحد ذنون طه، الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال أفريقيا والأندلس) (بغداد، ميلانو: 1982)، ص 137.

(25) سالم والعبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، ص 35.

(26) شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان (بيروت: 1957): 4 / 413؛ الحميري، المصدر السابق، ص 485 - 486.

(27) الرقيق القيرواني، المصدر السابق، ص 52 - 53؛ البكري، المصدر السابق، ص 45؛ أمين توفيق الطيبي، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب العربي (ليبيا - تونس: 1984)، ص 97؛ إبراهيم أحمد العدوي، موسى بن نصير (القاهرة: د. ت)، ص 45 - 46؛ عبد الواحد ذنون طه، موسى بن نصير (بغداد: 1989)، ص 67.

(28) عزيز أحمد، تاريخ صقلية الإسلامية، ترجمة وإضافة: توفيق أمين الطيبي (بيروت: 1980)، ص 9؛ عمر فروخ، العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر المتوسط (بيروت: 1959)، ص 91؛ العبيدي، المرجع السابق، ص 99.

(29) ابن قتيبة، المصدر السابق: 2 / 58؛ ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص 16.

(30) ابن قتيبة، المصدر السابق: 2 / 58؛ أبو العباس أحمد بن محمد بن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج. س كون وليفي بروفنسال (ليدن: 1984): 1 / 42؛ ابن دينار، المصدر السابق، ص 16.

(31) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: أكرم ضياء العمري (النجف: 1967): 1 / 333؛ وقارن: عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، نشر: شارلس توري (نيو هيفن: 1922)، ص 215؛ محمد بن أبي نصر الحميدي، جذوة المقتبس (القاهرة: 1966)، ص 45؛ أحمد بن يحيى الضبي، بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس (بغداد: د. ت)، ص 51 (حيث

=

=

ذكروا فقط بأن ابن أوس كان صاحب البحر بتونس سنة 102 هـ)؛ وانظر: ابن عذاري، المصدر السابق: 1 / 49.

(32) ابن عذاري، المصدر السابق: 1 / 49؛ أحمد بن خالد الناصري السلاوي، الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري (الدار البيضاء: 1954): 109/1.

(33) ابن خياط، المصدر السابق: 2 / 353 - 354.

(34) ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص 215؛ ابن أبي دينار، المصدر السابق ن ص 39، 40.

(35) ابن خياط، المصدر السابق: 2 / 357، 359، 360، 361.

(36) المصدر نفسه: 2 / 362.

(37) المصدر نفسه: 2 / 363؛ عبد الحميد، المرجع السابق: 1 / 81.

(38) الرقيق القيرواني، المصدر السابق، ص 108، 109؛ السلاوي، المصدر السابق: 1 / 105 - 106؛ وانظر: أحمد، المرجع السابق، ص 10 - 11.

(39) ابن عذاري، المصدر السابق: 1 / 52 - 53؛ وراجع: عبد العزيز، المرجع السابق، ص 10 - 11؛ سالم والعبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، ص 40.

(40) الحموي، المصدر السابق: 3 / 209.

(41) ابن قتيبة، المصدر السابق: 2 / 57 - 58؛ انظر: المرجع السابق، ص 68 - 69.

(42) ابن خياط، المصدر السابق: 1 / 303 - 304.

(43) ابن قتيبة، المصدر السابق: 2 / 58.

(44) عزالدين أبو الحسن علي بن الأثير، الكامل في التاريخ (بيروت: 1965 - 1966): 4 / 567 - 568.

(45) ابن خياط، المصدر السابق: 1 / 336 - 2 / 349 - 352.

(46) انظر: عبد الحميد، المرجع السابق: 1 / 271 - 272؛ العبيدي، المرجع السابق، ص 102.

(47) ابن خياط، المصدر السابق: 2 / 362، 364.

(48) المصدر نفسه: 2 / 514 - 517.

(49) انظر: عبد الحميد، المرجع السابق: 1 / 281.

(50) انظر فيما سبق: ص.

(51) عصام سالم سيسالم، جزر الأندلس المنسية (بيروت: 1984)، ص 15 - 17.

(52) ابن خياط، المصدر السابق: 2 / 305؛ ابن سعيد المغربي وأسرته، المغرب في حلى المغرب، تحقيق: شوقي ضيف (القاهرة: 1964): 2 / 466؛ يوسف بن تغري أبو المحاسن، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (القاهرة: 1956): 1 / 216 (وقد خلط كل من ابن خياط وأبو المحاسن بين هذه الحملة وحملة الأشراف التي قام بها عبد الله بن موسى)؛ السلاوي، المصدر السابق: 1 / 96.

الأهمية السياسية والعسكرية لمضيق جبل طارق في تاريخ المغرب والأندلس

من الفتح حتى سقوط الخلافة

92-422هـ / 710-1030م

إن مصطلح مضيق جبل طارق قد جاء مرادفاً لتسميات عديدة منها (بحر الزقاق) [1]، و (المجاز) [2]، و (مجمع البحرين) [3]، كما عرف في التاريخ القديم بـ(مضيق قادس) أو (مضيق هرقل) [4].

وتدور فكرة الأسطورة التي قبلت بشأن المضيق حول قصة دخول الإسكندر إلى شبه جزيرة أيبريا Iberian peninsula، ولقائه بأهلها الذين أبدوا له استياءهم من جيرانهم المقابلين لهم في المغرب، والذين كانوا يتحينون الفرص للانتقال إلى شبه جزيرة أيبريا مستخدمين أرض المضيق اليابسة معبراً لهم، واستجابة لطلبهم ولتخليصهم من تدخل أهالي المغرب ببلادهم. أمر المهندسين بغمر أراضيه وتشييد أرصفة على جانبيه[5] ومضيق جبل طارق ممر مائي ضيق [6]، تلتقي فيه مياه غرب البحر المتوسط مع مياه شرق المحيط الأطلسي، ويبلغ طوله ثلاثة وثلاثين ميلاً، أي (واحداً وستين كيلو متراً)، أما عرضه فيبلغ أربعة وعشرين ميلاً بحرياً [7] أي (أربعة وأربعين كيلو متراً) عند النهاية الغربية، وثلاثة عشر ميلاً أي (أربعة وعشرين كيلو متراً) عند النهاية الشرقية، وأضيق عرض للمضيق يبلغ سبعة أميال ونصف أي (أربعة عشر كيلو متراً) وتصل أعماقه إلى قرابة ستمائة قامة بحرية [8] ويضم ساحل المضيق من جهة المغرب العربي كلاً من مدينة سبته Ceuta، وقصر مصمودة، وطنجة Tangeir [9] ويضم من جهة شبه جزيرة ايبريا كلاً من جبل طارق Gilbrattar، والجزيرة الخضراء Algeciras، وجزيرة طريف Tarifa [10].

أولاً: دور المضيق في فتح شبه جزيرة أيبريا:

لم يأت الفتح العربي الإسلامي لشبه جزيرة أيبريا اعتباطاً وعشوائياً، بل جاء ضمن خطة مركزية وضعها قادة الفتح في المنطقة والسلطة المركزية في دمشق، وقد برز في هذه الفتوح القائدان طارق بن زياد، وموسى بن نصير، إذ تولى الأخير ولاية أفريقية أواخر العام (85 هـ / 704 م) وأثبت جدارته الإدارية والعسكرية، وتمكن بمساعدة طارق بن زياد من إكمال تحرير المغرب، باستثناء مدينة سبته التي استعصت عليه، إذ أبدى حاكمها يوليان مقاومة كبيرة، وقد ساعدته في ذلك الحصانة الطبيعية للمدينة، والمساعدات التي كانت يتلقاها من القوط في شبه جزيرة أيبريا في عهد ملكهم غيطشة، ولم يتوقف موسى عندها طويلاً بل تركها وزحف بجيشه نحو طنجة [11].

وقد تغير موقف يوليان بعد أن تمكن العرب المسلمون من تحرير معظم أجزاء الشمال الأفريقي الذي أصبح جزءاً من دولتهم، فوجد أن من مصلحته الخضوع لإرادة العرب المسلمين، فقد اصبح بعيداً عن مركز الدولة البيزنطية في القسطنطينية وفي الوقت نفسه توقفت المساعدات والإمدادات التي كانت ترسل له من شبه جزيرة أيبريا بعد وفاة حليفه القوطي غيطشة، وسيطرة لذريق على الحكم، وانشغاله بمشكلاته الداخلية. [12] لذا فقد أرسل إلى موسى بن نصير يطلب الصلح بشرط أن يبقى حاكماً على سبته مقابل اعترافه بالحكم العربي، [13] وقد وافق موسى بن نصير على طلبه، ثم عاد إلى القيروان، تاركاً طارق بن زياد عاملاً على طنجة وقائداً للحامية العسكرية فيها [14].

وفي هذه الأثناء اتصل يوليان بقادة الفتح العربي الإسلامي ودعاهم إلى فتح شبه جزيرة أيبريا [15]، فشجع العرب، ولكن لم يكن هو السبب الرئيسي الذي دفعهم للفتح، كما تذكر أغلب المصادر، وتشير إلى قصة ابنته الأسطورية [16]، لأن العرب خرجوا فاتحين ومجاهدين لإعلاء كلمة الحق، ونشر الدين الإسلامي أولا، ولم يكن فتحهم بسبب غضبة رجل كائناً من كان ذلك الرجل [17]، ثم إن الضرورة العسكرية والدفاعية لتأمين الفتح العربي الإسلامي للمغرب، ولاسيما منطقة المضيق حتمت الفتح، إذ من المحتمل أن لا تسلم مدينتا سبته وطنجة المهمتان من أي هجوم محتمل - وفي أي وقت - يشنه القوط، لذا فمن المؤكد أن فتح شبه

جزيرة أيبريا جاء نتيجة طبيعية، وضرورة حتمية لاستمرار حركة الفتح في المغرب، وبخاصة بعد أن تمكن العرب المسلمون من كسب ثقة السكان المحليين الذين دخلوا في الإسلام، واطلعوا على جوهر الرسالة الإسلامية، وأخذوا يتقربون إلى العرب الفاتحين فاندمجوا معهم والتحقوا بصفوف جيشهم فضاق المجال المغربي بهذه القوة العسكرية الضاربة، وأصبح من الضروري دفع هذه الجموع المتحمسة للجهاد إلى ميدان جديد لإشباع الجانب الروحي فيها، ولمد السيادة العربية خارج المغرب، فكانت شبه جزيرة أيبريا هي المجال الحيوي للفتح.

وقد برز من السكان المحليين عدد من القادة الكبار من أمثال طارق بن زياد الذي اعتمد عليه موسى بن نصير وجعله قائداً للحامية العسكرية في طنجة. ويبدو أنه كان من الصعب على طارق بن زياد الذي يقود مثل هذه القوة المنظمة أن يقاوم فكرة عبور المضيق إلى شبه جزيرة أيبريا، وبخاصة أن مناطق الجنوب كانت صحراوية لا تشجع على التوغل فيها، فضلاً عن أن هؤلاء الجنود من القبائل المغربية كانوا على علم تام بأهمية العلاقات بين المغرب وشبه جزيرة أيبريا إذ كانوا على اتصال دائم مع سواحلها الجنوبية لقربها منهم، وكانوا أيضا بلا شك يعلمون عن خصبها وغناها، وعن طبيعة مشكلاتها الاجتماعية والسياسية، وضعف دولة القوط الغربيين فيها [18].

ومن خلال ما تقدم فإن طبيعة الموقف على جانبي المضيق في العقد الأخير من القرن الأول الهجري / بداية القرن الثامن الميلادي كانت تؤكد ضرورة التقدم والإسراع في عملية الفتح العربي لشبه جزيرة أيبريا.

وقبل أن يبدأ طارق بن زياد بالفتح اتصل بالقائد الأعلى موسى بن نصير في القيروان، واتصل موسى بدوره بالخليفة الوليد بن عبد الملك (86 - 96هـ /705 - 715 م) ليعلمه بما عرض عليه يوليان، وليستأذنه في الفتح، ويستأنس برأيه ويأخذ بمشورته، وقد رد عليه الوليد بالموافقة شرط أن تختبر المنطقة بالسرايا، وأن لا يغرر بجيش المسلمين في ركوب بحر متسع شديد الأهوال [19]. فكتب إليه موسى يهون له الأمر، ويؤكد سهولة عملية عبور جيش المسلمين بقوله: "إنه ليس ببحر وإنما هو خليج يصف صفة ما خلفه للناظر" [20]، ولكن خوف الوليد على جيش المسلمين جعله يصر على اختبار المنطقة بالسرايا بقوله: " وإن كان فاختبره

بالسرايا "[21].

وقام طارق بن زياد وبإيعاز من القائد الأعلى موسى بن نصير، بسبب موقعه السوقي الممتاز على المضيق في رمضان من السنة 91 هـ / آب - أيلول 710 م، بإرسال حملة استطلاعية بقيادة أبي زرعة طريف بن مالك المعافري الذي عبر المضيق مع أربعمائة راجل ومائة فارس على متن أربعة مراكب هيأها يوليان، ونزلت على الشاطئ في منتصف المضيق في مكان أطلق عليه اسم قائد الحملة طريف (Tarifa)، ومن هذا المكان قام طريف وجنده، وبتوجيه يوليان ومساعدته بشن غارات سريعة امتدت حتى الجزيرة الخضراء[22]. وقد تكللت جهود هذه الحملة بالنجاح مما شجع طارقاً على المضي في عملية الفتح لشبه الجزيرة، إذ عاد يوليان ثانية بطلبه إلى موسى بن نصير بالإسراع بعملية الفتح معلماً إياه بما كان منه ومن طريف من فعل وبلاء، فدعا عند ذلك مولاه طارق بن زياد وعقد له على فتح شبه الجزيرة[23].

وفي العام التالي من رجب 92 هـ / نيسان 711 م، قاد طارق بن زياد بنفسه حملة إلى شبه الجزيرة، شكل أفراد القبائل المغربية غالبية رجالها[24]، وقد شارك في الحملة أيضاً يوليان، وعدد من رجاله بوصفهم أدلاء للمسلمين يتجسسون لهم الأخبار ويدلونهم على مواطن الضعف[25]، وقد عبر طارق بسبعة آلاف من الجند، ثم أمده موسى بن نصير بخمسة آلاف جندي قبيل المعركة[26]، وقد تمت عملية العبور تباعاً من مدينة سبته[27] على متون أربع سفن تجارية هيأها يوليان لأنه أراد أن يحيط عملية عبوره بالسرية التامة، وقد أكد لنا ذلك عدد من مؤرخينا القدامى بالقول: " فجعل (طارق) أليان يحمل البربر في مراكب التجار التي تختلف إلى الأندلس، ولا يشعر بهم أهل الأندلس، ولا يظنون إلا أنها تختلف بمثل ما كانت تختلف به من منافعهم ومعايشهم ومتاجرهم، فجعل ينقلهم فوجاً فوجاً إلى ساحل الأندلس ...[28].

ومن الجدير بالذكر أن معظم مصادرنا القديمة تشير إلى حملة جبل طارق باقتضاب شديد، فهي تذكر أن طارقاً قد نزل في الجبل المنسوب إليه دون أن يلقى مقاومة[29]، وهذه الرواية تبدو بعيدة عن الصواب لأن هذا الجبل يمثل موقعاً سوقياً مهماً منذ أقدم العصور[30]، فهو واحد من نقاط الاتصال بين المغرب وشبه

الجزيرة، والمتحكم في المضيق ضد أي هجوم على شبه الجزيرة من ناحية المغرب، ولا ريب في أن القوط في أواخر أيامهم كانوا على علم بتطور الأحداث على الجانب المغربي من المضيق وتنامي قوة العرب المسلمين هناك، فضلاً عن أن الحملات الاستطلاعية التي شنها كل من يوليان وطريف [31]، قد نبهتهم على خطر قوة العرب المسلمين، إذ كانت بمثابة إنذار لهم كي يأخذوا حذرهم وحيطتهم لأي هجوم متوقع، فقد عهد الملك لذريق (Rodric) إلى القائد القوطي تدمير (Theodemir) بمسؤولية الدفاع عن هذه المنطقة [32]، وربما كانوا على علم بنوايا المسلمين وخططهم في الفتح، لأن عرض مضيق جبل طارق في أضيق جهاته تقرب من أربعة عشر كيلو متراً، وهذه مسافة لا وزن لها من ناحية الانتشار العسكري بين الساحلين المغربي والأيبيري، إذاً لا بد من أن القوط - مهما بلغ ضعفهم - لم يهملوا هذه القاعدة السوقية، ويتركوها من دون حراسة ومراقبة [33].

لهذا لم يكن نزول طارق عند الجبل بهذه السهولة التي صورتها لنا عدد من مصادرنا التاريخية، بل لا بد من أنه قد جابه مقاومة عنيفة دفعته إلى تغيير خطته العسكرية والنزول بجيشه ليلاً في مكان آخر صخري ووعر مستخدمين براذع الدواب ومجاذف السفن، كي تعينهم على خوض المياه، وارتقاء الصخور بغية الالتفاف حول العدو والانقضاض عليه قبل أن يشعر بهم، وقد أكد ذلك ما جاء به ابن الكردبوس في وصفه لعملية النزول بقوله " فمضى (طارق) لسبته، وجاز في مراكبه إلى الجبل ... فسمي جبل طارق باسمه إلى الآن وذلك سنة اثنتين وتسعين من الهجرة، ووجد بعض الروم وقوفاً في موضع وعر فوطأه بالمجاذف وبراذع الدواب ونزل في البر وهم لا يعلمون، فشن غارة عليهم وأوقع بهم وغنمهم " [34].

وعلى الرغم من أن هذه المعركة كانت محدودة بيد أنها كانت على جانب كبير من الأهمية العسكرية إذ قررت نجاح عملية الفتح والسيطرة على موضع قدم للجيش العابر من المغرب إلى شبه الجزيرة، ومكنته من ضمان الاتصال مع خطوطه الخلفية في المغرب، كما أنها بثت الرعب في قلوب القوات القوطية التي انهزمت مذعورة لتنقل أخبار هزيمتها إلى الملك لذريق على لسان أحد أفرادها الذي قال بان: قوات لا قبل لهم بها قد هاجمتهم، وهو لا يعلم أهي هبطت من السماء أم طلعت عليهم من باطن الأرض[35].

ثم قام طارق وقواته بتحصين موقعهم في الجبل ببناء سور حولهم سمي بسور العرب [36]، وقد أثار عدد من المستشرقين والمؤرخين العرب شكوكاً حول بناء هذا السور وبنوا شكوكهم على أساس أن طارقاً لم ينو البقاء مدة طويلة في الجبل لأن هدفه هو فتح المناطق المجاورة للجبل كالجزيرة الخضراء وغيرها [37] واعتمدوا في ذلك على قول ابن الأثير: " نزل [طارق] من الجبل إلى الصحراء وافتتح الجزيرة الخضراء وغيرها وفارق الحصن الذي في الجبل " [38].

ويبدو أن هؤلاء المؤرخين قد اختلط عليهم الأمر في المعنى العسكري الدقيق لمفهوم التحصين والذي يعني أنه من واجب كل مقاتل ان يحصن موقعه حتى لو كان وقتياً ومن المواد المتيسرة في الموقع [39]. إذ أن من واجب القائد وجنده ان لا يغفلوا عن تحصين مواقعهم تحسباً واستعداداً لأي هجوم محتمل والسور الذي بناه طارق لا يعني إقامة الحصون المشيدة كما فهمه هؤلاء المؤرخون بل هو بمثابة جدار تمت إقامته من الصخور والاحجار الموجودة في الجبل كي يحتمي وراءه المقاتلون من كل خطر محتمل [40].

وبعد أن أمن طارق موقعه في الجبل أرسل كتيبة من المقاتلين الأشداء تحت قيادة أحد قادته وهو عبد الرحمن بن أبي عامر المعافري لفتح حصن قرطاجنة الواقع إلى الشمال الغربي من الجبل ويدعى الآن بـ (Tone de Cartagema) [41]. ثم توجه بعد ذلك لفتح الجزيرة الخضراء المجاورة للجبل وإحكام السيطرة عليها [42]، واستخدامها قاعدة عسكرية لحماية ظهره في حالة الانسحاب، بوصفها أسهل وأقرب نقطة للاتصال بقاعدة سبته على الساحل المغربي، وفي الوقت نفسه يصعب اتصالها بشبه الجزيرة لوجود حاجز من المرتفعات بينهما، وأقام قاعدة أمامية في جزيرة طريف بقيادة طريف بن مالك المعافري [43]. وبذلك حقق هدفه في السيطرة على الساحل الأيبيري على المضيق وضمن السيطرة الكاملة على منافذ العبور بين الساحلين للمضيق، وسهل العبور والاتصال، ووصول الإمدادات المادية والبشرية دون تعرضها لأي خطر، وفي الوقت نفسه أمن حماية مؤخرة القوات الموجودة في الجانب الأيبيري.

وبعد أن أحكم سيطرته على المضيق بكامله، وأمن خطوط مواصلاته، بدأ في تحقيق أهدافه في الفتح إذ وصل زحفه نحو كورة شذونة Sidonia في الجنوب

الغربي من شبه الجزيرة متخذاً المرتفعات الجنوبية الساحلية مصداً وحامياً له من الشمال، كما اتخذ الجزيرة الخضراء وطريفا قاعدتين لحماية مؤخرة جيشه، ومن طريف تابع تقدمه حتى وصل إلى بحيرة الخندق (لاخاندا) Laguna dela Janda وعسكر هناك واتخذها حاجزاً بينه وبين العدو فجعلها على جهته اليمنى، والبحر على جهته اليسرى، في حين جعل الطريق بينه وبين طريف والجزيرة الخضراء مفتوحاً من جهة الجنوب لإيصال الإمدادات تحسبا لكل الظروف التي قد تضطره إلى الانسحاب والتراجع[44].

وعندما وصلت أنباء زحف طارق بن زياد إلى الملك لذريق الذي كان مشغولا في القضاء على إحدى تمردات الباسك أو البشكنس Basques في الشمال الشرقي، كان من الصعوبة سحب قواته ونقلها من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب حيث ميدان العمليات العسكرية لأنه يحتاج إلى وقت طويل، لذا فقد قرر على وجه السرعة إرسال قوات تحت قيادة ابن أخته المدعو (بنج Banj) لمنع تقدم قوات المسلمين وإجلائهم عن المناطق التي فتحوها جنوباً، لحين وصوله بقواته الكبيرة، والتقى بنج بجيش المسلمين، وتمكن طارق من دحر قواته وقتله، وكان لهذا الانتصار أثر كبير في رفع معنويات المسلمين، وإكمال عملية الفتح الكبرى [45].

وسارع لذريق بجيشه الكبير الذي بلغ تعداده ما بين أربعين إلى مائة ألف مقاتل[46]، وهذا العدد كما يبدو مبالغ فيه، وعندما علم طارق بن زياد بهذه الحشود الضخمة كتب إلى موسى بن نصير بالفتح طالباً منه النجدة وقد صور لنا ذلك صاحب أخبار مجموعة بقوله: " كتب (طارق) إلى موسى يستمده ويخبره أن قد فتح الله الجزيرة واستولوا عليها وعلى البحيرة، وأنه قد زحف إليه ملك الأندلس بما لا طاقة له به، وكان موسى مذ وجه طارقاً أخذ في عمل السفن حتى صارت معه سفن كثيرة، فحمل إليه خمسة آلاف ... " [47]، وقد عبرت هذه القوات بكل سهولة وأمان نظراً لسيطرة قوات المسلمين على ساحلي المضيق.

وتجمع مصادرنا على أن المعركة الفاصلة التي دارت بين القوط الغربيين والجيش العربي الإسلامي كانت في كورة شذونة Sidonia، ولكنها اختلفت في المكان المحدد ضمن هذه الكورة، لذا فقد جاءت هذه المعركة بأسماء عديدة منها

معركة وادي لكة أوبكة، وادي شريش، وادي البرباط، معركة البحيرة، السواقي، السواني [48]. إن هذه المعركة التي توقف عليها مصير شبه الجزيرة في يد العرب المسلمين كانت أكبر وأعظم من أن تحدد بمثل هذه الأماكن الضيقة والمحددة، فهي معركة كورة شذونة بأسرها، وإن اقتران تسمية المعركة بهذه الأماكن ما هو إلا دليل على كبر حجمها بحيث غطت مناطق كثيرة من كورة شذونة. ومما يؤيد هذا الرأي أن بقية المعارك التي حدثت بين المسلمين والقوط الغربيين ما كانت إلاّ مناوشات خفيفة موازنة بهذه المعركة الفاصلة [49]، وقد دامت هذه المعركة ثمانية أيام (28 رمضان - 5 شوال 92 هـ / 19 - 26 تموز 711 م) [50]، وهذا دليل على مدى شدتها وضراوتها، وكانت نتيجتها ان انهزم القوط وتكبدوا خسائر فادحة، أما عن مصير لذريق فلم يكن معروفا إذ لم يعثر عليه، ومن المحتمل أنه قد غرق في أحد المستنقعات [51]، وبعد انتهاء المعركة كتب طارق بن زياد إلى موسى بن نصير بالفتح، وكتب موسى بدوره إلى الخليفة الوليد بن عبد الله بن عبد الملك [52].

وكان من نتائج هذه المعركة، أنه ما كادت تصل أخبار انتصار جيش طارق بن زياد على القوط إلى أسماع العرب المسلمين في المغرب، حتى تسارعوا إلى عبور المضيق، ومن هنا يتبين بأن المضيق أصبح منطقة تخضع في سيادتها إلى الدولة العربية الإسلامية، الأمر الذي جعلها معبراً طبيعياً أمينا يقصده كل من يريد الانتقال بين الجهتين، وفي ذلك توضيح لما ذكره المقري بقوله: " وتسامع الناس من أهل بر العدوة بالفتح على طارق بالأندلس وسعة المغانم فيها، فأقبلوا نحوه من كل وجه، وخرقوا البحر على ما قدروا عليه من مركب وقشر، فلحقوا بطارق وارتفع أهل الأندلس عند ذلك إلى الحصون والقلاع، وتهاربوا من السهل ولحقوا بالجبال " [53].

كما قضت هذه المعركة على قوة القوط الرئيسة، وكسرت شوكتهم، وفتحت أبواب شبه الجزيرة للمسلمين، ومهدت الطريق للعمليات العسكرية التالية التي كان اغلبها يمثل ملاحقة لفلول العدو المنهزمة إلى حاميات المدن الأخرى لإنهاء مقاومتهم.

وبعد النجاح الكبير الذي حققه طارق بن زياد في شبه الجزيرة، قرر موسى بن نصير أن يلحق به بجيش آخر، ويشاركه في عملية الفتح ويطلع بنفسه

على سير العمليات الحربية هناك، فأبحر من مرسى موسى الواقع بالقرب من قرية بليونش التي تبعد عن سبته مسافة ثمانية كيلومترات ونزل عند ساحل الجزيرة الخضراء [54]. وكان سبب اختيار موسى بن نصير لمرسى موسى نقطة لانطلاقه، لأنها أصبحت مأمونة الجانب كغيرها من مناطق الساحل المغربي للمضيق، كما إنها تعد اقرب نقطة إلى الجزيرة الخضراء التي أصبحت تعد قاعدة عسكرية أولية للقوات العربية الإسلامية بعد عبورها المضيق، تستطيع من خلالها أن تستكمل عدتها وتعيد تنظيماتها بما يؤهلها لأداء واجبها العسكري المكلفة به.

وتبرز أهمية المضيق بعد أحكام سيطرة العرب المسلمين على جانبيه في عملية عبور حملة موسى بن نصير، إذ لا بد من أنها قد تمت في ظل وضع أمين ومستقر، وبكل سهولة ويسر، لهذا فقد جاءت مختلفة عن حملة طارق بن زياد التي قد اتسمت بالكتمان والسرية، وتمت في ظل ظروف صعبة وخطرة.

وكان دخول موسى بن نصير لشبه جزيرة أيبريا في رمضان من السنة 93 هـ حزيران - تموز 712 م [55]. وفي أثناء وجوده في الجزيرة الخضراء أمر ببناء الحجر الأساس لأول مسجد هناك سمي بمسجد الرايات [56].

وفي العام (95 هـ / 714 م) جاء أمر الخليفة الوليد بن عبد الملك، القاضي بوقف العمليات العسكرية والعودة إلى دمشق، ويتضح من الرواية التي ذكرت عودة القائدين وإبحارهما من إشبيلية Seviella [57] أنهما سلكا طريق الوادي الكبير المؤدي إلى الجهة الشمالية الغربية من المضيق، وهذا يبين لنا بأنه حتى هذه الجهة المتطرفة من المضيق أصبحت تحت سيادة العرب المسلمين، ومن ثم باتت مأمونة الجانب.

ثانياً: المضيق على عصر الولاية (95 – 138 هـ /714 – 755 م):

قبل مغادرة موسى بن نصير الأندلس، ترك ولده عبد العزيز والياً عليها، واختار له مدينة أشبيلية عاصمة للبلاد لقربها من المضيق [58]، وهذا يعني أنه كان يهدف من وراء ذلك أن يجعله على اتصال دائم ومستمر بالمغرب، ولا سيما في حالة تعرض العرب المسلمين في الأندلس لأي خطر محتمل، وهذا دليل واضح على أهمية المضيق في ربط البلدين.

وبهذا أصبحت الأندلس ولاية عربية تابعة للخلافة الأموية بدمشق يحكمها

وال يعرف بالأمير يتبع أمير أفريقية من الناحية الإدارية، وقد عرف هذا العصر في التاريخ الأندلسي بعصر الولاية الذي استمر حتى قيام الإمارة الأموية في السنة 138هـ / 755 م.

وفي هذا العصر خيم الصمت ولمدة ربع قرن من الزمن على مضيق جبل طارق، وهذا الصمت لا يعد سلبياً بل هو صمت إيجابي، لأن المضيق أصبح عربياً وهادئاً ولا يوجد ما يعكر صفوة على الجانبين. ولكن أهمية المضيق تظهر من جديد في إحداث الفتن والاضطرابات الداخلية في المغرب، وانتقال صداها وتأثيرها عبر المضيق إلى الأندلس، ففي السنة 122هـ / 740 م، تمرد السكان المحليون على والي القيروان عبيد الله بن الحبحاب (116 - 123 هـ / 734 - 741 م) [59]، وقد قاد حركتهم (ميسرة المطغري) [60] في أطراف طنجة، وعلى ما يبدو فإن اختيار أحواز طنجة منطلقاً لهذه الحركة يعود إلى سببين:

الأول: أنها موقع متطرف على المضيق، ومنطقة نائية عن سلطة والي المغرب الذي يقع مقره في القيروان.

الآخر: أن هذه المنطقة كانت توفر حماية للمتمردين من خلال وجود سلسلة جبال غمارة [61].

وقد تمكن أتباع ميسرة من قتل حاكم طنجة (عمر بن عبد الله المرادي) والسيطرة عليها، وقد استاء ابن الحبحاب من هذه الأخبار، وسارع بإرسال جيش ضم وجوهاً عربية من قريش والأنصار وغيرهم، تحت قيادة خالد بن حبيب الفهري، وفي الوقت نفسه كتب إلى حبيب بن أبي عبيدة يأمره بالرجوع من صقلية ليشارك خالداً في القضاء على حركة المتمردين في طنجة، وعندما سمع ميسرة، خرج بجموعه ولاقاهم عند وادي شلف بالقرب من تيهرت واقتتلوا قتالاً شديداً، ثم انسحب ميسرة إلى طنجة دون الإشارة إلى أسباب ذلك، ثم قام أتباعه بعزله عن منصبه بوصفه خليفة، وقتله بسبب سوء سيرته [62]. ولكن من المحتمل أن يكون مقتل ميسرة قد حدث بسبب عدم رغبة قسم من المتمردين بالانفصال التام عن الحكم العربي، ومما يدعم هذا الرأي امتناع المتمردين عن تنصيب خلفه المختار خالد بن حميد الزناتي خليفة لهم [63]، وقد تمكن زعيمهم الجديد الذي دخل بجموعه الكثيرة في قتال مع خالد بن حبيب الذي لم يستطع الصمود ومني بهزيمة

ساحقة أودت بحياته وحياة عدد كبير من جيشه وسميت تلك المعركة بغزوة الأشراف [64].

وتشير حولية العام 754م إلى أن عامل الأندلس عقبة بن الحجاج أسرع لنجدة والي المغرب في القضاء على التمرد، وذلك بعد أن تلقى منه رسائل بشأن حركة السكان المحليين فعبر المضيق وهاجم مواقع المتمردين[65].

ولكن هذه الرواية بعيدة الاحتمال إذ لم يرد لها ذكر في مصادرنا التاريخية، فضلاً عن أن الأحوال في الأندلس آنذاك لم تكن بأحسن مما كانت عليه في المغرب، إذ ما إن سمع أهل الأندلس بحركة المتمردين في المغرب بحكم قرب البلدين حتى وثبوا على أميرهم عقبة بن الحجاج وعزلوه وولوا عبد الملك بن قطن[66].

وعندما وصلت أخبار هذه الكارثة إلى دمشق أصدر الخليفة هشام بن عبد الملك (105 - 125 هـ / 724 - 743 م) قراراً بعزل عبيد الله بن الحبحاب في العام 123هـ /740 م، وتعيين كلثوم بن عياض، فسار على رأس جيش كبير يتقدم طلائعه ابن اخيه بلج بن بشر القشيري، وفي أثناء مسيرته انضم إلى جيشه جند من مصر وأفريقية فسار بهم جميعاً إلى طنجة، ثم تلقاه المتمردون عند قرية (بقدوره) الواقعة على نهر سبو، ودارت معركة كبيرة كانت نتيجتها مقتل القائد كلثوم، وهزيمة الجيش العربي وتشتيته، فمن نجا من جند أفريقية فر هارباً إليها، في حين توجه بلج بمن بقي من فرقته إلى سبته معتصماً هناك. ومما يفسر الأسباب التي دفعت بلج إلى اختيار سبته أنها كانت مدينة حصينة من الصعب اختراقها الا عن طريق البحر، وهذا ما عكسه عجز قوات المتمردين بزعامة خالد الزناتي من اقتحامها والقضاء على بقايا القوات العربية المتحصنة فيها. فضلاً عن ان اختيار بلج كان واقعياً لأنه أراد أن يؤمن سبيل نجدته وانتقاله إلى الأندلس من المكان الطبيعي للعبور إلى الجهة الثانية من المضيق.

ولهذا عندما يئس المتمردون من اقتحام سبته، عمدوا إلى نسف مزارعها وتخريبها، فأقفرت الأرض حول سبته، فجاعوا حتى أكلوا دوابهم، وجلود الحيوانات وأشرفوا على الهلاك، وقد حاول بلج التخلص من هذا الحصار بعبوره المضيق من سبته إلى الأندلس، وكتب بذلك مرات إلى أميرها عبد الملك بن قطن

يطلب منه العون والإمدادات، لكن الأمير تغافل عنه، وخاف على سلطانه منه ومن جنده الشاميين[67].

ولكن تغافل عبد الملك بن قطن ورفضه لم يدوما طويلاً، فقد انقلب الوضع ضده، وتغيرت الظروف لصالح بلج وجنده، ولاحت فرصة عبور المضيق لأن الأندلس كانت مرتبطة بالمغرب، ومعنية بكل ما يجري على أرضه من أحداث فهي تتأثر به وتنعكس أحداثها عليه، فقد انتقلت عدوى تمرد القبائل المغربية وربما قسم منهم إلى الأندلس وأثاروا إخوانهم ضد السلطة المركزية وبخاصة في المناطق الشمالية في جليقية Galicia، وأسترقه Astorga، والمداين Almadaen لبعدها عن مركز الحكم في قرطبة Gordoba، فقد سيطروا عليها وعدوها مناطق نفوذ لهم باستثناء منطقة سرقسطة Saragossa إذ كان العرب فيها يشكلون قوة كبيرة [68].

وقد اختلفت المصادر في قائد التمرد، منهم من سماه (بابن هذين)[69]، أو باسم (زقطرنق) [70]. ويحتمل أن التمرد قد تولى أمره عدة قيادات خططت بينها من أجل تحقيق هدف واحد هو القضاء على السلطة العربية في الأندلس من خلال تحريك ثلاثة جيوش في وقت واحد، و جهة الأول طليطلة، والثاني قرطبة والثالث - وهو الأكثر أهمية - وجه إلى الجزيرة الخضراء [71]، إذ أن من يمتلك الجزيرة الخضراء يكون بمقدوره أن يتحكم بجهتي المضيق لأن الجزيرة الخضراء هي المعبر الوحيد المعتمد من الأندلس إلى المغرب آنذاك ومن خلالها تنسق الجهود مع المتمردين في المغرب، وتحاصر القوة العسكرية برئاسة بلج في سبته براً وبحراً ويقضي عليها، ومن ثم يمنع وصول أي عون وإمدادات إلى الأندلس ويحاصرون حصاراً لا خلاص لهم منه.

وقد عجز عبد الملك بن قطن عن قمع تمردهم، ومنع تقدم قواتهم نحو قرطبة، فخاف أن يلقى من هؤلاء المتمردين ما لقيه المغرب منهم، فلم يجد أمامه من سبيل سوى الاتصال ببلج وجنده، والسماح لهم بعبور المضيق إلى الأندلس، واشترط عليهم أن يغادروا الأندلس بعد القضاء على حركة المتمردين، وحدد بقاءهم لمدة سنة، واشترطوا عليه بدورهم أن يعيدهم إلى إفريقية دفعة واحدة ولا يفرقهم ويعرضهم لخوارج المغرب، وهذا دليل على سيطرة المتمردين على المضيق، وحتى يأمن من جانبهم فرض على كل فرقة تسليم عشرة رهائن يحتفظ

بها في الجزيرة الخضراء[72]. وأغلب الظن أن اختياره للجزيرة الخضراء كان تلويحاً للجند الشاميين بالالتزام بشروط الاتفاق المبرم بينهم وإلا فسيكون مصيرهم هو الموت بإرسالهم عبر المضيق ووضعهم تحت يد قوات المتمردين في الساحل المغربي للمضيق.

وقد تم الاتفاق وأرسلت إليهم السفن، وعبروا إلى الجزيرة الخضراء واستقبلهم عرب الأندلس وابن قطن، وأكرموا وفادتهم، وأجزل لهم العطاء، ووحدت جهود العرب جميعاً تحت قيادة واحدة مندفعين بكل عزم وإخلاص للقضاء على حركة المتمردين[73].

ونظراً لخطورة الجيش الثالث للمتمردين، فقد سارعوا أولاً إلى لقائه في منطقة شذونة من أجل إعاقة تقدمه ومنع وصوله، واستيلائه على الجزيرة الخضراء، لمنع أي اتصال بينه وبين متمردي المغرب، وكانت نتيجة المعركة الهزيمة الساحقة لهذا الجيش، وإضاعة أي أمل في الحصول على عون خارجي لدعم تمردهم [74]، وكان للقضاء عل هذا الجيش أثر كبير في تسهيل مهمة محاصرة الجيشين الآخرين والقضاء عليهما، إذ توجهت القوات العربية بعد ذلك إلى مدينة قرطبة لفك الحصار الذي فرضه الجيش الثاني، فتمكنوا من إنزال الهزيمة به [75]، ثم تابعوا المسير نحو طليطلة Toledo وقد اجتمع هناك معظم المتمردين وكانت هزيمتهم الكبرى عند (وادي سليط) في أحواز طليطلة [76]، وهكذا تم القضاء على حركة المتمردين في الأندلس قبل أن تأخذ مداها الواسع كما حدث في المغرب.

عادت جميع القوات العربية إلى قرطبة، وتقدم ابن قطن إلى الشاميين بطلبه، بمغادرة الأندلس تنفيذاً لاتفاقهم[77]. فأجابوه إلى ذلك شرط أن يكون عبورهم مجتمعين، وأن يجهزهم بسفن ليبحروا بها في الجنوب الشرقي من ساحل البيرة Elviva أو تدمير Tudmir (مرسية) urcia لا من الجزيرة الخضراء خوفاً من ملاقاة متمردي المغرب في سبته، فاعتذر ابن قطن بأن ليس له سفن إلا بالجزيرة الخضراء فاتهموه بأنه يريد أن يردهم إلى متمردي المغرب فيقتلوهم في بلادهم [78].

ومن المرجح أن ادعاء ابن قطن أن ليس له سفن كافية إلا في الجزيرة الخضراء صحيح، لأن هدفه وأمنيته التخلص من الجند الشاميين بتركهم الأندلس

سواء عن طريق ميناء الجزيرة الخضراء أو غيرها، ولولا خطورة الموقف على المضيق، لقام بنقل سفنه من الجزيرة الخضراء إلى ميناء آخر لنقلهم إلى جهة المغرب، ولكن خوفه من انتهاز المتمردين على الساحل المغربي للمضيق الفرصة والعبور إلى الأندلس جعلته يصر على أن يكون عبورهم من الجزيرة الخضراء.

وكان رد فعل الشاميين على إصرار ابن قطن أن انتفضوا عليه واعتقلوه وبايعوا صاحبهم بلجاً الذي استدعى الرهائن من جند الشام في الجزيرة الخضراء. ولما أقبلوا عليه شكوا له حالهم وما عانوه من جوع وعطش، بسبب إمساك والي الجزيرة الخضراء الطعام والشراب عنهم تضامناً من ابن قطن، ونتج عن ذلك موت أحدهم، وكان رجلاً غسانياً من أشراف الشام، ويبدو أنه كان يتمتع بمكانة عالية بين قومه، وقد أغاظ هذا الحدث الشاميين وبعث الغضب والاستياء فيهم، فحمَّلوا ابن قطن مسؤولية ذلك، وطلبوا من بلج تسليمه لهم ليقوموا بقتله، وقد حاول بلج تهدئتهم ومنعهم من الإقدام على مثل هذا الفعل لكنه فشل وأجبر على تسليمه وقتل وهو ابن تسعين سنة[79].

وقد استمر الساحل المغربي من المضيق بيد المتمردين، لهذا فقد كان وضعه قلقاً وخطراً، وهذا ما يشير إلى عدم قدرة ولاة الأندلس فيما بعد العبور منه إلى ولايتهم في الأندلس، فعند تعيين ابن الخطار الكلبي والياً على الأندلس، ركب البحر في السنة 125هـ / 307م من ناحية تونس وحل بالساحل الجنوبي الشرقي ومنه سار إلى قرطبة [80].

ثالثاً: المضيق على عصر الإمارة (138 – 316هـ / 755 – 928م):

تظهر أهمية المضيق في تأسيس عبد الرحمن بن معاوية الإمارة في الأندلس، إذ إن تفكيره وطموحه في ولاية الأندلس انبثق في نفسه عندما كان مقيماً عند قبيلة مغيلة بالقرب من ساحل طنجة، ذلك أنه بحكم موقعه على المضيق وقربه من الأندلس قد اطلع على الشيء الكثير من أخبارها، وما تعانيه من حالة الاضطراب، فضلاً عن ما كان قد سمعه من الأندلس بحكم أنه أحد أفراد الأسرة الأموية. كما أن سالما مولى أخته قد حدثه بشيء عن الأندلس وخبراتها الكثيرة لأنه كان قد دخلها مع موسى بن نصير[81]. وقد استغل عبد الرحمن بن معاوية هذه الاضطرابات وحاول أن يفيد منها في العبور إلى الأندلس، وإقامة عصر جديد في

الأندلس سمي بعصر الإمارة.

ويظهر دور المضيق في عصر الإمارة في عدد من الأحداث منها هيجة الربض[82] في عهد الأمير الحكم الأول (180 - 206هـ / 796 - 822 م)، فقد كانت إحدى نتائجها عبور قسم من الربضيين المنفيين خارج الأندلس، المضيق، واستقرارهم في المغرب في عهد الأمير إدريس الثاني الذي سمح لهم بالسكن في مدينة فاس ونقلوا معهم معالم حضارتهم وطبعوا المدينة بطابع أندلسي حتى سميت ضاحية من المدينة باسم ضاحية الأندلسيين[83]، وهذا دليل على أن وضع المضيق آنذاك كان هادئاً وأميناً وبمقدور أي كان أن يعبر منه بسلام.

ولكن في العام 245هـ / 859 / تعرض المضيق بساحليه الأندلسي والمغربي إلى هجوم النورمان[84]، وتمكنوا من دخول الجزيرة الخضراء وأحرقوا مسجدها ثم انصرفوا وعبروا المضيق إلى الساحل المغربي منه حيث دخلوا منطقة الريف المغربي وتمكنوا من اقتحام مدينة نكور واستباحوها مدة ثمانية أيام ووصلوا في هجومهم هذا إلى البحر المتوسط[85]، وقد كرروا هجومهم على المضيق في العام 248هـ / 861 م[86] ولكن لم يستطيعوا أن يحققوا شيئاً بل دحروا وولوا هاربين دون أن يتمكنوا من إلحاق أذى كبير بالمسلمين. وهذا يفسر لنا بأن الأسطول الأندلسي هذه المرة كان يقظاً في حراسة شواطئ المضيق فسلم المضيق من اعتداءات النورمان.

رابعاً: المضيق على عصر الخلافة (316-422هـ / 928-1030م):

يتضح دور المضيق اتضاحاً أساسياً في عصر الخلافة الأموية بسبب الأزمة السياسية والعسكرية التي قامت بين الفاطميين في المغرب والأمويين في الأندلس، فمنذ أن أسس الفاطميون دولتهم على أرض المغرب كانت المدن المغربية المطلة على المضيق هدفاً عسكرياً أولياً لهم بوصف ذلك مرحلة أولى للسيطرة على الأندلس فيما بعد، وعلى هذا الأساس تحركت حملاتهم على سبته وطنجة للاستيلاء عليهما من أجل التحكم بالمضيق عسكرياً، ومن ثم سهولة عبورهم إلى الأندلس كما فعل العرب الفاتحون من قبل [87]. وإزاء ذلك الخطر كان رد فعل الأمويين سريعاً تجاه نيات الفاطميين فعمدوا إلى العناية بالمضيق عن طريق اتخاذ سلسلة من الإجراءات العسكرية التي كفلت لهم إبعاد يد الفاطميين عن المضيق،

والتي تمثلت بما يأتي:

1 - الهيمنة العسكرية على المضيق:

حرص الأمويون منذ عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر (300 - 350هـ / 912 - 961م) على السيطرة على المضيق بجانبيه، وتدعيم النفوذ العسكري فيه وزيادته، ففي السنة (319هـ / 931م)، أرسل الخليفة عبد الرحمن الناصر حملة بحرية للسيطرة على سبته بقيادة (نجاح بن عفير) الذي تمكن من انتزاعها من يد حاكمها (الرضى بن عصام) [88]، وعين الخليفة الناصر القائد نجاحاً والياً عليها [89]، ثم عمل على تحصينها، ببناء سورها ووضع حامية عسكرية فيها من خيرة قواده وجنده [90]. وحرص على الاحتفاظ بها نظراً لموقعها السوقي، فمن خلالها تمكن من السيطرة على المضيق والتحكم فيه، وتمكن أيضا من السيطرة على المغرب والتأثير في سياسة أمرائه وحكامه للوقوف ضد الفاطميين، ومنع وصولهم إلى المضيق وسيطرتهم عليه، وقد صور لنا ذلك المقري بقوله: " كانت سبته مطمع ملوك العدوتين، وقد كان للناصر عناية واهتمام بدخولها في إيالته، حتى حصل له ذلك، ومنها ملك المغرب ... وبها اشتد سلطانه، وملك البحر بعدوتيه، وصار المجاز في يده، وتوطدت طاعته بأرض المغرب، وكان أول من سما إلى ذلك من أملاك الأندلس منذ سكنها الإسلام، فاستظهر بها على أمره وخلفها ميراثا لمن بعده من ولاة الأندلس .... [91].

وقد وصفها ابن عذاري بقوله: " هي نظام باب المغربين ومفتاح باب المشرقين، وهي على ما قيل مجمع البحرين، قاعدة البر والبحر، واللؤلؤة الحالة من الدنيا بين السحر والنحر " [92].

وفي أول ذي القعدة من السنة 348 هـ / 959 م، أمر الخليفة الناصر، القائد (بدر الفتى) صاحب السيف بعبور المضيق إلى سبته على رأس جماعة من وجوه الموالي، والعرفاء، ورجال الجند، لتجهيز العدد وآلات الحرب، وأخذ الاحتياطات اللازمة من احتمال وقوع هجوم عليها من قبل (جوهر) قائد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله (341 - 365هـ / 952 - 975م) الذي تمكن من الاستيلاء على المغرب وأنهى النفوذ الأموي فيه، وقد مكثوا في سبته تنفيذاً لأوامره إلى أن انصرف القائد جوهر إلى القيروان، وعادوا إلى الأندلس في آخر ذي الحجة من السنة (348 هـ /

959 م)[93].

وقد استمر هذا الاهتمام إلى ما بعد خلافة الناصر ففي السنة (351 هـ / 962م) وجه الخليفة الحكم المستنصر (350 - 366هـ / 961 - 976 م) عنايته واهتمامه بتحصين مدينة سبته، فقد أكمل بناء سورها، كما اهتم بكسب ود سكانها وولائهم بإصدار أمر يقضي برفع جميع الوظائف المخزنية والمغارم السلطانية عنهم[94]، وكذلك حرص المنصور بن أبي عامر القائم بأمر دولة الخليفة هشام المؤيد (366 - 399هـ / 976 - 1008م) على ضبط سبته برجال الدولة، ووجوه القواد وطبقات العساكر[95].

وبعد احتلال سبته كان من الطبيعي أن يقدم الخليفة الناصر على احتلال طنجة من أجل استكمال سيطرته على الساحل المغربي للمضيق. فعندها بايع الأمير أبو العيش أحمد بن قاسم بن كنون الإدريسي عبد الرحمن الناصر وقطع دعوة الفاطميين، اقترح عليه الناصر التنازل له عن طنجة ليضيفها إلى سبته، فرفض أبو العيش، فأرسل إليه الناصر أسطوله فحاصره وضيق عليه، ولما رأى أبو العيش أنه لا طاقة له بحربه، أجابه إلى مطلبه وتنازل له عن طنجة [96]، واختلف في سنة وقوع طنجة بيد عبد الرحمن الناصر، فابن أبي زرع يشير إلى نفس سنة احتلال سبته أي 319هـ / 931م[97]، في حين يذكر البزيوي سنة 323هـ / 934م [98].

وقد أصبحت هاتان المنطقتان قاعدتين للانطلاق في العمق المغربي لتسديد الضربات للفاطميين، وكل من يواليهم، ومنعهم من التقدم نحو المضيق وفي الوقت نفسه عدت هاتان القاعدتان بمثابة جدار الأمان للسواحل الأندلسية المقابلة لها.

2. تقوية صلات الأمويين مع القبائل القاطنة على الساحل المغربي للمضيق:

لقد دأب الخلفاء الأمويين منذ عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر على احتواء القبائل القاطنة في المغرب بعامة، وعلى الساحل المغربي للمضيق بخاصة، من أجل اتقاء خطرهم أولا، ولتحريضهم على الفاطميين وجعلهم سداً منيعاً يعيق تقدمهم نحو المضيق ثانياً، وذلك بكسب زعمائهم[99]، من خلال جزل العطاء لهم، ودعمهم بالمال والرجال، وقد نجحوا في ذلك وبخاصة مع عدد من فروع قبيلة

زنانة من مغراوة، ومكناسة، وبني يفرن، وقد دخلت هذه القبائل في حروب مستمرة مع الفاطميين وحلفائهم من قبائل صنهاجة [100].

وفي حالة تقهقر قبائل زناتة أمام حلفاء الفاطميين من قبائل صنهاجة، ووصول خطرهم إلى المضيق، كان الزناتيون يستغيثون الأمويين في الأندلس لنجدتهم، ودفع خطر الفاطميين عنهم، ففي سنة 369هـ / 979 م، دخل (بلقين بن زيرى الصنهاجي) المغرب، وفرت زناتة وأمراؤها من بني خزر المغراويين وبني محمد بن صالح اليفرنيين إلى سبته فحاصرهم، وعبر محمد بن الخير من آل خزر المضيق إلى المنصور بن أبي عامر يستنجده، وقد أدرك المنصور خطورة الموقف، إذ إن سقوط سبته بيد الفاطميين يعني سيطرتهم على المضيق وتحكمهم فيه وتعرض الأندلس لخطرهم، لذا فقد سارع بعساكره إلى الجزيرة الخضراء، واتخذها قاعدة عسكرية للإشراف منها على العمليات الحربية في المغرب لأنها تعد أقرب نقطة إلى سبته، ثم عقد (لجعفر بن علي بن حمدون) على حرب بلقين، فعبر بجيشه المضيق ونزل بساحة سبته، وجاء بلقين وصعد جبال تطوان، وأطل على عساكر زناتة، وأهل الأندلس بساحة سبته، ورأى أنه لا قبل له بحربهم، ففك حصاره عنهم، ثم عاد بجيشه إلى إفريقية [101].

وعلى الرغم من قوة العلاقة بين الأمويين في الأندلس وزعماء قبيلة زناتة في المغرب، إلا أنه في حالة جنوح زعماء هذه القبيلة عن طاعة الأمويين، ووقوع المضيق تحت خطرهم، كان الأمويون يسارعون للوقوف في وجههم، والحد من سلطانهم، وإعادة سيطرتهم على المضيق، ففي السنة 387هـ / 997 م، توترت العلاقة بين المنصور بن أبي عامر، وزيري بن عطية زعيم مغراوة الزناتية، وعزم زيري على خلع طاعة المنصور ومخالفته، وطرد عماله من المغرب الأقصى واجلاهم إلى سبته[102]، وقد تباينت المصادر التاريخية حول أسباب هذا التوتر[103]، ويبدو ان زيري كان قد عزم على الاستقلال ببلاده بعد أن شعر بقوته، وبالمكانة الكبيرة التي احتلها بين قومه، ويتضح ذلك في قوله عندما عبر المضيق عائداً من الأندلس إلى المغرب، فعند نزوله في طنجة وضع يده على رأسه وقال: " الآن علمت أنك لي " [104]، مما يدل على أن الأسباب التي ذكرت في خلافه مع المنصور ماهي إلا ذريعة اتخذها لتحقيق هدفه في الاستقلال.

وعلى أية حال ما إن وصل خبر تمرد زيري إلى المنصور حتى سارع باستقدام مولاه وغلامه واضح الفتى من مدينة سالم Medinacell فأرسله بجيش كبير مدعوماً بأموال كثيرة إلى المغرب، وعبر المضيق في السنة 387هـ/997م، واستقر في طنجة، وأغلب الظن أن سبب نزوله في طنجة يعود إلى نية زيري في جعلها ضمن سيطرته، فجاء نزول القائد واضح فيها من أجل السيطرة على الوضع فيها، وإحكام السيطرة على الساحل المغربي للمضيق بكامله، وتأمين خطوط مواصلاته مع الأندلس، ثم أرسل إليه المنصور قوات إضافية من زعماء البربر وقادتهم من قبيلة زناتة المستقرين في الأندلس، وطائفة من وجوه القادة الأندلسيين، وانضم إلى جيش واضح عدد من القبائل الموالية للأمويين في المغرب من غمارة وصنهاجة وغيرهما[105].

وعندما تكامل جيشه خرج بهم من طنجة لقتال زيري الذي خرج لملاقاته من مدينة فاس، والتقى الجمعان، ودارت بينهما حرب أسفرت عن هزيمة القائد واضح ومقتل معظم جنده، وفراره إلى طنجة، ومن هناك كتب إلى المنصور يطلب منه المعونة والمدد بالرجال والأموال [106].

وإزاء هذه التطورات الخطيرة أقدم المنصور على اتخاذ إجراءات سريعة فخرج بنفسه من قرطبة ونزل بالجزيرة الخضراء واتخذها قاعدة عسكرية لإمداد القائد واضح، إذ أرسل إليه ولده عبد الملك المظفر بجند الأندلس وقادتها، وبقي هو في الجزيرة الخضراء يراقب تطور الأحداث عن كثب، مرسلا لهم الإمدادات عند الحاجة وعبر عبد الملك من الجزيرة الخضراء ثم توجه إلى طنجة، وانضم إليه القائد واضح وجيشه، وساروا جميعاً لقتال زيري والتقى الجمعان (بوادي منى) في أحواز طنجة ودارت بينهما معركة نتج عنها جرح زيري وهزيمته إلى موضع يعرف بـ (مضيق الجنة) بالقرب من مدائن مكناسة، وفاجأه عبد الملك بإرسال خمسة آلاف فارس بقيادة واضح الفتى فهاجمهم ليلاً وذلك في منتصف رمضان من السنة 387هـ / 997م، وهرب زيري إلى فاس ثم إلى صحراء المغرب الأوسط إلى أن توفي هناك في السنة 391 هـ /1000م، وتولى من بعده ابنه (المعز الذي صالح المنصور وعاد إلى طاعته[107].

وساند الأمويين بني سعيد بن صالح أمراء نكور[108] الذين كان لهم دور

كبير في الساحل المغربي من المضيق إذ شكلوا سداً منيعاً بوجه الفاطميين، وقد لاقوا من وراء ذلك عناء كبيرا خفف من حدته دعم الأمويين المادي والسياسي لهم، ففي3 محرم من السنة 305 هـ / 917 م، تغلب الفاطميون على بني صالح ودخلوا عاصمتهم نكور وقتلوا أميرهم سعيد بن صالح وعددا كبيراً من أفراد بيته، انهزم من نجا منهم وهم ثلاثة أبناء لسعيد بن صالح (صالح وإدريس والمعتصم) وعبروا المضيق إلى الأندلس ونزلوا مدينتي (مالقه Malaga وبجانه Pechina) وخيرهم الخليفة الناصر بالبقاء في مالقه أو المقام في العاصمة قرطبة، ففضلوا البقاء في (مالقه) لقربها من المضيق ومن إمارتهم، وذلك من أجل أن يتسنى لهم مراقبة تطورات الأحداث واغتنام الفرصة، وعبور المضيق على وجه السرعة بدعم من الخليفة عبد الرحمن الناصر، وقد تحقق لهم ذلك وتمكنوا من استرجاعها وقتل عامل الفاطميين المدعو (ذلول) [109].

وقدّم الأدارسة ولاءهم إلى الأمويين، واعترفوا بخلافة عبد الرحمن الناصر بعد سيطرته على الساحل المغربي للمضيق، لأنهم رأوا أنه من الأصوب الانحياز له بعد ان اصبح سيد الموقف في المغرب الأقصى واصبح قريباً من بلادهم فبايعه أميرهم أبو العيش[110]، وكافأهم عبد الرحمن الناصر بتأييدهم وتزويدهم بالعساكر والأموال والمؤن، واستخدمهم لقتال الفاطميين وصدهم وقتال من يخالفهم من السكان المحليين[111]، ولكن موقف الأدارسة كان متأرجحاً بين تأييد الفاطميين تارة، وتأييد الأمويين تارة أخرى[112]، والوقوف ضد الخلافتين عندما تتوافر لهم أسباب القوة والمنعة [113].

وقد جابه الأمويون بصلابة الأدارسة وتآمرهم عليهم وبخاصة في حالة تهديد سلطتهم في المضيق، ففي سنة (362 هـ / 972 م)، نقض آخر أمراء الأدارسة (الحسن بن كنون) طاعة الأمويين، وقدم ولاءه للفاطميين وسيطر على مدن تطوان، وطنجة، وأصيلا، وكلها مواقع سوقية مهمة، ولا سيما طنجة التي حرص الأمويون على بقائها في يدهم فهي إحدى قواعدهم العسكرية المتقدمة في المنطقة. ولما وصل الخبر إلى الخليفة الحكم المستنصر شعر بخطورة الموقف، وثار غضبه، وحقد على الحسن، وسارع إلى استدعاء قائده (محمد بن القاسم بن طملس) من حرب الثغور، وأرسله بجيش كبير وعدة كاملة لمحاربة الحسن، وأمره إن كتب الله

له النصر أن يأخذ بالعفو والصفح وإصلاح البلاد والاهتمام بشؤون الرعية، وأن يستعين بمن دخل في طاعة الأمويين[114]، وقد تم عبور المضيق من قاعدتهم المفضلة الجزيرة الخضراء إلى سبته، وفي الوقت نفسه أوعز إلى قائد البحر (عبد الله بن رماحس) بالتوجه بأسطوله إلى سبته قاعدة الأمويين الوحيدة في ذلك الوقت على الساحل المغربي للمضيق، للتعاون مع ابن طملس بشن هجوم على طنجة لاستعادتها، وقد رفض أهل طنجة طاعة الأمويين بتحريض من الأمير الحسن الذي كان موجوداً آنذاك فيها، ولكن عندما خرج منها لملاقاة ابن طملس الذي توجه من سبته إلى تطوان، ودخل معه في حرب أسفرت عن هزيمته ومقتل عدد كبير من جنده، وتخليه عن طنجة وأهلها، خرج شيخهم المدعو ابن (الفاضل) إلى القائد (ابن رماحس) مع جماعة من وجوه طنجة، مقدمين الطاعة، وطالبين العفو والأمان لأهل طنجة فأجابهم ابن رماحس إلى ذلك ودخل طنجة واستولى على ما كان للحسن وأصحابه من أموال [115]. أما القائد ابن طملس فقد استمر بمطاردة الحسن بن كنون، ودخل معه معركتين، نجح في الأولى، وقتل في الثانية[116]، وهزمت القوات الأموية إلى سبته وتحصنوا فيها [117] وكتبوا إلى الخليفة الحكم يستغيثون به، فسارع لنجدتهم، واستدعى قائده ومولاه المشهور (غالب بن عبد الرحمن) من قاعدته في مدينة سالم، وأمده بما يعينه على قتال الأدارسة، وأمره بإنهاء مقاومتهم، وهذا دليل على خطورة موقف الأمويين، وتهديد سلطتهم في منطقة المضيق. ويفسر لنا ذلك، قول الخليفة الحكم المستنصر عند توديعه للقائد غالب: " سر يا غالب سير من لا اذن له في الرجوع إلا حيا منصورا، أو ميتا فمعذورا، وأبسط يدك في الإنفاق، فإن أردت نظمت للطريق بيننا قنطار مال " [118].

وعبر غالب المضيق من الجزيرة الخضراء ونزل عند قصر مصمودة، وأغلب الظن أن سبب نزوله في قصر مصمودة وليس في سبته لأنها كانت آنذاك محفوفة بالمخاطر ومحاصرة بقوات الأدارسة والتقى بابن كنون هناك، ثم أرسل الخليفة الحكم قوات أخرى بقيادة الوزير (يحيى بن محمد التجيبي) الذي استدعاه من قاعدته بسرقسطة [119]، وهذا دليل على مدى حرص الخليفة الحكم واهتمامه في السيطرة على مضيق جبل طارق. وقد وضح ذلك ابن حيان بقوله: " استظهارا على ضبط المجاز عليه واليه واستطالة بفضل قوته، واشتداد سلطانه " [120]، وانضم

يحيى بقواته إلى القائد غالب، في حين استمر الخليفة الحكم في إرسال مدده لغالب[121]، وشددت جميع القوات حصارها على ابن كنون الذي هرب إلى قلعة النسر[122]، حتى اضطر إلى الاستسلام وعفي عنه[123]، وهجر مع أهله وبقية أمراء الأدارسة إلى الأندلس[124].

وظهرت خطورة خيانة الأدارسة من جديد واتفاقهم مع الفاطميين بعد نفيهم خارج الأندلس[125] واتجاههم إلى مصر، واستقرارهم بجوار الخليفة الفاطمي العزيز بالله نزار بن المعز العبيدي (365 - 386هـ / 975 - 996 م) [126] الذي وجد فيهم فرصته في القضاء على سلطة الأمويين في المغرب، وفتح الطريق أمامهم في الوصول إلى المضيق وتهديدهم للأندلس، ففي السنة 373 هـ /983 م عقد الخليفة الفاطمي لابن كنون على ولاية المغرب وأمده بالمال والجيش، والتف حوله كثير من القبائل، وظهر أمره في المغرب وأخذ بتهديد سلطة الأمويين هناك، وجاء رد فعل الأمويين عنيفاً، فقد قام الحاجب المنصور بإرسال جيش بقيادة ابن أخيه (أبي الحكم عمر بن عبد الله بن أبي عامر) الملقب بعسكلاجه لحرب ابن كنون والقضاء عليه، وخرج المنصور بنفسه إلى قاعدة الجزيرة الخضراء لمراقبة سير الأحداث، ثم قام بإرسال قوات أخرى بقيادة ابنه عبد الملك المظفر، واشتد الحصار على ابن كنون، واضطر إلى الاستسلام وطلب الأمان، ووافق القائد عسكلاجة على مطلبه، وكتب بخبره إلى المنصور، فأمره بالإسراع في إرساله إلى قرطبة، إذ كان في نيته تصفيته والقضاء عليه لخطورته وكثرة نكثه للعهد، وسعيه للفساد، فأرسل من قتله وهو في طريقه إلى قرطبة في جمادى الأولى من السنة 375هـ / 985 م [127].

3 - العناية بدور الصناعة الحربية وتقوية الأسطول:

لقد أدرك الحكام الأمويون، على إثر غارات النورمان منذ عهد الأمير عبد الرحمن الثاني، وتزايد الخطر الفاطمي في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر، ضرورة امتلاك قوة بحرية قوية قادرة على الدفاع وشن الهجوم، وإحكام سيطرتها على مياهها الإقليمية، ولا سيما منطقة مضيق جبل طارق [128]، فاتخذ الخليفة عبد الرحمن الناصر مراكز وموانئ في هذه المنطقة وشحنها بالسفن والمقاتلين. وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك بقوله: " سار سنة [302هـ] في العساكر ... وانتهى

إلى الجزيرة الخضراء، وضبط البحر، ونظر في أساطيله واستكثر منها "[129].

وأولى اهتماماً كبيرا بالجزيرة الخضراء، فبنى داراً هائلة لصناعة السفن الحربية، واحكم بناءها، وأحاطها بالأسوار العالية والحصون المنيعة [130] كما أشرف بنفسه على بناء حصن كامل في مدينة طريف في السنة 349هـ /960 م، وما يزال الحصن الذي بناه هناك باقية آثاره إلى الوقت الحاضر [131].

وأصدر أوامره إلى الأسطول بفرض حراسة مشددة على مضيق جبل طارق لمنع وصول إمدادات الفاطميين إلى المتمرد عمر بن حفصون الذي ثار في جنوب الأندلس أواخر القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، واعترف بزعامة الخليفة عبد الله المهدي الفاطمي (297 - 322هـ / 909 - 933 م) وقد أشار إلى ذلك ابن عذاري بقوله: " [وفي السنة 301 هـ] ألفيت للمشرك عمر بن حفصون مراكب في البحر كانت تميره من العدوة، فأحرق جميعها " [132]، كما أنه استطاع بهذا الأسطول أن يسيطر على الساحل المغربي للمضيق كما أشرنا في الصفحات السابقة.

واولى الحاجب المنصور القائم بأمر الخليفة هشام اهتماماً كبيراً بالجزيرة الخضراء ودار صناعتها، واتخذها قاعدة عسكرية للإشراف منها بنفسه على العمليات العسكرية في المغرب، كما أشرنا سابقاً، وأمر أن تبنى له القصور والمنازل في طريقه إلى الجزيرة الخضراء على غرار ما فعل في الطرق المؤدية إلى الثغور الأندلسية شمالاً [133].

وبسقوط حجابة العامريين في السنة 399هـ / 1008 م وضعف الخلافة برزت أهمية المضيق في الأحداث السياسية ولاسيما في خلافة سليمان بن الحكم المستعين الثانية في السنة 403هـ /1012م، عندما عهد لبني حمود [134]. بحماية المضيق، فعين القاسم بن حمود بن علي على الجزيرة الخضراء، وولى أخاه علي بن حمود مدينتي سبته وطنجة [135]. وقد ارتكب بهذا الفعل خطأً كبيراً، أذهب دولته، وحياته، إذ من يحكم سيطرته على سبته وطنجة، ويمتلك الجزيرة الخضراء، باب الأندلس يطمح بالاستيلاء على الأندلس نفسها، وهذا ما لاحظناه منذ أيام الفتح الأول للمسلمين، وقد تنبه إلى ذلك بعض رجاله ونصحوه في العدول عن هذا القرار، لكنه لم يأخذ بنصيحتهم [136].

وقد استغل علي بن حمود موقع المضيق الجغرافي، وساعدته في ذلك

ظروف الدولة غير المستقرة، ومركزه القوى بين سكان ولايته الذي حصل عليه بحكم استقرار قومه بينهم، وتاريخ دولتهم الطويل في المغرب إذ أكسبهم صفة روحية بين المغاربة، ولا بد من أنه استخدمهم في مساندته وتنفيذ مخططه بالسيطرة على الخلافة الأندلسية، فاستبد بسبته في السنة 404هـ / 1013م، وعبر بقواته من سبته إلى الجزيرة الخضراء وزحف إلى مالقه وتملكها، ثم توجه إلى قرطبة حيث التقى بقوات المستعين، ودارت بين الطرفين معركة عنيفة اندحرت فيها قوات المستعين، ودخل ابن حمود قرطبة في 22 من المحرم لسنة 407هـ / 1016 م، وقام بإعدام المستعين وأخيه ووالده وبمقتل المستعين تبدأ حقبة حكم الحموديين للأندلس [137]، ولكن حكمهم لم يستمر طويلاً، فتارة ينتقل إلى الأمويين وتارة يعود إليهم [138] إلى أن انتهى الأمر بسقوط الخلافة في السنة 422هـ / 1030 م بعزل هشام الثالث المعتد بالله آخر الخلفاء الأمويين في الأندلس.

هوامش البحث:

---

(1) أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري، الجغرافية، تحقيق: محمد حاج صادق (دمشق، منشورات المعهد الفرنسي، 1970)، ص 3؛ أبو عبيد الله محمد الإدريسي، القارة الأفريقية وجزيرة الأندلس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق: إسماعيل العربي (الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1983)، ص 246.

(2) المصدر نفسه، ص 247

(3) محمد بن رحيم أبو حامد الغرناطي، المغرب في بعض عجائب المغرب، تحقيق: أنكريدم، بيكارتو (برشلونة، 1987)، ص 15.

(4) أمين توفيق الطيبي، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس (ليبيا، تونس، الدار العربية للكتاب، 1984)، ص 279.

(5) الإدريسي، المصدر السابق، ص 246؛ عبد الواحد بن علي المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار العرب، تحقيق: محمد سعيد العريان، ومحمد العربي العلمي (ط 7، الدار البيضاء، دار الكتاب الكتاب، 1978) ص 449؛ شهاب الدين أحمد أحمد بن محمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد (بيروت، دار الكتاب العربي، بدون تاريخ): 1 /132 - 133؛ أحمد خالد الناصري السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري (الدار البيضاء، 1954): 1 / 67، 68.

(6) تعرف المضايق عموماً هي ممرات ضيقة تصل بين بحرين وتتكون من اقتراب الساحلين لمسافة تقدر في العرف الدولي بنحو ضعف اتساع البحر الإقليمي. ينظر: أحمد عبد الله عطية الله (القاهرة، دار النهضة العربية، بدون تاريخ)، ص 1182.

(7) الميل البحري يساوي 1853 متر.

ينظر: Oxford Dictionary of Gurrent English, A. S. Horaby.

(8) عبد العزيز محمد الحبيب، يوسف يحيى طعماس، جغرافية النقل والتجارة الدولية (الموصل، دار الكتب للطباعة والنشر، 1989)، ص 142.

والقامة البحرية تساوي 1. 828 متر. ينظر: Horaby, Op. Cit. P. 1022.

(9) الإدريسي، المصدر السابق، ص 247؛ المراكشي، المصدر السابق ص 514، 515؛ أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي، الجغرافيا، تحقيق: إسماعيل العربي (بيروت، المكتب التجاري للطباعة والنشر، 1970)، ص 139.

(10) الإدريسي، المصدر السابق، ص 250.

(11) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، تحقيق: إبراهيم الأبياري (ط 1، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1981)، ص 15؛ المقري، نفح الطيب: 1 / 234.

(12) أخبار مجموعة، ص 15، وينظر: إبراهيم بيضون، الدولة العربية في اسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة (بيروت، دار النهضة العربية، 1980)، 68.

(13) عز الدين أبو الحسن علي بن أبي كرم بن الأثير، الكامل في التاريخ، (بيروت، دار صادر): 4 / 561؛ النويري، نهاية الأرب، تحقيق: مصطفى أبو حنيف أحمد (الدار البيضاء: دار النشر المغربية، بدون تاريخ): 22 / ق 2 / 203؛ عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر (بيروت، منشورات الأعلمي للمطبوعات، 1971): 6 / 211.

=

=

(14) أحمد بن محمد بن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب تحقيق: ج. س. كولان، وليفي بروفنسال (ط 2، بيروت، دار الثقافة، 1980): 42/1؛ ابن خلدون، العبر: 4 /117، 6 / 211؛ السلاوي، المصدر السابق: 1 / 96.

(15) لقد اختلفت الروايات في طبيعة هذا الاتصال، فقد ذكرت الأولى منها أنه جرى بالمراسلة بين موسى ويوليان. ينظر: ابن عذاري، البيان المغرب (برواية غريب بن سعد): 2 / 5؛ وأشارت الثانية إلى أنه قد تم بالمقابلة الشخصية، ينظر: أبو مروان عبد الملك ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس قطعة من كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تحقيق: أحمد مختار العبادي (مدريد، معهد الدراسات الإسلامية، 1971)، ص 44؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 2 / 5؛ النويري، المصدر السابق: 22 / ق 2 / 203؛ المقري، المصدر السابق: 1 / 236، 237؛ وأكدت الثالثة أن الاتصال جرى بين يوليان وطارق بن زياد في طنجة. ينظر: ابن الشباط، المصدر السابق، ص134. وعلى الرغم من الاختلاف في هذه الروايات فهي ليست متناقضة، ويبدو ان يوليان قد فاوض موسى بن نصير، وعندما عاد إلى القيروان استكمل مفاوضاته مع طارق بن زياد في طنجة بتخويل من القائد الأعلى موسى بن نصير. ينظر: محمود شيت خطاب طارق بن زياد، مجلة المجمع العلمي العراقي، الجزء الثاني، المجلد 39، بغداد، 1988، ص 18.

(16) عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، نشر: شارلس توري (نيوهيفن: 1922)، ص205؛ أبو بكر محمد بن عمر بن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، نشر: خوليان رايبير (مدريد: 1926)، ص8؛ ابن الكردبوس، المصدر السابق، ص44؛ ابن الأثير، المصدر السابق: 4 / 256؛ المراكشي، المصدر السابق، ص20، 21؛ ابن عذاري، البيان المغرب: 2 / 7؛ النويري، المصدر السابق: 22 / ق 2 / 203؛ السلاوي، المصدر السابق: 1 / 97، 98.

(17) عمر فروخ، العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر المتوسط (ط 1، بيروت، منشورات المكتب التجاري، 1959)، ص 80.

(18) عبد الواحد ذنون طه، الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال أفريقيا والأندلس (ميلانو، بغداد، دار الرشيد للنشر، 1982)، ص161؛ موسى لقبال، المغرب الإسلامي، (ط 1، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981)، ص 90، 93؛ وينظر:
Apolitical History of Muslim Spain, S. M. Imamuddin, P. 26.

(19) أخبار مجموعة، ص 16؛ ابن الكردبوس، المصدر السابق، ص45؛ النويري، المصدر السابق: 22 / ق 2 / 203.

(20) أخبار مجموعة، ص16. وقد ورد مضمون النص نفسه مع شيء من الاختلاف في المفردات عند ابن الأثير، المصدر السابق: 4 / 561؛ المقري، نفح الطيب: 1 / 237.

(21) أخبار مجموعة، ص 16.

(22) المصدر نفسه، ص 16، 17؛ مؤلف مجهول، فتح الأندلس، نشر: فواكين دي كونثاليت (الجزائر: 1889)، ص 5؛ ابن الكدردبوس، المصدر السابق، ص 45 (ويذكر عدد افراد الحملة ثلاثة آلاف راجل)؛ ابن الأثير، المصدر السابق: 4 /561؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 5/2؛ النويري، المصدر السابق: 22/ ق 2 /203؛ المقري، نفح الطيب: 1 / 237؛ كريخال مارمول، أفريقيا، ترجمة: محمد حاجي وآخرون (الرباط، مكتبة المعارف، 1984): 169/1. (ويذكر بأن يوليان كان بمعية السرية واستعان بأقاربه وأصدقائه الموجودين على الساحل الأيبري للمضيق وطلب منهم أن يقدموا العون والمساعدة عند مجيئهم في العام التالي بجيش أكبر).

(23) ابن الكردبوس، المصدر السابق، ص46؛ المقري، المصدر السابق: 1 / 238.

=

=

(24) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة، دار المعارف، 1970): 6 / 468؛ الرقيق القيرواني، المصدر السابق، ص 74؛ فتح الأندلس، ص 9؛ محمد بن علي التوزي ابن الشباط، وصف الأندلس وصقلية من كتاب صلة المط وسمة المرط، تحقيق: أحمد مختار العبادي (مدريد، معهد الدراسات الإسلامية، 1971)، ص134؛ ابن الكردبوس، المصدر السابق، ص46؛ ابن الأثير، المصدر السابق: 4 /556؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 6/2؛ المقري، المصدر السابق: 238/1؛ السلاوي، المصدر السابق: 98/1.

(25) أخبار مجموعة، ص 17؛ ابن الكردبوس، المصدر السابق، ص 46؛ المقري، المصدر السابق: 1 / 216؛ وينظر: أرشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة: أحمد محمد عيسى، مراجعة وتقديم: محمد شفيق غربال (القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، بدون تاريخ)، ص 102.

(26) أخبار مجموعة، ص17؛ ابن الأثير، المصدر السابق: 4 / 561، 562؛ المقري، المصدر السابق: 1 / 216.

(27) ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص205؛ فتح الأندلس، ص5؛ ابن الكردبوس، المصدر السابق، ص 46؛ السلاوي، المصدر السابق: 1 / 98؛ أبو عبد الله السليماني، اللسان المعرب عن تهافت الأجنبي حول المغرب (ط 1، الرباط، مطبعة الأمنية، 1971)، ص 38.

(28) الرقيق القيرواني، المصدر السابق، ص 74؛ وقد ورد مضمون النص نفسه مع شيء من الاختلاف في المفردات عند ابن عذاري، المصدر السابق: 2 / 6؛ المقري، المصدر السابق: 1 / 238.

(29) ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص 206؛ أخبار مجموعة، ص17؛ ابن الشباط، المصدر السابق، ص 134؛ ابن الأثير، المصدر السابق: 4 / 561، 562؛ النويري، المصدر السابق: 22 / ق 2 / 304 ؛ ابن خلدون، العبر: 4 / 117؛ السلاوي، المصدر السابق: 1 / 98؛ السليماني، المصدر السابق، ص 38.

(30) لقد أدرك الفينيقيون أهمية هذا الموقع من الناحية السوقية والاقتصادية لذلك أقاموا عاصمة ثانية لهم في مدينة قادس وراء أعمدة هرقل وأحكموا سيطرتهم على الممر الضيق في جبل طارق لمنع الاغريق من مشاركتهم في التجارة المربحة، وعندما جاء الرومان، عقد القرطاجيون اتفاقية مع روما تقضي بمنعهم من المرور عبر مضيق جبل طارق لكي لا يعرفوا شيئاً عن تجارتهم المربحة مع البريطانيين، تجارة التنك والرصاص، كما أنهم عمدوا إلى رمي الأجانب الذين يتقربون من المضيق في البحر ولم يترددوا في إغراق أية سفينة تحاول عبور المضيق، فقد عمد أحد الربانة القرطاجنيين إلى الانتحار بإغراق سفينة رومانية كانت قد تجاوزت مضيق جبل طارق عن طريق التصادم معها وإغراق السفينتين، ومن هنا فقد حرصت جميع الاقوام التي حكمت شبه الجزيرة على بسط نفوذها على مضيق جبل طارق واتخذت من جبل طارق قاعدة عسكرية لتحقيق هذا الغرض. ينظر:
E. W. Bovill. The Golden Trade of the Moors, 2 nd, edition, London: Oxford University Press, 1968, P. 19 – 24.

(31) أخبار مجموعة، ص 16، 17؛ فتح الأندلس، ص 5؛ ابن الكردبوس، المصدر السابق، ص45؛ ابن الأثير، المصدر السابق: 4 / 561؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 2 / 5؛ النويري، المصدر السابق: 22 / ق 2، 203؛ المقري، المصدر السابق: 1 / 237؛ مارمول المصدر السابق: 1 / 169.

(32) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المنسوب)، الإمامة والسياسة، الجزء الخاص بالأندلس، منشور مع كتاب ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص 121، 122؛ الفتح والاستقرار، ص 165.

=

=

(33) أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس (الاسكندرية، مؤسسة الثقافة الجامعية، بدون تاريخ)، ص 60، 61.

(34) تاريخ الأندلس، ص 46؛ وينظر أيضاً: ابن عذاري، البيان المغرب: 2 / 9 (حيث ورد بعض عبارات هذا النص).

(35) الإمامة والسياسة، ص 121، 122؛ المقري، نفح الطيب: 1 / 225.

(36) ابن عذاري، البيان المغرب: 2 / 9؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 4 / 117.

(37) H. T Norris, pp 62-63 H. T. Norris "The Early Islamic Settleman in Gibralter, "Journal of the Royal Anthropological institute of G B,1961,91,PP. 62 63 ؛ الطيبي، المرجع السابق، ص 296.

(38) الكامل في التاريخ: 4 / 562.

(39) محمد فتحي أمين، قاموس المصطلحات العسكرية (بدون مكان: بدون تاريخ)، ص 86.

(40) محمود شيت خطاب، طارق بن زياد، مجلة المجمع العلمي العراقي، الجزء الثاني، مجلد 39 (بغداد: 1988)، ص 29 - 30.

(41) مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس، تحقيق وترجمة: لويس موليثا (مدريد، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، معهد ميغيل آسين، 1983)، ص 175 - 176، ابن عذاري، المصدر السابق: 2 / 9، 256، 257.

(42) المصدر نفسه: 2 / 257.

(43) المقري، نفح الطيب: 1 / 217، 218.

(44) العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص68، 69؛ عبد الواحد ذنون طه، دراسات في التاريخ الأندلسي (ط 1، الموصل، دار الكتب للطباعة والنشر، 1987)، ص 23.

(45) ابن عذاري، البيان المغرب: 2 / 8.

(46) أخبار مجموعة، ص17؛ ابن الكردبوس، المصدر السابق، ص 47، ابن الأثير، المصدر السابق: 4 / 562؛ ابن خلدون المصدر السابق: 4 / 117؛ المقري، المصدر السابق: 1 / 241.

(47) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص17؛ وينظر: ابن الأثير، المصدر السابق: 4 / 562؛ المقري، المصدر السابق: 1 / 257 (حيث ورد عندهما نفس النص مع بعض الاختلاف في المفردات).

(48) ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص206، أخبار مجموعة، ص18، ابن الشباط، المصدر السابق، ص 134؛ ابن الأثير، المصدر السابق: 4 / 562؛ أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي بن الأبار، الحله السيراء، تحقيق: حسين مؤنس (ط 1، القاهرة، الشركة العربية للطباعة والبنشر، 1963): 2 / 333؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 2 / 8؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 4 / 117؛ المقري، المصدر السابق: 1 / 242.

(49) العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص72؛ عبد الواحد ذنون طه، دراسات أندلسية (ط 1، الموصل، دار الكتب للطباعة والنشر، 1986)، ص 25.

(50) ابن الأبار، المصدر السابق: 2 / 333؛ ابن عذاري، المصدر السابق، 2 / 8؛ المقري، المصدر السابق: 1 / 243.

(51) أخبار المجموعة، ص 18، 19؛ ابن الشباط، المصدر السابق، ص 134، 135؛ بلاد الأندلس، ص 99؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 2 / 8؛ المقري، المصدر السابق: 1 / 242، 243.

(52) ابن الكردبوس، المصدر السابق، ص 48.

(53) نفح الطيب: 1 / 243.

=

(54) ابن القوطية، المصدر السابق، ص 9؛ فتح الأندلس، ص13؛ مؤلف مجهول، الرسالة الشريفية ملحق بكتاب ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص 198؛ المقري، المصدر السابق: 1 / 252؛ السلاوي، المصدر السابق: 1 / 99.

(55) ابن القوطية، المصدر السابق، ص 9؛ أخبار مجموعة، ص 24؛ فتح الأندلسي، ص 10؛ الرسالة الشريفية، ص 193؛ ابن الشباط، المصدر السابق، ص 145؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 2 / 12؛ المقري، المصدر السابق: 1 / 252.

(56) فتح الأندلس، ص 13؛ الرسالة الشريفية، ص 198.

(57) فتح الأندلس، ص 17؛ الرسالة الشريفية، ص 210.

(58) ابن القوطية، المصدر السابق، ص 10؛ أخبار مجموعة، ص 27؛ الرسالة الشريفية، ص210؛ المقري، المصدر السابق: 1 / 258.

(59) تتلخص أسباب هذا التمرد كما يشير إليه قسم من المصادر التاريخية سوء معاملة عدد من ولاة المغرب للسكان المحليين، وانتشار المذهب الخارجي بينهم واعتناق مبادئه. ينظر: أخبار مجموعة، ص 34؛ ابن عذاري، البيان المغرب: 1 / 51، 52؛ السلاوي، المصدر السابق: 1 / 106، 107؛ ويقارن: عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب (الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، بدون تاريخ)، ص 131، 132.

(60) هو ميسره المدغري أو المطغري نسبه إلى قبيلة مطغرة، وقد عرف بالفقير وبالحقير، اشتغل ببيع الماء في سوق القيروان تمويهاً منه، وقيل إنه كان شيخاً لقبيلة مطغرة، اعتنق مبدأ الخوارج، فنصب نفسه اماماً وتسمى بالخلافة: ينظر: ابن القوطية، المصدر السابق، ص14؛ ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص 218؛ خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: سهيل زكار (: 2 /525؛ المغرب، البكري، ص135؛ البيان المغرب، ابن عذاري: 1 /52؛ نهاية الأرب، النويري: 22 / ق2 / 214؛ الاستقصا، السلاوي: 1 / 180.

(61) ابن خلدون، المصدر السابق: 6 / 210.

(62) ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص 217، 218؛ ابن الأثير، المصدر السابق: 5 / 191؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 1 / 53؛ السلاوي، المصدر السابق: 1 / 105 - 109.

(63) يقارن، طه، الفتح والاستقرار، ص 359.

(64) ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص 218؛ خليفة بن خياط، المصدر السابق: 2 / 526؛ ابن الأثير، المصدر السابق: 5 / 192؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 1 / 54؛ السلاوي، المصدر السابق: 1 / 109.

(65) The chronicle of 754 / sidoro pacense, pp. 157. 158.

ملحق رقم 7 لكتاب أخبار مجموعة، ص146-162. نقلاً عن: طه، الفتح والاستقرار، ص359.

(66) ابن القوطية، المصدر السابق، ص 14؛ النويري، المصدر السابق: 22 / ق 2 / 215.

(67) ابن القوطية، المصدر السابق، ص14؛ أخبار مجموعة، ص 37 - 42؛ فتح الأندلس، ص 30، 31؛ ابن الأثير، المصدر السابق: 5 / 193، 250، 251؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 1 /56، 2 / 30، 31.

(68) أخبار مجموعة، ص 42؛ فتح الأندلس، 31؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 2 /30؛ وينظر: . Lmamuddin,o p. Cit, p. 42.

(69) أخبار مجموعة، ص 43.

(70) فتح الأندلس، ص 31.

(71) Imamuddin, op, Cit, p. 42

=

=

(72) أخبار مجموعة، ص 43؛ فتح الأندلس، ص 31؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 2 / 31.
(73) فتح الأندلس، ص 31؛ ابن الأثير، المصدر السابق: 5 /252؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 2 / 31، وينظر: lmamuddin, op. Cit, p. 43
(74) فتح الأندلس، ص 31؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 3 / 31؛ وينظر: lmamuddin, op. Cit, p. 43.
(75) فتح الأندلس، ص 31؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 2 / 31. وينظر: lmamuddin, op. Cit, p. 43.
(76) أخبار مجموعة، ص 44؛ فتح الأندلس، ص 32؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 2 / 31.
(77) فتح الأندلس، ص32؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 31/2.
(78) أخبار مجموعة، ص 44؛ فتح الأندلس، ص 32؛ ابن الأثير، المصدر السابق: 5 / 251؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 2 / 31.
(79) أخبار مجموعة، ص44، 45؛ فتح الأندلس، ص33 (ويذكر أنه ابن سبعين سنة)؛ البيان المغرب، ابن عذاري: 31/2، 32.
(80) المصدر نفسه: 32/2.
(81) أخبار مجموعة، ص57؛ ابن عذاري، المصدر نفسه: 2 /41 – 43.
(82) عن تفاصيل هذه الحركة، ينظر: العبادي، تاريخ المغرب والأندلس، ص 129 – 134، خليل إبراهيم السامرائي وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس (الموصل، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر، 1986)، ص 115 – 117.
(83) ابن القوطية، المصدر السابق، ص 51؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 2 / 77.
(84) تعود أصول النورمان أو (الفيكنج) Vikings أي سكان البلاد الأسكندنا فيه، أي (السويد، والنرويج، والدنمارك) الحالية، وقد وردت تسمية هذه الأقوام في مصادرنا العربية باسم اردمانيون والمجوس، وكلمة أردمانيون تعني سكان الشمال، وهي تحريف لكلمة Norsemen الانكليزي Normandess الإسبانية، أما تسميتهم بالمجوس أي عبدة النار فلأنهم كانوا يشعلون النار في كل مكان يهاجمونه، وفي سفنهم، فظن العرب أنهم يعبدون النار. ينظر، العبادي، تاريخ المغرب والأندلس، ص148؛ غزوات النورمانيين على الأندلس في عصر الإمارة الأموية، مجلة المؤرخ العربي، العدد 40، بغداد، 1989، ص 145.
(85) ابن القوطية، المصدر السابق، ص 65؛ أبو مروان حيان بن خلف بن حيان، المقتبس في أدباء أهل الأندلس، تحقيق: محمود علي مكي (بيروت، دار الكتاب العربي، 1973)، ص 307 - 309؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 2 / 96.
(86) ابن حيان، المقتبس، تحقيق: مكي سامي العاني، ص 311 - 313؛ وينظر: السامرائي، المرجع السابق، ص 129.
(87) لقبال، حركة الصراع بين الأمويين والفاطميين في القرن 4 هـ / 10 م من خلال مجالس النعمان ومقتبس ابن حيان، مجلة المؤرخ العربي، العدد 21، بغداد، 1982، ص 42.
(88) الرضى بن عصام: يعود في أصله إلى (ماجكس) من وجوه قبيلة غمارة الذي كان قد أسلم، واعاد بناء مدينة سبته بعد أن خربها المتمردين، على إثر حركة ميسرة المطغري، وقام بالأمر من بعده ابنه (عصام) إلى أن مات، فتولى من بعده ابنه (مجير) إلى أن مات، ووليها اخوه الرضى، ويقال ابنه، وكان بنو عصام يقدمون ولاءهم وطاعتهم لبني ادريس في فاس. ينظر: ابن عذاري، المصدر السابق: 1 / 203؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 6 / 211؛ أحمد علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا (القاهرة، مطبعة السعادة، 1963): 5 / 159.

=

=

(89) البكري، المصدر السابق، ص 104؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 1 / 200؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 6 / 211؛ المقري، المصدر السابق: 1 / 340 (ويؤرخ سقوطها سنة 327 هـ / 938 م).

(90) البكري، المصدر السابق، ص 103، 105؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 201/1؛ ويقارن: وفاء عبد الله بن سليمان المزروع، الخليفة الأموي الحكم المستنصر (جدة، الدار السعودية للنشر والتوزيع، بدون تاريخ)، ص 82.

(91) شهاب الدين أحمد بن محمد المقري، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين (الرباط، اللجنة المركزية لنشر التراث، 1978): 2 / 257، 258.

(92) البيان المغرب: 2 / 200، 201.

(93) المصدر نفسه: 2 / 223.

(94) المصدر نفسه: 1 / 227.

(95) ابن خلدون، المصدر السابق: 7 / 37.

(96) السلاوي، المصدر السابق: 196/1، 197؛ يقارن: المزروع، المرجع السابق، ص 82، 83.

(97) أبو الحسن علي بن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس (الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972)، ص 100.

(98) عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله البزيوي، دول الإسلام بالمغرب الأقصى، مخطوطة المجمع العلمي العراقي، رقم 1313، مصورة عن مخطوطة المكتبة الملكية، الخزانة العامة، الرباط، ورقة 24.

(99) من زعمائهم المشهورين على سبيل المثال، والذين خاضوا سلسلة من الحروب استمرت سنوات ضد الدولة الفاطمية وحلفائها (الخير بن محمد بن خزر الزناتي وموسى بن أبي العافية). ينظر: ابن عذاري، المصدر السابق: 2 / 209، 217؛ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 85، 86؛ أحمد ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس (الرباط، دار المنصور للطباعة، 1973): 1 / 340.

(100) ابن عذاري، المصدر السابق: 1 / 252، 253، 2 / 217، 218، 220، 242، 243؛ مفاخر البربر، ص 6، 21؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 4 / 146، 7 / 37.

(101) مفاخر البربر، ص 17؛ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص101؛ السلاوي، المصدر السابق: 1 / 208.

(102) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 105.

(103) يشير عدد منها إلى اسباب سياسية منها غضب زيري وامتعاضه من المنصور بسبب غلبته على الخليفة هشام المؤيد وسلبه ملكه، فضلاً عن استقباحه لقب الوزير الذي منحه إياه المنصور، فقد وجد فيه تقليلاً من مكانته السياسية كأمير ينتمي إلى قبيلة كبيرة، في حين تشير مصادر أخرى إلى أسباب اقتصادية وهي استقلال زيري العطاء الذي كان يرسله له المنصور كل سنة. ينظر: ابن عذاري، المصدر السابق: 1 / 253، 2 / 281؛ مفاخر البربر، ص 22؛ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 104؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 4 / 148؛ السلاوي، المصدر السابق: 1 / 211، 213.

(104) مفاخر البربر، ص 22؛ السلاوي، المصدر السابق: 1 / 211.

(105) مفاخر البربر، ص 28؛ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 105، 106؛ السلاوي، المصدر السابق: 1 / 214.

(106) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 105، 106؛ السلاوي، المصدر السابق: 1 / 214.

=

=

(107) ابن عذاري، المصدر السابق: 1 / 253، 2 / 282؛ مفاخر البربر، ص 31، 32؛ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 106، 107؛ ابن القاضي، المصدر السابق: 1 / 198، 199؛ السلاوي، المصدر السابق: 1 / 215، 216.

(108) قامت هذه الإمارة على الساحل المغربي للمضيق من منطقة الريف المغربي، وتعود أصول الأسرة المؤسسة لهذه الإمارة إلى قائد يمني من حمير من أوائل الذين أسهموا في الفتح العربي لبلاد المغرب اسمه صالح بن منصور الحميري ويعرف بـ (العبد الصالح) كان قد افتتح ارض نكور، ثم استقر بها بعد أن أقطعها له الخليفة الوليد بن عبد الملك، واسلم على يديه عدد كبير من سكان المنطقة، ونصبوه حاكماً عليهم، ثم خلفه ابناءه من بعده في حكم هذه المنطقة، وكان لهذه الإمارة دور حضاري مشهود. لمزيد من التفاصيل عن هذه الإمارة، ينظر: نهلة شهاب أحمد، إمارة نكور (بنو صالح الحميري في المغرب العربي نهاية القرن الأول - بداية القرن الخامس للهجرة)، مجلة التربية والعلم، العدد الحادي عشر، الموصل، نيسان 1991، ص 211 - 228.

(109) البكري، المصدر السابق، ص 96، 97؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 1 / 79 - 80؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 6 / 213.

(110) أبو العيش: هو الأمير أحمد بن القاسم كنون بن محمد بن القاسم بن إدريس ...بن الحسن بن علي، كان فقيهاً ورعاً، عالماً بسير الناس، وأنساب القبائل، شهيراً بحلمه وشجاعته وكرمه، وكان يعرف بأحمد الفاضل. ينظر: ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 87، 88.

(111) المصدر نفسه، ص 88؛ السلاوي، المصدر السابق: 1 / 196.

(112) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 91؛ محمد بن القاسم القيرواني، المؤنس في أخبار أفريقية وتونس، تحقيق: محمد شمام (تونس، المكتبة العتيقة، 1378 هـ)، ص 103.

(113) ابن عذاري، المصدر السابق: 2 / 211، 212، 216؛ ينظر: عبد الوهاب بن منصور، اعلام المغرب العربي (الرباط، المطبعة الملكية، 1978): 2 / 105 - 106.

(114) أبو مروان حيان بن خلف بن حيان، المقتبس في أخبار الأندلس، تحقيق: عبد الرحمن علي الحجي (بيروت: 1965)، ص 79 - 80؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 2 / 244، 245؛ مفاخر البربر، ص 8، 9.

(115) ابن عذاري، المصدر السابق: 2 / 242، 245؛ مفاخر البربر، ص 8، 9؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 6 / 218؛ السلاوي، المصدر السابق: 1 / 200.

(116) ابن عذاري، المصدر السابق: 2 / 245، 246؛ مفاخر البربر، ص 8، 9؛ السلاوي، المصدر السابق: 1 / 200.

(117) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص91؛ السلاوي، المصدر السابق: 1 / 200.

(118) مفاخر البربر، ص 9؛ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 91، 92؛ ابن القاضي، المصدر السابق: 2 / 504؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 6 / 218؛ السلاوي، المصدر السابق: 1 / 201.

(119) ابن حيان، المقتبس، تحقيق: الحجي، ص 128؛ مفاخر البربر، ص 9.

(120) ابن حيان، المقتبس، تحقيق: الحجي، ص 190؛ ويقارن: أحلام حسن مصطفى النقيب، الخلافة في الأندلس من 350 - 366 هـ - دراسة في الأحوال السياسية والاجتماعية، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1992، ص 99.

(121) ابن حيان، المقتبس، تحقيق: الحجي، ص 125، 128.

(122) قلعة النسر: وتسمى بطلعة الحجر، وهي حصن بناه إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس سنة 317هـ/929م، فوق جبل مرتفع شمال شرق القصر الكبير بالقرب من سبته. ينظر: أبو

=

=

عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز البكري، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب من كتاب المالك والممالك، نشر: دي سلان (الجزائر، 1857) وأعادت نشره: مكتبة المثنى، ببغداد، ص 127؛ المزروع، المرجع السابق، ص 100.

(123) ابن عذاري، المصدر السابق: 2 / 248؛ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 92؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 6 / 218؛ ابن القاضي، المصدر السابق: 2 / 505؛ السلاوي، المصدر السابق: 1 / 201، 202.

(124) مفاخر البربر، ص 9، 10؛ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 93؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 6 / 219؛ ابن القاضي، المصدر السابق: 2 / 505؛ السلاوي، المصدر السابق: 1 / 202.

(125) لمعرفة أسباب نفيهم، ينظر: مفاخر البربر، ص 11 - 15؛ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص93؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 6 / 219؛ السلاوي، المصدر السابق: 1 / 203.

(126) البزيوي، المصدر السابق، ورقة 26؛ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص93؛ السلاوي، المصدر السابق: 1 / 203.

(127) ابن عذاري، المصدر السابق: 2 / 281؛ مفاخر البربر، ص 19، 20؛ أبن أبي زرع، المصدر السابق، ص 93، 94؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 6 / 219.

(128) عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة المرية الإسلامية (ط 1، بيروت، دار النهضة العربية، 1969)، ص 36.

(129) العبر: 4 / 139.

(130) هامش المحقق الرقم (3)؛ ابن الكردبوس، المصدر السابق، ص 90؛ محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس (بيروت، دار القلم، 1975)، ص 223.

(131) ليفي بروفنسال، طريف: 15 / 171؛ محمد عبد الله عنان، الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال (ط 2، القاهرة، مؤسسة الخانجي، 1961)، ص 279، 280.

(132) البيان المغرب: 2 / 165؛ وقارن: أحمد مختار العبادي، سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس، مجلة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، المجلد الخامس، 1957، ص206؛

The influence of Sea poowr on the History of Muslim spai, Nevil, Barbour، Vol. 14, p. 106.

(133) مفاخر البربر، ص 30.

(134) بنو حمود هما القاسم وعلي ابنا ابن ميمون بن أحمد بن علي بن عبد الله بن عمر بن إدريس الذي كان يحكم بلاد غمارة شمال المغرب على شاطئ البحر المتوسط، كانوا قد عبروا إلى الأندلس ممن عبر مع الحسن بن كنون سنة 375 هـ / 985م. ينظر: المراكشي، المصدر السابق، ص 67؛ مفاخر البربر، ص 20؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 4 / 153.

(135) أبي الحسن علي بن لسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس (بيروت، دار الثقافة، 1979): 1 / ق1 / 38؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 4 / 153.

(136) ابن بسام، المصدر السابق: 1 / ق 1 / 38؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 3 / 114.

(137) المراكشي، المصدر السابق، ص 68؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 3 / 16، 117؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 4 / 152.

(138) للمزيد من المعلومات. ينظر: المراكش، المصدر السابق، ص 17؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 4 / 154.

أسرة أبي عبدة ودورها في تاريخ الأندلس في عهد الولاة والإمارة (92 – 316 هـ / 714 – 928 م)

المقدمة:

وصفت بعض الروايات التاريخية عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الملقب بالداخل أو الأول، بأنه مؤسس الدولة الأموية في الأندلس عام 138 هـ / 756 م بعد أن سقطت هذه الدولة في المشرق عام 136 هـ على أيدي العباسيين وأنصارهم، وعزت الفضل كله إلى شخصيته القوية وعزيمته الصلبة التي لا تلين [1]. وفي الوقت الذي لا تنكر فيه دور المواصفات الشخصية الجيدة للقادة والزعماء وأثرها في تثبيت أركان الحكم، ومع اعترافنا بقوة وعزيمة عبد الرحمن الداخل وشدة بأسه، حتى وصف بـ " صقر قريش " من قبل أعدائه [2]، نرى أن نجاحه لا يعود إلى خصاله الشخصية فحسب بل يعود فضلاً عن ذلك إلى تعاون أسر عربية وبربرية معه قبل دخوله الأندلس وبعده وتسمى بـ (موالي بني أمية) في الأندلس، كما أنّ ذهابه صوب الأندلس، بعد نجاته من خطر العباسيين كان مدفوعاً بعدة أسباب منها:

1 - رعاية الخليفة هشام 105 - 125 هـ/724 - 743م لحفيده عبد الرحمن بعد وفاة والده الذي وهبه جمع الأخماس التي أصبحت للخلفاء الأمويين في الأندلس وأقطعه إياها، فوجه عبد الرحمن من يرعاها ويقوم بشؤونها مدة بقائه في الشام [3]. ولعل توجه عبد الرحمن إلى الأندلس كان من وحي هذه الأخماس أو نتيجة لحيازتها[4].

2 - كان في الأندلس جماعة كبيرة من العرب الفاتحين خلال عصر الولاة 96 - 138 هـ / 711 - 756 م وتسمى موالي بني أمية أو الموالي. والموالي لا يراد بهم جميعاً هنا موالي النعمة أو موالي العتق الذين يكونون رقيقاً، ثم ينعم عليهم أصحابهم بالعتق لوجه الله أو لقاء مال، وإنما المراد موالي الموالاة. فالمولى قد يكون " ابن العم والعم والأخ والابن والعصبات كلهم والمولى الولي الذي يلي

عليك أمرك والمولى، مولى الموالاة الذي يسلم على يديك ويواليك "[5]. ومعظم بني أميه هؤلاء كانوا من موالي الموالاة، وهم من موالي بعض خلفاء بني أمية المشرقيين خدموهم وأخلصوا لهم ودخلوا في ولائهم فكانوا في جملة رجالهم، وعرفوا بالموالي وإن كانوا عرباً. فمنهم بنو شهيد وهم عرب من أشجع بن ريث بن غطفان، وبنو مغيث من عرب الغساسنة، وبنو أبي عبدة من عرب حمير، وهم دراستنا، وغيرهم.

وكان هؤلاء الموالي جماعة قائمة بنفسها تتركز في جنوب غربي الأندلس وكانوا يرون أنفسهم أحق من غيرهم بالرياسة وكبار الوظائف، فقد خدموا البيت الأموي في المشرق بإخلاص وساهموا في فتح الأندلس بنصيب كبير. ولهذا فعندما راسلهم عبد الرحمن من ملجئه في الساحل الإفريقي استجابوا له وأيدوه ورحبوا بمقدمه.

ويعني هذا أن بعض أسباب نجاح عبد الرحمن الداخل في تأسيس إمارته بالأندلس يعود إلى تأييد هذه الأسر له، ولا سيما أسرة أبي عبدة، وبقيت هذه الأسرة تخدم الإمارة الأموية طيلة عصرها، وكانت مصدر قوة لها. فمن هنا جاءت دراسة هذه الأسرة، مع تبيان دورها الإداري والعسكري في تاريخ الأندلس خلال عصر الإمارة.

والبحث قسمناه إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: يوضح أصل الأسرة، ومتى دخل أوائل أفرادها الأندلس.

القسم الثاني: يتناول دور الأسرة في تهيئة الأمور لعبد الرحمن الداخل.

القسم الثالث: يوضح دور الأسرة الإدارية، أي توضيح المناصب الإدارية التي تقلدها أفراد هذه الأسرة خلال عصر الإمارة.

القسم الرابع: يبين دور الأسرة العسكري، ويشمل ناحيتين:

الأولى: توضح دور الأسرة في قمع الفتن الداخلية وحركات التمرد خلال عصر الإمارة.

والثانية: توضح دورها الجهادي في محاربة الممالك الأسبانية والنورمان خلال هذا العصر.

وقد اعتمدنا المصادر الأولية الأندلسية في بحثنا هذا، وكذلك المراجع

الأندلسية العربية منها والأجنبية، وفي عملنا هذا نقدم خدمة متواضعة لتاريخ أمتنا في الأندلس، من خلال توضيح دور هذه الأسرة الذي لم يدرس بصورة مستقلة.

القسم الأول

أصل الأسرة، ومتى دخل أوائل أفرادها الأندلس

كانت أسرة أبي عبدة من أكبر أسر موالي بني أمية في الأندلس، وعلاقة هذه الأسرة ببني أمية لا ترجع إلى أيام عبد الرحمن الداخل، بل إلى أيام مروان بن الحكم الخليفة الأموي في المشرق، وكان رأس الأسرة عبد الله بن جابر من أشد الناس إخلاصاً لمروان بن الحكم، وهو الذي أبلى معه في معركة مرج راهط سنة 64 هـ / 683 م بلاءً عظيماً [6].

ويروي لنا ابن الأبار خبر اشتراك عبد الله بن جابر في هذه المعركة [7]، إلاّ أن المصادر الشرقية المعتمدة لم تذكر خبر الاشتراك هذا عند ذكرها التفاصيل عن معركة مرج راهط [8]. ويقول ابن الأبار: " وكان عبد الله بن جابر مملوكاً لمروان بن الحكم، أبلى يوم وقيعة مرج راهط بلاءً حسناً فأعتقه " [9].

ويبدو لنا من هذا النص ومن كلمة " مملوكاً وأعتقه " أن عبد الله بن جابر كان عبداً لمروان بن الحكم ثم حرره بعد بلائه في هذه المعركة، وهذا النص مفتقر للدقة وذلك لأن هذه الأسرة من موالي بني أمية والمولى هو " ابن العم والأخ والابن والعصبان كلهم " كما ذكرنا ذلك، إضافةً إلى أن بعض الروايات الأندلسية التي ذكرت نزول العرب في الأندلس أشارت إلى أسرة أبي عبدة ونسبتهم إلى كلب بن وبرة بن تغلب[10]، والذين يرجع نسبهم الأعلى إلى حمير، أي إلى العرب القحطانية [11]. ومما يعزز رأينا حول عروبة هذه الأسرة، أن الوزير أبا الحزم جهور بن محمد بن جهور حاكم قرطبة في عصر الطوائف ينتسب إلى هذه الأسرة، وقد أعطتنا بعض المصادر المهمة نسبه كاملاً: " أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور بن عبيد الله بن محمد بن الغمر بن يحيى بن عبد الغافر بن حسان بن مالك (أبي عبدة) الكلبي مولى بني أمية " [12]. كما يجب التنبيه إلى الفرق بين أسرة أبي عبدة العربية التي ينتسب لها بنو جهور حاكم قرطبة، وبين أسرة أخرى كانت تدعى بني جهور أيضاً، وهم الجهاورة البختيون الذين ينتسبون إلى جهور بن يوسف بن

بخت الفارسي [13]، وقد خلط بين الأسرتين بعض المؤرخين مثل ابن عذاري حينما تحدث عن دولة الجهاورة حكام قرطبة، إذ زعم أنهم ينتمون إلى عبد الغافر بن يوسف بن بخت بن أبي عبدة [14]، وهذا خطأ واضح.

ويبدو لنا أن العلاقة قد توطدت بين أسرة أبي عبدة وبين البيت الأموي بعد بلاء جدهم في معركة مرج راهط، فتذكر لنا الروايات أن عبد الغافر بن حسان بن مالك (أبو عبدة) نشأ مع عبد الرحمن بن معاوية بن هشام وتأدب معه بالمشرق [15]، ومن المعروف أن عبد الرحمن الداخل ولد عام 113 هـ /731م على أغلب الروايات [16]. كما أن أبا عبدة رحل إلى الأندلس عام 113 هـ /731 م في ولاية عبد الرحمن الغافقي الثانية 112 - 114 هـ/ 730 - 732 م وترك ابنه الصغير عبد الغافر في المشرق مع قرينه عبد الرحمن الداخل [17]، ثم لحق عبد الغافر بوالده في الأندلس ودخلها قبل وصول عبد الرحمن إليها [18]. ودليلنا على ذلك أن أبا عبدة وابنه عبد الغافر سيهيئون الأمر لعبد الرحمن الداخل ويساعدونه في الوصول إلى إمارة الأندلس.

وقد أخذت هذه الأسرة مكانها بين موالي بني أمية في بلد الأندلس خلال عصر الولاة 92 - 138هـ، وخاصة بعد هجرة عميدها أبي عبدة إلى الأندلس خلال عصر الولاة 92 - 138 هـ وأن هذه الأسرة من بقية موالي بني أمية مالوا إلى الصميل بن حاتم بن شمر بن ذي الجوشن، بعد سقوط الدولة الأموية بالمشرق عام 132 هـ، وذلك للتخلص من زعامة الوالي الأندلسي يوسف بن عبد الرحمن الفهري (169 - 138 هـ / 747 - 775 م) الذي اعتبر نفسه وارثاً لموالي بني أميه بالأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية في المشرق [19]. لهذا كان أبو عبدة دائم التردد إلى مجالس الصميل، وتخبرنا الروايات عن ذهاب عشرة من زعماء الشاميين إلى مجلس أرطباس بن غيطشة [20]، منهم الصميل بن حاتم وأبو عثمان عبيد الله بن عثمان وصهره عبد الله بن خالد وأبي عبدة (حسان بن مالك) ويوسف بن بخت الفارسي، وقد استاء هؤلاء الزعماء من مبالغة أرطباس في إكرام ميمون العابد جد بني حزم وهم من بكر بن هوازن [21]. فحاول أرطباس ارضاءهم فوهبهم مائة ضيعة من ضياعه، فكان نصيب كل واحد منهم عشرة ضياع [22]. وكان نصيب الصميل عقدة الزيتون بالمرور، ونصيب عبد الله بن خالد الفذتين بالقرب من لوشه [23]. أما

ضياع ابن عبدة (حسان بن مالك) فلم تشر هذه الروايات إلى موقعها، ولكن الذي يبدو لنا أنها كانت في غربي الأندلس وبخاصة في منطقة أشبيلية، حيث تذكر لنا بعض الروايات أن أبا عبدة كان ساكناً في أشبيلية بالقرب من ضياع أبو الصباح حي بن يحيى اليحصبي [24]، زعيم اليمانية في غربي الأندلس [25].

القسم الثاني

دور أسرة أبي عبدة في تهيئة الأمور لعبد الرحمن الداخل 136 – 138 هـ

تمكن عبد الرحمن الداخل من الهرب إلى شمالي أفريقية تخلصاً من الخطر العباسي واستقر به المقام أخيراً في بلاد المغرب الأقصى وحصل على حماية أخواله من قبيلة نفزة البربرية وقبائل أخرى مثل زناتة وفغيلة، فخلصوه من خطر عبد الرحمن بن حبيب الفهري حاكم أفريقية الذي لم يعترف بالعباسيين، وكان يحاول الاستقلال عنهم [26].

ومن مقره الغربي بدأ عبد الرحمن الداخل الاتصال بموالي بني أمية في الأندلس، فأرسل مولاه الرومي الأصل أبا نصر بدر[27]، إلى قرية طرش الأندلسية أواخر سنة 136 هـ / 754م يحمل رسالة إلى زعيم الموالي أبي عثمان عبيد الله بن عثمان يشرح له فيها ظروفه، ويطلب إلى موالي بني أمية مساعدته وحمايته. وفي الوقت نفسه تصل بدر مولى الداخل بأبي عبدة (حسان بن مالك) شارحاً له ظروف سيده [28]. وبعد أن شاور أبا عثمان صهره عبد الله بن خالد وزميله يوسف بن بخت الفارسي [29]، قرر زعماء الموالي مساعدة عبد الرحمن الداخل الذي سيعيد لهم النفوذ في ظل إمارته [30]. وبدأوا أمرهم بإخفاء القصد الحقيقي لعبد الرحمن الداخل أولاً، ومن ثم مشاورة الصميل صاحب النفوذ بالأندلس ثانياً [31]، وهذا نابع من إيمانهم بأن الصميل لا يخونهم في حالة الرفض، وكانت نتيجة الاتصال بالصميل مفرحة في البداية إذ وعدهم بالنصرة والحماية، إلاّ أنه عاد وتراجع عن هذا الأمر لأنه أدرك أنه سيفقد زعامته بالأندلس، لأن عبد الرحمن الداخل سليل أسرة تعودت على الحكم، وجعلت القبائل وزعمائها أدوات طيّعة في خدمتها، فإذا وصل عبد الرحمن الداخل إلى إمارة الأندلس، قضى على الزعامات القبلية وأولها

زعامة الصميل، وقد كان ذلك فيما بعد [32]. وبعد أن فقد زعماء الموالي مناصرة الصميل والمضرية، قرروا الاتصال بزعماء القبائل اليمانية الذين يتحينون الفرص في أخذ ثأرهم من المضرية، ولعلهم يجدون في تأييدهم لأمر عبد الرحمن الداخل متنفساً لهذا الأمر. وقد استجاب اليمانيون وقرروا نصرة قضية عبد الرحمن الداخل [33].

رجع بدر إلى مولاه في المغرب الأقصى بداية عام 137 هـ يحمل معه أخبار نصرة القبائل اليمنية، ولكن عبد الرحمن الداخل اقترح على مولاه أن يأتي إليه بعض الموالي زعماء اليمانية للتأكيد من الأمر والاطمئان لهذه القضية [34]، فرجع بدر إلى الأندلس وسلم أبا عثمان إجابة الداخل.

استجابةً لطلب عبد الرحمن الداخل أرسل له مواليه الأندلسيون مركباً إلى مقر إقامته بالمغرب وفيه أحد عشر رجلاً يرافقون بدراً من أجل إخبار عبد الرحمن الداخل بالعبور إلى الأندلس، وكان معهم عبد الغافر بن حسان بن مالك الذي أرسله والده (أبو عبيدة) إلى عبد الرحمن ليطلعه على أحوال الأندلس، ويؤكد له استعداد الموالي لنصرته [35]. عبر عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس ونزل ميناء المنكب فاتح ربيع الأول عام 138هـ / آب 755م، ومنه ذهب إلى قرية طرش فنزل أبو عثمان من أجل توفير الحماية له [36]. والفترة المحصورة من ربيع الأول إلى ذي الحجة من عام 138 هـ يمكن تقسيمها إلى ثلاث فترات:

ففي الفترة الأولى من ربيع الأول إلى شوال، وفدت إلى الداخل الوفود المؤيدة له، ومنهم أبو عبدة (حسان بن مالك) الذي وفد إليه من أشبيلية [37]. ومع هذا كان أمر الداخل قلقاً في قرية طرش حيث كان يبيت في الجبال في أمكنة غير معروفة خوفاً من المباغتة [38]. ويبدو لنا أن نصرة أبي عبدة لعبد الرحمن الداخل كانت قوية، فقد ذهبت بعض الروايات إلى أن الداخل استوزر أبا عبدة مباشرة بعد عبوره إلى الأندلس، أو هكذا يفهم من هذه الروايات: " ... لما نزل الداخل ساحل المنكب حملته الموالي إلى قرية طرش فجاءه أبو الحجاج يوسف بن بخت وجاءته الأموية كلها...وأبو عبدة حسان فاستوزره ... " [39].

ونحن لا نميل إلى هذه الرواية، وخاصةً أن الداخل لم يوطد له أي أمر لحد الآن ما عدا نصرة الموالي، ولعل التفسير المقبول لهذه الرواية هو: أن الداخل

استعان بأبي عبدة وجعله مشاوراً له يعتمد عليه في تهيئة الأمور له في هذه الفترة والفترات اللاحقة. ومن الثابت تاريخياً أن الداخل لم يستوزر أبا عبدة ولا غيره، إلاّ بعد أن استقرت له الأمور، أي بعدما أصبح أميراً على الأندلس بصورة شرعية كما يخبرنا بذلك ابن الأبار: " فلما توطد عبد الرحمن، استوزر أبا عبدة واستقوده ... "[40].

وفي الفترة الثانية، وهي فترة التحركات من ربيع الأول إلى شوال عام 138 هـ استعد يوسف الفهري والي الأندلس للقضاء على الداخل بعد أن تحسنت حالة المناخ، وبما أن أنصار عبد الرحمن الداخل كانوا من البلديين المستقرين في أملاكهم، أصبحوا في حاجة إلى الجمع ولم يكن مع الداخل من الأنصار أكثر من ستمائة فارس. لذا قرر التحرك من مقره والطواف على أتباعه من أجل حشدهم لملاقاة والي الأندلس. بدأ الداخل بكورة رية مقر جند الأردن وعاصمتها أرشذونة، حيث انضم إليه عربها وبربرها وبايعوه في المسجد، فأصبح له من الأنصار العدد الكبير. ثم سار نحو شذونة مقر جند فلسطين وانضمت إليه عرب اليمانية وبربر المنطقة، ثم دخل مورور ومنها سار إلى أشبيلية مقر جند حمص فانضمت إليه جميع القبائل اليمانية برئاسة أبي الصباح حي بن يحيى اليحصبي، كما وافاه فيها حيوة بن ملامس سيد عرب الغرب[41]. ويبدو لنا أن دور أبي عبدة (حسان بن مالك) في هذه الفترة كان كبيراً ومهماً، فهو الذي ضمن تأييد شيخ اليمانية في غربي الأندلس أبي الصباح لقضية عبد الرحمن الداخل، وتأييد شيخ اليمانية للداخل كان من أسباب نجاح أمره ووصوله إلى الإمارة. يخبرنا ابن القوطية بهذا الأمر: " ... موالي بني أمية وبالذات شيخهم أبو عثمان، طلبوا من أبا عبدة (كذا) حسان بن مالك بملاطفة أبي الصباح، شيخ اليمانية في غرب الأندلس ومسكنه قرية موره في شرف أشبيلية، إذ كان معه بأشبيلية، وأن يذكره بيد هشام بن عبد الملك عنده، فكانت له عنده يد كريمة. . . "[42].

ولعل هذه اليد الكريمة، أي معروف الخليفة هشام بن عبد الملك لأبي الصباح تمثلت في تعيين الخليفة هشام والياً يمانياً على الأندلس عام 125 هـ وهو أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي اليماني (125 - 128 هـ / 743 - 746 م)، من أجل إرجاع الهدوء إليها بعد أن عانت الأندلس من النزاعات القبلية وهذا الوالي هو

الذي فرّق الشاميين (الذين عبروا مع بلج القشيري) في كور الأندلس، فأنزل جند الشام في البيرة (غرناطة)، وجند حمص في أشبيلية وليله، وجند فلسطين في شذونة والجزيرة الخضراء، وجند الأردن في ريه، وجند قنسرين 3/4 في جيان، وجند مصر في باجة وأكشونبه وتدمير [43].

أما الفترة الثالثة، وهي فترة معركة المسارة 10 ذي الحجة عام 138 هـ، فعلى الرغم من أن المصادر لم تخبرنا بأي دور لأبي عبدة وابنه عبد الغافر في هذه المعركة. يمكن الاستنتاج من دورهم في الفترات السابقة، أنه كان لهما دور مهم وكبير في هذه المعركة الفاصلة التي أوصلت عبد الرحمن الداخل إلى كرسي الإمارة، فأعاد في الأندلس مجد بني أمية الذي انقرض في المشرق [44].

القسم الثالث

دور أسرة أبي عبدة الإداري 138 - 316 هـ

أولت الإمارة الأموية اهتمامها بأفراد أسرة أبي عبدة، وقلدتهم أهم المناصب الإدارية، مستعينة بهم من أجل إقرار الأمن وتنظيم الإدارة، فلهذا نجد كل أمير أموي في هذه الفترة يحيط نفسه بمجموعة من الرجال ذوي التجربة والإخلاص، وفي مقدمتهم أفراد أسرة أبي عبدة، وكان هذا من أسس قوة الإمارة الأموية في الأندلس.

ولمّا كانت المناصب الإدارية التي تولاها أفراد أسرة أبي عبدة كثيرة ومتعددة خلال عصر الإمارة، لذا سيكون منهجنا في هذا الأمر كما ذكر، بحث ما يتعلق بالمنصب الإداري ومن تولاه من هذه الأسرة خلال عصر أمير من أمراء العصر.

1 - الحجابة:

الحاجب منصب إداري مشرقي، مهمته إدخال الناس على الخليفة حسب مقامهم وأهمية أعمالهم [45]، ولكن هذا المنصب في الأندلس الذي أوجده الأمير عبد الرحمن الداخل (138 - 172 هـ / 756 - 789 م) وقلّده أخلص رجاله، هو بمثابة رئيس الوزراء الذي يعتبر حلقة الوصل بين الأمير الأموي وبين وزرائه [46].

ففي عصر الأمير هشام (172 - 180 هـ / 789 - 796 م) تولت الحجابة له أبو أمية الغافر بن أبي عبدة (حسان بن مالك)، وكان حاجب الأمير الحكم بن هشام

(180 - 206 هـ / 796 - 822 م) أخاه أبا عبدة عبد العزيز بن أبي عبدة (حسان بن مالك) [47]، وكان قائداً كبيراً وسياسياً بارعاً [48]. ويخبرنا ابن عذاري أن حجاب الأمير عبد الرحمن الأوسط (206 - 238 هـ / 822 - 852 م) هما: عيسى بن شهيد وابن أبي الغافر بن أبي عبدة [49]. ولا ندري من المقصود " بابن أبي عبدة " لأن حسن بن عبد الغافر بن أبي عبدة كان من وزراء هذا الأمير، أما حجابة فهم، سفيان بن عبد ربه وعيسى بن شهيد، ولم يذكر لنا ابن حيان حاجباً للأمير عبد الرحمن الأوسط من هذه الأسرة [50]. أم أن الأمر يعني أن أبا عبدة عبد العزيز حاجب الأمير الحكم استمر في عمله للأمير عبد الرحمن الأوسط؟.

وتولى عيسى بن الحسن بن أبي عبدة الحجابة للأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط (238 - 273 هـ / 852 - 886 م) بعد وفاة الحاجب عيسى بن شهيد، ووصفت لنا بعض الروايات ببساطة هذا الحاجب وسلامة نيته، كما أنه كان محل حسد بعض الوزراء الذين حاولوا عدة مرات الايقاع به وتوريطه في قضايا معينة من أجل تبيان عدم صلاحيته أمام الأمير محمد إلاّ أن الأمير محمد كان على علم ومعرفة بدسائس الوزراء، فكان يتغاضى عن أخطاء حاجبه غير المتعمدة، ويصحح له الأمور [51].

وشغل أبو عثمان عبيد الله بن محمد بن الغمر بن أبي عبدة حاجب الأمير محمد في عهد والده الأمير عبد الله (275 - 300 هـ / 888 - 912 م). ويبدو لنا أن هذا المنصب الإداري (حاجب أولاد الأمراء) لايعطي نفس صلاحيات الحاجب الذي يكون بمثابة رئيس الوزراء، وربما يعني الوزير الخاص للأمير الولد في عهد والده. هذا مع العلم أن الأمير عبد الله استكثر من الوزراء حتى بلغوا في بعض الأوقات ثلاثة عشر وزيراً منهم أربعة من أسرة أبي عبدة، وفي مقدمتهم أبو عثمان المار الذكر[52]. وقد استغنى الأمير عبد الله عن منصب الحجابة آخر أيامه مكتفياً بوصيفه بدر بن أحمد الصقلي الذي كان ينظم أموره [53].

2 - الوزارة:

وجد نظام الوزارة في الأندلس منذ قيام الإمارة الأموية وكانت وزارة متعددة المناصب، لها رئيس وزراء يسمى الحاجب وهو الذي يتصل بالأمير، وهذا التعدد في مناصب الوزراء لا نجده في المشرق حيث كانت السلطة مركزة في يد وزير

واحد، وقلّما وجد وزيران [54].

أما في الأندلس فكان لكل ناحية من نواحي الإدارة العامة وزير يختص بها، إضافة إلى الحاجب، وهناك بيت خاص لانعقاد مجلس الوزراء في قصر الإمارة. بعد أن توطدت الأمور لعبد الرحمن الداخل (138 - 172 هـ) استوزر عدة أشخاص من رجاله الأكفاء، منهم أبو عبدة حسان بن مالك، وابنه أبو أمية عبد الغافر بن أبي عبدة [55]. وعدل الأمير عبد الرحمن الوسط (206 - 238 هـ) [56] نظام الوزارة، فقسّمها إلى عدة وزارات مختلفة، وألزم وزراءه الحضور يومياً إلى بيت الوزارة الذي خصصه لهم في قصر الإمارة، وذلك من أجل مشاروتهم في كل أمور الدولة، ومن أشهر وزرائه حسن بن عبد الغافر بن أبي عبدة [57]. ويبدو لنا أن هذه الأسرة أصبحت لها مكانة مرموقة في عصر هذا الأمير، إذ يذكر ابن حيان وفاة شخصين من هذه الأسرة ضمن ذوي النباهة في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط دون أن يذكر وظائفهما وهما: الغمر ابن يحيى بن عبد الغافر (توفي عام 235 هـ) ومحمد بن حيون بن أبي عبدة أخو حمدون (توفي عام 236 هـ) [58]، ولكن الأمر يدل على أنهما توليا بعض المناصب الإدارية الجليلة للأمير عبد الرحمن الأوسط. وأقر الأمير محمد بن عبد الرحمن (238 - 273 هـ) حاجب أبيه عيسى بن شهيد ومعظم الوزراء الذين كانوا يتولون خدمة أبيه [59]. ويعني هذا أن الأمير محمد أبقى حسن بن عبد الغافر بن أبي عبدة، وزيراً له، لأنه كان من وزراء أبيه، كما ذكرنا. والأمير محمد وضع نظاماً جديداً للوزارة، يمتاز فيه الوزراء بنوع من التعظيم، وقدّم الوزراء الشاميين على الوزراء الباديين وأعلاهم في الجلوس على كراسيهم ببيت الوزارة [60].

وكل ما تخبرنا الروايات عن الأمير المنذر (273 - 275هـ /886 - 888م) أنه تمسك بوزراء أبيه الأمير محمد. فهل هذا الأمر يعني: أنه أبقى حسن بن عبد الغافر وزيراً له؟ ربما يكون الأمر كذلك [61].

وفي عهد الأمير عبد الله (275 - 300 هـ) ازداد نفوذ هذه الأسرة الإداري، فتولى الوزارة خمسة أفراد منها في آن واحد وهم:

أبو عثمان عبيد الله بن محمد بن أبي عبدة، والوزير القائد أبو العباس أحمد بن محمد بن عيسى بن أبي عبدة وابنه عيسى، وسلم (سلمة) بن علي ابن أبي

عبدة، وعبد الرحمن بن حمدون بن أبي عبدة المعروف بـ (دحيم). وبقي الوزير أبو العباس أحمد بن محمد وزيراً للأمير عبد الله حتى وفاته [62]. واستمر الأمير عبد الله على سياسة والده الأمير محمد في تقديم الوزراء الشاميين على الوزراء البلديين. فقد اجتمع في عهده وزير شامي وهو موسى ابن جدير ووزير بلدي وهو عيسى بن أحمد بن أحمد بن محمد بن أبي عبدة، وأراد عيسى التقدم على صاحبه معتزاً بمكانة أبيه الوزير القائد أبي العباس صاحب الفضل في انقاذ الإمارة من الضياع، لكن الأمير عبد الله آثر أن يظّل الأمر كما رسمه أبوه للوزارة، أي قرر أن يظل بنو حدير متقدمين على بني أبي عبدة [63].

وفي عهد الأمير عبد الرحمن الثالث (الناصر) (300 - 350 هـ / 912 - 961 م) وخلال فترة الدراسة (300 - 316 هـ / 912 - 929 م) تقلد منصب الوزارة القائد أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي عبدة وابنه عيسى، وهم وزراء جده الأمير عبد الله، عدة مرات [64].

3 - ولاية الأقاليم:

كانت أشبيلية وما يليها من غربي الأندلس، وبخاصة مدن باجة وماردة وقورية، من مراكز التمرد على الأمير عبد الرحمن الداخل (138 - 172 هـ).

وتزعم التمرد في أشبيلية عبد الغافر اليماني وتمكن الداخل من القضاء على حركته، وإرغامه على الهرب إلى المشرق حوالي عام 145 هـ، وفي باجة العلاء بن مغيث الجذامي الذي دعي للعباسيين، وقتل العلاء بعد معركة عنيفة عام 146هـ، أما لبلة فقد تمرد فيها زعيم يماني آخر هو سعيد اليحصبي المعروف بالمطري واتسع مدى تمرده إلى أشبيلية وتمكن الداخل من القضاء عليه عام 149 هـ. كما تمرد زعيم اليمانية في أشبيلية أبو الصباح حي بن يحيى اليحصبي، واستطاع الداخل من القضاء عليه عام 150 هـ. ويبدو لنا من خلال الوضع المضطرب في غربي الأندلس هذا، أن الأمير عبد الرحمن الداخل أرسل وزيره أبا عبدة (حسان بن مالك) حاكماً وقائداً إلى أشبيلية، ليضيق الحصار على المتمردين بها، وبخاصة على أهل باجة فاستطاع أبو عبدة الانتصار عليهم، فولي ولاية غربيي الأندلس خمسة أعوام حتى توفي بأشبيلية وقبره فيها [65]. من هنا يتبين لنا أهمية تولية إمارة الغرب إلى حسان بن مالك، والذي كان سبباً من أسباب انتصار الداخل على حركات التمرد

هذه [66]. وأصبح لأسرة أبي عبدة بعد ذلك نفوذ كبير في غربي الأندلس، وكان يحسب لها حسابها، ويخشاها زعماء التمرد هناك. فمن أشهر أفراد هذه الأسرة في أشبيلية خلال عصر الأمير عبد الله (275 - 300 هـ)، ومحسوبين من أهل الطاعة للأمير الأموي هما: عثمان بن الغمر بن أبي عبدة، وحسان بن عامر بن أبي عبدة[67].

أشار ابن خلدون عند كلامه عن حركات التمرد في أشبيلية على عهد الأمير عبد الله بقوله: "... وأول الثوار كان بأشبيلية أمية بن عبد الله المغافر (كذا) بن أبي عبدة، وكان جده أبو عبدة عاملاً عليها من قبل عبد الرحمن الداخل ... " [68].

بينما أشار الأستاذ عنان إلى زعامة أمية بن عبد الغافر بن أبي عبيدة في أشبيلية، وذكر أنه من وجوه القوم المقربين لدى حكومة قرطبة [69].

يتبين لنا من نص ابن خلدون المضطرب، ورواية الأستاذ عنان أنهما قد جانبا الصواب في نسبة أمية بن عبد الغافر إلى أسرة بني عبدة، كما أن الرواية الأولى تجعله تمرداً والثانية تجعله من أهل الطاعة، ولكن الذي يبدو لنا ما يلي:

1 - أن المؤرخ ابن حيان الذي ذكر في كتابه: المقتبس / الجزء الثالث / تفاصيل مهمة عن عصر الأمير عبد الله، يسمى أمية هذا باسم (أمية بن عبد الغافر الخالدي) وله أخ باسم (جعد بن عبد الغافر الخالدي) [70]، هذا مع العلم أن النسبة إلى أسرة أبي عبدة تكون (العبدي) وليس الخالدي، مع علمنا أن أسرة أبي عبدة لم يحمل احد أفرادها اسم (جعد). فربما اشتبه الأمر على ابن خلدون والأستاذ عنان لورود اسم أمية بن عبد الغافر (مع خطأ ابن خلدون بالاسم) ضمن أسرة أبي عبدة.

2 - ومن وصف الأحداث، سواء عند ابن حيان، وابن خلدون (صاحب النص المضطرب) والأستاذ عنان، أن أمية بن عبد الغافر كان مدافعاً عن مدينة أشبيلية ضد المتمردين وليس متمرداً، وأن الأمير عبد الله أرسل له ولده الأمير محمد ليكون عضداً أدبياً له في حكم المدينة أولاً وللتصدي لحركات المتمردين ثانياً [71].

3 - أشار ابن حيان، وهو من المصادر المهمة عن هذا العصر، إلى أن أسرة أبي عبدة هي من الملازمين للطاعة، وليس من المتمردين [72].

ونستنتج من كل هذا: أن أمية بن عبد الغافر هذا لم ينسب إلى أسرة أبي عبدة

بل نسبته الخالدي.

استعان الأمير عبد الله بأبي عثمان عبيد الله بن محمد وعيّنه عاملاً على جيان عام 275 هـ وذلك من أجل التصدي لحركة سعيد بن عبد الله ابن خنجر المتمرد هناك، فتصدى له أبو عثمان وقضى على تمرده [73].

وأعطى الأمير عبد الرحمن الناصر (300 - 316 هـ) إدارة مدينة أشبيلية [74] إلى عيسى بن أحمد بن محمد بن أبي عبدة بالتعاون مع سعيد بن المنذر القرشي عاملها الأصلي الذي تصدى لعمر بن حفصون عندما هاجم أشبيلية عام 301 هـ. وفي عام 315 هـ لمّا شدد الأمير عبد الرحمن الناصر الحصار على مدينة يبشتر الحصن المنيع لآل عمر بن حفصون[75]، طلب حفص بن عمر بن حفصون الطاعة فأجيب لها. وبعد ذلك دخلت جيوش الإمارة مدينة يبشتر، وعهد الأمير الناصر إلى الوزير القائد عيسى بن أحمد بن محمد بن أبي عبدة إدارة المدينة وإصلاح أمورها[76]. وعهد كذلك الأمير الناصر إدارة بعض الكور إلى جهور بن عبيد الله بن محمد وعهد إلى أخيه عثمان بن عبيد الله ولاية طرطوشة وذلك في عام 317 هـ[77].

4 - ولاية الشرطة العليا (صاحب المدينة):

بدأت ولاية الشرطة في الأندلس منذ عصر الأمير عبد الرحمن الداخل (138 - 172 هـ) ثمَّ قسّمت هذه الولاية فيما بعد إلى قسمين: الأول، ولاية الشرطة العليا (الكبرى) فجعل لصاحبها الحكم على أهل المراتب السلطانية والضرب على أيديهم في الظلامات، وعلى أيدي أقربائهم من أهل الحياة. وجعل لصاحبها كرسياً بباب دار الإمارة وفي خدمته عدة رجال ينفذون أوامره. والثاني، ولاية الشرطة الصغرى، وجعل لصاحبها الحكم على عامة الناس[78]، ثم تطور اسمها إلى صاحب المدينة، ويبدو أن صاحب المدينة كان يشرف على الخدمات العامة في العاصمة، إضافةً إلى صلاحيات ولاية الشرطة العليا [79]، وأول من اتخذ الشرطة حرساً خاصاً له هو الأمير عبد الرحمن الداخل بعدما شعر بخطر اليمانية عليه بعد الانتصار في معركة المسارة، وذلك عندما منعهم من نهب قصور قرطبة [80].

وأول من تولى قيادة الشرطة من أسرة أبي عبدة هو عبد الغافر بن أبي عبدة، حيث تولاها للأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل (172 - 180هـ) [81]. وفي عهد الأمير عبد الله (275 - 300 هـ) تولى ولاية الشرطة العليا (صاحب المدينة) أبو

العباس أحمد بن محمد بن أبي عبدة، وكذلك أبو عثمان عبيد الله بن محمد بن الغمر بن أبي عبدة [82].

وفي ولاية الأمير عبد الرحمن الناصر (300 - 316 هـ) حصرت ولاية الشرطة العليا (صاحب الشرطة) في أولاد الوزير القائد أبي العباس أحمد بن محمد، تولاها أولاده الثلاثة عباس وعبد الله وعيسى، وكذلك حفيده أحمد بن عيسى [83].

5 - صاحب الخاتم:

معروف تاريخياً أن الخليفة الأموي الأول معاوية بن أبي سفيان (42 - 64 هـ) أول من اتخذ ديواناً للخاتم، وكان فيه كتاب ينسخون أوامر الخليفة ويودعونها هذا الديوان، بعد أن تحزم بخيط وتختم بالشمع وعليها خاتم صاحب هذا الديوان وذلك على أثر تزوير إحدى رسائله [84]. إلاّ أن ختم الرسائل كان موجوداً منذ عهد النبوة، وكان خاتم رسول الله ﷺ هو " محمد رسول الله " [85]، وكان لكل من الخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية وبني العباس أختام خاصة بهم وقد قلدهم في ذلك أمراء بني أمية في الأندلس، فكان خاتم الأمير عبد الرحمن الداخل يتراوح بين نصين: " عبد الرحمن بقضاء الله راضٍ " و " وبالله يثق عبد الرحمن وبه يعتصم " [86].

وتولى بعض أفراد أسرة أبي عبدة هذه الوظيفة الإدارية لبعض الأمراء الأمويين. ولم تسعفنا الروايات إلاّ بذكر اسم أبي أمية عبد الغافر بن أبي عبدة الذي كان صاحب خاتم الأمير عبد الرحمن الداخل والأمير هشام والأمير الحكم [87]. وبعد عصر الحكم لا نجد ذكراً لأحد من أفراد هذه الأسرة تولى مهمة صاحب الخاتم، على الرغم من أن أمراء بني أمية في الأندلس كان لكل منهم خاتم خاص به.

6 - خزانة المال (بيت المال):

من الدواوين الأولى التي ظهرت في الدولة العربية ديوان بيت المال الذي أسسه الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب ﷺ (13 - 23 هـ) لتنظيم واردات الدولة ومصروفاتها [88]. وإذا لم تسعفنا الروايات عموماً بصيغة ثابتة من خزانة الإمارة

الأندلسية منذ عصر الداخل إلى بداية عصر الأمير الناصر، إلاّ أنه يمكن الاستنتاج أن هناك ميزانية منظمة للإمارة منذ عهد الداخل الذي كان بحاجة إلى الأموال لتوطيد دعائم ملكه، كما أنه رتّب العطاء للجيش حسب قواعد معينة [89]. وكذلك الأمير هشام كان يهتم بجباية الزكاة، وكان عطوفاً على الفقراء يوزع عليهم صدر الأموال ليلاً [90].

ومن المعروف أن الأندلس ازدهرت اقتصادياً في عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط فضربت النقود، وانتعشت الحالة الاقتصادية بسبب نشاط التجارة بصورة خاصة، فبدأ عصر الرفاه الاجتماعي والازدهار الاقتصادي بالأندلس، وهذا لا يتم إلاّ بوجود موارد مالية منظمة [91]. وعلى الرغم من اضطراب الأندلس في عهد الأمير عبد الله، كان يطلب من البعض الولاء على شكل أموال تدفع إلى خزينة الإمارة [92].

ويبدو لنا أن الاهتمام بالخزانة (بيت المال) بلغ الذروة في عهد الأمير الناصر الذي كان بحاجة إلى هذه الأموال لقمع الفتن الداخلية، ولمجاهدة الأسباب أولاً ومن أجل تنشيط مظاهر البناء المحكم الذي كان مولعاً به ثانياً، ولهذا ترد لأول مرة في مصادرنا المعتمدة وظيفة خزانة الأموال على عهد الأمير الناصر.

ومن أبرز زعماء أسرة أبي عبدة الذين تولوا هذا المنصب محمد بن عبيد الله بن محمد بن الغمر، بالمشاركة مع أشخاص آخرين، كما تولاه ابنه محمد بن محمد بن عبيد الله أيضاً [93]. وفي عام 316 هـ ولى الأمير عبد الرحمن الناصر أربعة أشخاص على خزانة المال وهم: محمد بن جهور، وعبد الرحمن بن عبد الله الزجالي، وأحمد عيسى بن أحمد بن محمد بن أبي عبدة، وأحمد بن محمد بن أبي قابوس [94].

7 – الكتابة:

الكاتب كما يشير ابن خلدون من أكبر أعوان الخليفة، وتكون مهمته الإشراف على كل أمور الخليفة الكتابية [95]. وقد سمي الكاتب بعدة أسماء منها: تراجمة الملوك، وكاتب السر، وصاحب الإنشاء [96].

ولقد حرص خلفاء المسلمين في مختلف العصور على أن يتولى الكتابة من ينتمي إلى نسب رفيع، ومن أتاحت لهم ظروفهم أن يتمتعوا بسعة العلم وعمق

الثقافة، إذ كان مركز الكاتب أحياناً يعادل مركز الوزير، فهو الذي يحرر الرسائل الرسمية والسياسية الداخلية منها والخارجية، وهو الذي ينشر بين الناس المراسيم والبلاغات والتراتيب الإدارية، وقد كان يتاح له في بعض الظروف أن يجلس مع الخليفة على منصة القضاء لينظر في الدعاوي والشكاوي، ويختمها بخاتم الخليفة[97]. وقد كان بعض أفراد أسرة أبي عبدة موصوفين بالبلاغة وإجادة الكتابة وفي طليعتهم أبو عثمان عبيد الله[98] وابنه جهور بن عبيد الله[99]. ولما كان الأمير عبد الله موصوفاً بحبه للعلم ورعايته للعلماء، وقع اختياره على أجود الكتّاب من هذه الأسرة[100]، وهم اثنان:

الأول: أبو عثمان عبيد الله، وقد عرف بجودة الكتابة، فيه يقول الشاعر محمد ابن عبد العزيز العتبي[101]، عندما اعتلت صحته وهو يلي الكتابة:

لأينع العيُ مُذ أصبحتَ مرتدياً ثوب السقام وجفّت زهرةُ الكلَم
واستوحش الطرسُ من أنس البديع إذا نشبت فيه وطالت عُجمةُ القَلمِ[102]

كما كان أبو عثمان موصوفاً بالبلاغة وحبه للأدب، ومن شعره:

صدودٌ ليسَ يبلُغه عقابُ وعتبٌ ليسَ يثنيه عتابُ
وإبعادٌ - بلا ذنب - طويل وإعراضٌ وهجْرُ واجتنابُ
فلا سهر يطيبُ ولا رقادٌ ولا طعمُ يسوغُ ولا شرابُ
فجسمي ناحلٌ والجفنُ مني قريحٌ والفؤادُ له اضطرابُ
وموتٌ عاجل أحلى وأشهى إليَّ من أن يطاولني العذابُ

ومن المعروف أن كاتبنا هذا قلّ شأنه وأهمل بسبب تحامل بدر بن أحمد الصقلبي، وصيف الأمير عبد الله، عليه فاستأذن الأمير بالذهاب إلى الحج عام 293 هـ، فبعد أن أدى الفريضة رجع إلى قرطبة ولزم داره إلى أن مات خاملاً عام 296 هـ[103].

والثاني: هو الوزير القائد أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي عبدة[104]، الذي كان معروفاً بالاستقامة وحسن السيرة[105]، ومحباً للشعر والشعراء، إذ كان يعطف على الشاعر أحمد بن إبراهيم بن قلزم، ويحمل عنه مؤونة الذهاب إلى الحرب (لأن هذا الشاعر كان جندياً في الديوان وعليه فرض الجهاد)، لذلك أكثر هذا الشاعر في مدح هذا القائد المشهور[106].

القسم الرابع

دور أسرة أبي عبدة العسكري

لهذه الأسرة دور عسكري بارز في عصر الإمارة، ونظراً لأهمية هذا الدور قسّمناه إلى قسمين:

الأول: دور الأسرة في قمع الفتن الداخلية وحركات التمرد.

الثاني: دور الأسرة الجهادي في محاربة الممالك الأسبانية والنورمان.

أولاً - دور الأسرة في قمع الفتن الداخلية وحركات التمرد:

واجه الأمير عبد الرحمن الداخل عدة حركات تمرد، وبخاصة في منطقة غربي الأندلس، فاستعان ببعض أفراد هذه الأسرة من أجل القضاء عليها. وقد ذكرنا في موضوع ولاية الأقاليم (دور الأسرة الإداري) أن الأمير الداخل استعان بوزيره حسان بن مالك (أبو عبدة) في قمع فتن الغرب بعد أن عيّنه والياً على أشبيلية وأصبح لأفراد هذه الأسرة في الغرب ثقل إداري وعسكري يخشاه زعماء الفتن هناك. وبرز دور الأسرة في قمع الفتن الداخلية على عهد الأمير عبد الله، واشتهر من أفراد هذه الأسرة أربعة أشخاص، كانوا وزراء الأمير وهم: أبو عثمان عبيد الله بن محمد، وسلمة بن علي بن أبي عبدة، وعبد الرحمن بن حمدون بن أبي عبدة، والوزير القائد أبو العباس.

1 - دور أبي عثمان عبيد الله بن محمد:

عهد إليه الأمير عبد الله ولاية جيان عام 275 هـ كما ذكرنا، وذلك من أجل التصدي لحركة سعيد بن خنجر المتمرد في حصن (جريشة) في كورة جيان، وعاونه في هذا التمرد بعض زعماء المولدين والنصارى في المنطقة، فدارت رحى الحرب بين الطرفين، وكان لأبي عثمان دور بارز فيها وهو الذي حقق الانتصار على المتمردين وهزمهم وقتل ما يقارب خمسة وسبعين رجلاً منهم[107]. وورث الأمير عبد الله تمرد عمر بن حفصون الخطير، الذي بدأ أمره منذ عهد الأمير محمد (238 - 273 هـ) واستمر في عهد الأمير المنذر (273 - 275 هـ) ومات هذا الأمير وهو محاصر له، وقوي أمر عمر بن حفصون بعد وفاة الأمير المنذر، واستولى على

المناطق المجاورة له مثل كورة البيرة وكوريه ريه، ولم يبقَ بينه وبين قرطبة إلاّ مسافة قصيرة، وتحصن في قلعة بلاي المنيعة يشن منها الغارات [108]. وازداد خطره في عهد الأمير عبد الله (275 - 300 هـ) الذي استقبل إمارته بتمرد معظم كور الأندلس ما عدا قرطبة، ولهذا نراه يقود جيشه في عام 277 هـ ويفتح حصن بلاي، ويحاصر مدينة استجه واستنزل منها بعض رجال عمر بن حفصون، ثم سار إلى محاصرة يبشير الحصن الحصين لعمر بن حفصون [109].

واشتد تمرد عمر بن حفصون بتعاونه مع زعماء التمرد في أشبيلية وهم: إبراهيم بن حجاج (توفي عام 298 هـ) [110]، وكريب بن عثمان بن خلدون الذي اتخذ قرية البلاط في جبل الشرف (من جبال أشبيلية) [111] مقراً له، وتعاون كريب بن عثمان مع زعماء التمرد في شذونة وليله، وحاول ولاة أشبيلية إصلاح أمورها ففشلوا، مما دعى الأمر أن يرسل الأمير عبد الله ولده محمد إلى أشبيلية لمعالجة الأمور المضطربة ومعه حاجبه أبو عثمان عبيد الله بن محمد، ولم يفلح الأمير محمد في معالجة الأمور فكتب إلى والده يستشيره ويطلب منه العون، فشاور الأمير عبد الله وزراءه الذين أشاروا عليه بقتل (محمد بن غالب) من أهل مدينة استجه، وكان سبباً من أسباب الفتنة، ودبرت له مكيدة قضت عليه. ونتيجة لهذا الأمر ازدادت الفتنة التي تزعمها (محمد بن خطاب بن انجلين) وحزبه من الموالي والمولدين المتعصبين لمحمد بن غالب وعمت الفتنة مدينة أشبيلية، فتحصن الأمير محمد ورجاله في قصر المدينة، إلاّ أن المتمردين تمكنوا من دخول القصر بحيلة وعبثوا فيه، وحمى الأمير محمد جماعة من رجاله وأعوانه وخلصوه من الخطر. فلما علم الأمير عبد الله بكل هذه الأمور كتب إلى ولده بالرجوع إلى قرطبة، ومعه حاجبه أبو عثمان. واستمرت حركة التمرد في أشبيلية، فأرسل الأمير عبد الله الجيوش لها بقيادة عمه هشام بن عبد الرحمن الأوسط لمعالجة الأمور وعززها بقوات إضافية قادها الأمير المطرف بن الأمير عبد الله، فأفلحت جيوش الإمارة في القضاء على المتمردين وأخذت بعضهم أسرى ورهائن إلى قرطبة [112]، ومن أجل معالجة خطر عمر بن حفصون، أشار بعض وزراء الأمير عبد الله عليه بإطلاق سراح الأسرى، وهم زعماء في كورهم، حتى لا يستولي عمر بن حفصون على حصونهم. فأطلق سراحهم بعد أن أخذ منهم الرهائن، واستحلف كلاً منهم خمسين يميناً بعدم

التمرد مرة أخرى ففعلوا، إلاّ أنهم تمردوا مرة أخرى بعد أن وصلوا إلى حصونهم ناكثين أيمانهم، فعمل الأمير عبد الله على زرع التفرقة بينهم أولاً، ومحاربتهم بعد ذلك ثانياً، وتولى هذه المهمة وزيره وكاتبه أبو عثمان عبيد الله. فكان من نتيجة هذه الخطة أن وثب إبراهيم بن حجاج على زميله كريب بن عثمان وأخيه خالد فقتلهما، وانفرد بحكم أشبيلية، وكتب إلى الأمير عبد الله بذلك ويطلب الولاية على المدينة، فأجيب إلى ذلك [113]. وفي عام 278 هـ اشتد خطر عمر بن حفصون، الذي تعاون مع أمراء الأغالبة في تونس من أجل إسقاط الإمارة الأموية، وبدأ يكتسح المدن والحصون حتى وصل إلى محلة شقندة المقابلة لقرطبة، فقرر الأمير عبد الله الخروج بنفسه لمحاربته على الرغم من اعتراض وزرائه على ذلك، فسار الأمير بجيشه ملاحقاً عمر بن حفصون حتى نزل على نهر (الفوشكه) على نحو ميلين من حصن بلاي ومعه قواده، وفي مقدمتهم أبو عثمان عبيد الله وعبد الملك بن عبد الله ابن أمية، وعندما تصدى عمر بن حفصون لجيش الإمارة، برز إليه القائد عبد الملك واتبع خطة عسكرية يأمل بها النصر، فاعترض القائد أبو عثمان على هذه الخطة، فوضع خطة عسكرية جديدة وافق عليها الأمير عبد الله، وكانت سبباً في انتصار جيش الإمارة وانهزم عمر بن حفصون ولجأ إلى حصنه المنيع (بلاي)، وغنم جيش الإمارة آلات وأمتعة عمر بن حفصون، الذي هرب بعد ذلك إلى أرشذونة ومنها إلى قاعدته الحصينة ببشتر، وعندما دخلت جيوش الأمير حصن بلاى استمات على ما فيه، وبعدها سار الأمير عبد الله إلى مدينة استجه وحاصرها فطلبت الأمان، ثم سار إلى ببشتر لمحاصرة عمر بن حفصون الذي ضيّق عليه الخناق بتدمير عدة حصون وقرى مجاورة لببشتر، وفي هذه المرحلة رأى الأمير عبد الله تثاقل أصحابه ومللهم في مواصلة القتال، فقرر الأمير العودة فانتهز عمر ابن حفصون هذا الأمر فقطع الطريق على الأمير وجيشه، بسيطرته على ممرات ضيّقة لا تتسع إلاّ لاثنين أو ثلاثة، وبادر رجاله برمي السهام على جيش الأمير، فلما رأى القائد أبو عثمان عبيد الله هذا الأمر، انتخب مجموعة من رجاله الشجعان وهجم على معسكر عمر بن حفصون وألحق به الهزيمة، وطاردته جيوش الإمارة وقتلت جماعة كثيرة من أتباعه، وسقط آخرون من أعلى قمم الجبال إلى الوديان السحيقة، وبذلك خسر عمر بن حفصون ما يقارب الخمسمائة رجل من رجاله، فكان ذلك نصراً للأمير عبد الله في

هذه الغزوة التي سميت بـ (غزوة بلاي)، وكانت كذلك دليلاً على شجاعة أبي عثمان الذي أصبح اسمه على كل الألسنة التي لهدجت حمداً ببطولاته وكان سبباً لهذا النصر، وبعدها أكرمه الأمير عبد الله ورفعه إلى خطة الوزارة [114].

2 - دور الوزير سلمة (سلم) بن علي بن أبي عبدة وعبد الرحمن بن حمدون بن أبي عبدة (دميم):

مما يؤسف له أن المصادر لم تسعفنا بمعلومات عن دورهما في قمع الفتن الداخلية، ما عدا الإشارة العابرة التي ذكرها ابن عذاري: " وقاد بالصوائف سلمة بن علي بن أبي عبدة وعبد الرحمن بن حمدون بن أبي عبدة " [115]. والمقصود بالصوائف هنا الحملات العسكرية التي تخرج صيفاً إلى مركز المتمردين، ولعلنا نستطيع الاستنتاج من هذا النص أن هذين الوزيرين قاما بدور مهم في قمع بعض حركات التمرد الكثيرة في عصر الأمير عبد الله، ولكن على العموم كان دورهما أقل بكثير من دور (أبو عثمان) ودور (أبو العباس).

3 - دور أبي العباس أحمد بن محمد بن أبي عبدة الوزير القائد:

تميز هذا القائد بشخصيته العسكرية الجيدة، وقد استطاع أن يقاوم معظم حركات التمرد على عهد الأمير عبد الله بالرغم من كثرتها، واعتمد في ذلك بالدرجة الأولى على نخبة مختارة من رجاله يبلغ تعدادهم ثلاثمائة فارس يعتمد عليهم في هذه الحروب، من مجموع جيشه الذي أكثر فيه الرجال وشجعان أهل الثغور، وابتاع العبيد حتى بلغ عدده خمسة آلاف فارس عدا الرجالة (المشاة) [116]. ولما كان عصر الأمير عبد الله (275 - 330 هـ) مليئة بحركات التمرد [117]، عهد هذا الأمير إلى خيرة قواده مهمة القضاء عليها، وكان في مقدمتهم القائد أبو العباس. وكانت أخطر الفتن حركة عمر بن حفصون الموروثة، ومما زاد في خطورتها، تعاون زعيمهما مع بعض زعماء حركات التمرد مما أربك الإمارة وجيوشها، لكن الوزير الثالث أبي العباس كان لها بالمرصاد.

ففي بداية عهد الأمير عبد الله تعاون عمر بن حفصون مع سعيد بن هذيل المتمرد في (حصن [*]) في كورة جيان، ومع سعيد بن وليد بن مستنة المتمرد في كورة باغو (باغة)، وشنّوا الغارات على مدينة جيان وعاثوا فيها فساداً، فتصدت لهم

جيوش الإمارة بقيادة أبي العباس وحاصرتهم في (حصن جدريشة) المجاور فهزمتهم [118].

وفي عام 284 هـ كانت غزوة الجزيرة (جمادي الآخرة إلى شعبان) التي قادها الأمير أبان بن الأمير عبد الله ومعه القائد أبو العباس، لاسترجاع مدينة استجه التي سيطر عليها عمر بن حفصون. فبعد أن استرجعت هذه المدينة، سارت الجيوش إلى جزيرة طريف والجزيرة الخضراء تخضع القرعة والحصون، فتصدى لها عمر بن حفصون، وتبادلا النصر والهزيمة، وكان النصر في النهاية لجيش الإمارة الذي تعقب العصاة الذين لاذوا بالمناطق الوعرة المجاورة، وبعدها سار الجيش صوب ببشتر حصن عمر بن حفصون ومنها إلى تدمير. وبعدها رجع جيش الإمارة إلى مدينة أرشذونة المتمردة فحاصرها، فطلب أهلها الصلح. ثم تابع سيره إلى البيرة ومنها إلى غرناطة، وبعدها اتجه صوب ببشتر فحاصرها ثلاثة أيام، ثم رجع الجيش إلى قرطبة [119].

وفي عام 268 هـ اعتنق عمر بن حفصون الدين المسيحي، فانشق عنه بعض أتباعه وحاربوه بشدة، ورأى المسلمون في قتاله نوعاً من الجهاد، فانتهز الأمير عبد الله هذا الحدث، وأرسل إليه الجيوش بقيادة أبي العباس الذي ألحق بالمنتصر خسائر كبيرة [120].

وفي عام 289 هـ تعاون عمر بن حفصون وإبراهيم بن حجاج وسعيد بن وليد بن مستنة والفونسو الثالث ملك ليون [121]، وقرروا في البداية القضاء على القائد أبي العباس الذي كان مرابطاً خلف وادي شنيل في حور بنّه واستبه (جنوبي استجه) [122]، لكيب يتسنى لهم المسير إلى قرطبة والسيطرة عليها بكل سهولة. وعارض هذه الخطة (فجيل بن أبي مسلم الشذوني) قائد خيل إبراهيم بن حجاج، وحذر رؤساءه من هذا العمل، وبيّن لهم قوة وبأس القائد أبي العباس ورجاله، إلاّ أن عمر بن حفصون أصر على مهاجمة القائد. وفي البداية وقعت الهزيمة في جيش الإمارة، وجمع العصاة في نصر أكبر، فأرسلوا يطلبون المدد لمعاودة الهجوم، على الرغم من اعتراض (القائد فجيل) وباغتوا معسكر أبي العباس، فتنبه للخطر أحد قواده المدعو عبد الواحد الروطي [123]، فأسرع الرجال إلى سلاحهم وتصدوا للعصاة وألحقوا بهم هزيمة منكرة، وقد قدّر عدد القتلى فيها بألف وخمسمائة

رجل، واستطاع بعد ذلك الأمير عبد الله أن يفرّق بين إبراهيم بن حجاج وبين عمر بن حفصون، ويركن إبراهيم إلى الطاعة، فتنفست قرطبة الصعداء بانفتاح طريق أشبيلية أمامها [124].

وخرجت غزوة ريه (جمادي الآخرة إلى رمضان) عام 291 هـ بقيادة الأمير أبان والقائد أبي العباس إلى ببشتر قاعدة عمر بن حفصون، وتبادل الطرفان النصر والهزيمة، وأوقع عمر بن حفصون بجيش الإمارة خسارة كبيرة بعد أن استدرجه إلى كمين، إلاّ أن القائد أبا العباس قام بهجوم مضاد وأوقع بهم الهزيمة، واعتصم عمر بن حفصون ورجاله بالأراضي الوعرة المجاورة. وشدد جيش الإمارة الحصار على مدينة ببشتر والحصون والقرى المجاورة لها، وكان هذا الجيش بتعرض باستمرار إلى هجوم عمر بن حفصون الخاطف له. فكان له القائد أبو العباس بالمرصاد، وبعدها سار الجيش إلى لوشة فاعترضه أهل طرش فقاتلهم القائد أبو العباس حتى هزمهم وقتل منهم (أخوزيني/ باخي زيني) من أشهر فرسان عمر بن حفصون، ورمى حصونهم بالمنجنيق ثم سار الجيش إلى (مسانة) من قرى قبره ومنها رجع إلى قرطبة [125].

وخلال عامي 295 هـ و 296 هـ قاد الصائفة إلى ببشتر حصن عمر بن حفصون الأمير ابان ومعه القائد أبو العباس، فأنزلت جيوش الإمارة الخسائر الكبيرة في قرى وحصون العصاة [126]. وتكرر خروج الصوائف إلى حصون عمر بن حفصون، ففي عام 297 هـ قاد الصائفة الأمير أبو أمية العاصي ابن الأمير عبد الله ومعه القائد أبو العباس، وحاصروا (حصن بلدة) من حصون عمر بن حفصون، فهزموا العصاة، إلاّ أن رجال عمر بن حفصون قاموا بهجوم عنيف مضاد على جيش الإمارة قرب ببشتر، فوقعت خسائر كبيرة بين الطرفين، واستمرت حالة الحرب على هذه الشاكلة عدة أيام، بعد أن خسر عمر بن حفصون خيرة رجاله وهرب الآخرون. وبعدها سار جيش الإمارة إلى البيرة وغرناطة واستنزل العصاة من حصن (شبيلش) وحصن (جلياته)، ثم سار إلى (بجانة) ومنها إلى جيان راجعاً إلى قرطبة، وفي نفس العام (297 هـ) تحالف عمر بن حفصون مع سعيد بن وليد بن مستنة وسعيد بن هذيل، وشنّوا غاراتهم حتى وصلوا إلى جيان فعاثوا فيها فساداً فتصدى لهم القائد أبو العباس وأوقع فيهم الخسائر الكبيرة بعد أن تحصنوا في حصن (جريشة) [127].

وتكرر خروج الصوائف إلى ببشتر وغيرها من حصون العصاة، فاستنزلوا الكثير من المخالفين في حصون كورتي ريه والبيرة. وفي عام 299 هـ قاد الصائفة أيضاً الأمير أبان ومعه القائد عباس بن عبد العزيز، وأردفوا بجيش آخر يقوده أبو العباس، فقصدوا قلعة ببشتر قاعدة عمر بن حفصون فدمروا الكثير من حصونها [128].

وفي بداية عهد الأمير عبد الله تمرد عمر بن قضم الهترولي البربري المعروف بالملاحي (من قرية الملاحة في كورة جيان) [129] وعاثوا فساداً في مناطقهم، فأخرج إليهم الأمير عبد الله قائده أبا العباس الذي عمل على التفرقة بين المتمردين، إذ استجاب سعيد بن هذيل لدعوة القائد، فانفصل عن حليفه عمر بن قضم، وتعاون مع جيشِ الإمارة على محاربة صاحبه القديم، الذي لحقت به هزيمة منكرة، فطلب الأمان وأُخِذَ رهينة إلى قرطبة.

ويبدو لنا أن الأمير عبد الله أطلق سراح عمر بن قضم فيما بعد، بدليل أنه عاد إلى التمرد في عام 290 هـ في مدينة جيان، فسار إليه القائد أبو العباس وحاصره لمدة شهر، وجيء به أسيراً إلى قرطبة مرة أخرى [130].

وكذلك تمرد سعيد بن هذيل في بداية عهد الأمير عبد الله، وتعاون مع عمر بن مُضم، كما ذكرنا، ومع عمر بن حفصون ومع سعيد بن وليد بن مستنة، فتصدى لهذا الجمع القائد أبو العباس وقاتلهم في حصن (جريشة) المنيع وألحق بهم الخسائر، وتكرر خروج الجيش إلى حصون سعيد بن هذيل، ففي عام 283 هـ خرجت (غزوة تدمير) التي قادها الأمير هشام بن عبد الرحمن الأوسط ومعه القائد أبو العباس، فحاصرت حصن (قامرة جيش) على وادي بلون، التابع لسعيد بن هذيل، وهناك باغت سعيد بن هذيل جيش الإمارة بهجوم خاطف، فتصدى له القائد أبو العباس وأوقع به الخسائر، فطلب سعيد الأمان وأرسل والده إلى الأمير هشام، فأعطيت له المواثيق، وبعدها سار جيش الإمارة إلى حصن (اللقون) فاستنزل منه القائد أبو العباس اتباع سعيد بن هذيل وأسكنه العرب والبربر وحصنه [131].

وكرر سعيد بن هذيل تحالفه السابق عام 297 هـ، بعد أن رجع إلى التمرد، فشنوا الغارات على جيان وأتوا بغنائم إلى حصن (جريشة)، فلحق بهم القائد أبو العباس وحاصرهم، وأنزل بهم الخسائر الكبيرة. وفي الوقت نفسه سار القائد أبو العباس إلى جبل (أروس) في كورة قبره وبنى هناك الحصون مضايقاً على سعيد بن

هذيل [132]. واستمر سعيد بن هذيل في تمرده وتكررت عليه الصوائف بقيادة أبي العباس، فكان يهادن مرة ويتمرد مرة أخرى، إلى نهاية عصر الأمير عبد الله، ففي عام 299 هـ سار القائد أبو العباس إلى حصن (فنتتجا له) من حصون سعيد بن هذيل بالقرب من جبل المنتلون، فحاصره أشد الحصار حتى افتتح الحصن [133].

وسعيد بن وليد مستنة، تمرد في كورة باغة [134]، وحالف زعماء التمرد السابقين، وتصدى لهم القائد أبو العباس كما ذكرنا، عام 289 هـ، واستمر ابن مستنه في تمرد وتعاونه مع زعيم العصاة عمر بن حفصون بصورة خاصة ... ففي عام 296هـ بعد أن جالت جيوش الإمارة بقيادة الأمير أبان والقائد أبي العباس في ناحية ببشتر، سارت إلى (حصن لك) من حصون ابن مستنه فحاصرته حتى تم فتحه في أول محرم من عام 298 هـ، وقد امتدح الشعراء الأمير عبد الله بهذا النصر:

على من لحظة سفيان سلهما فكم بقاء أسير بين سيفين [135]

واستمر ابن مستنه على تحالفه مع عمر بن حفصون وسعيد بن هذيل، فهاجما جيان وسيطرا على أموال كثيرة منها، وتحصنا في حصن (جريشة) فتصدى لهما القائد أبو العباس وأنزل بهما الخسائر [136].

ومن زعماء التمرد في عصر الأمير عبد الله حريز بن هابل، وكان مركز تمرده في حصون (طشكر وبختويره) من أعمال جيان وفي بياسه، وقد كان هدف غزوة تدمير عالم 283هـ التي قادها الأمير هشام بن عبد الرحمن الأوسط والقائد أبو العباس القضاء على ثلاث حركات تمرد الأولى تزعمها سعيد بن هذيل في حصن (قامرة جيش) وقد ذكرناها، والثانية قادها حريز بن هابل هذا، الذي حاصره القائد أبو العباس حصاراً شديداً، فطلب حريز بن هابل الصلح، وأرسل ولده رهينة فأجيب إلى ذلك [137]، والثالثة قادها ديسم بن إسحاق وهو من فرسان عمر بن حفصون [138]، وكان مقر تمرده في لورقه ومرسيه [139]. وكان نجاح القائد أبي العباس في استنزال سعيد بن هذيل إلى الطاعة، قد هيئت له الظرف المناسب للتفرغ إلى قضية المتمرد ديسم بن إسحاق، حيث حاصرته جيوش الإمارة بقيادة أبي العباس، فحاصر القائد حصن (مانيه) أول حصون ديسم وهاجمه بعنف بعد أن فشلت المحاولات لإرجاعه إلى الطاعة، ثم سار إلى حصن (ركوط) وتبادل الطرفان النصر والهزيمة، ثم رحل القائد إلى مدينة مرسيه ومنها رحل إلى حصن (اليط) بعد

أن عانى جيش الإمارة من العطش الشديد، وبعدها أرسل القائد أبو العباس فرسانه إلى مدينة لورقة من أجل محاربة ديسم بن إسحاق، ولحقهم القائد بعد ذلك، فألحقوا في البداية هزيمة بالعصاة، إلاّ أن رجال دسم باغتوا قوات أبي العباس فهزموها، فخرج إليهم القائد أبو العباس مع حماة رجاله فأنزل بهم الخسائر الكبيرة، وبعد ذلك حاول ديسم التصدي لقوات الإمارة أثناء رجوعها إلى قرطبة فلم يفلح، فعندما طلب الطاعة والأمان أعطي له [140]. وتوفي ديسم بعد ذلك في مرسيه عام 293 هـ [141].

وفي جهة غربي الأندلس كان هناك ثلاثة متمردين في عصر الأمير عبد الله وهم:

الأول: إبراهيم بن حجاج بن عمير اللخمي [142] في أشبيلية، والذي خلق كثيراً من المشاكل لحكومة الإمارة وتعاون مع عمر بن حفصون مراراً، وكانت قرطبة تسترضيه بعدة أساليب من أجل جلبه إلى الطاعة.

الثاني: سليمان بن محمد الشذوني في شريش [143].

والثالث: ابن خصيب المتمرد في لبله [144].

فخرجت إليهم جيوش الإمارة بقيادة الأمير أبان والقائد أبو العباس في ربيع الأول من عام 284 هـ، وأول من تصدى لها صاحب شريش سليمان بن محمد وألحق بعض الخسائر بها، إلاّ أن القائد أبا العباس قاومه بشدة. واستمر بفتح الكثير من الحصون في هذه المنطقة، وبعدها سار الجيش إلى حصن (منت مور) التابع لابن خصيب، ودارت رحى الحرب هنالك، وضربه القائد بالمنجنيق، فأذعن القائد إلى الطاعة وعقد لهم الأمان في جمادي الأولى من عام 284 هـ، ثم سار الجيش إلى (لقنت) وفتح الكثير من الحصون واستنزل بعد أن عانى الأمرين من وعورة المنطقة وشدة البرد والأمطار الغزيرة، ولم يكمل هذا الجيش مهمته بهذه الناحية وإذ استدعته حكومة قرطبة للتصدي لحركة عمر بن حفصون الذي دخل مدينة استجه، فرجع مسرعاً في جمادي الآخرة من نفس العام [145].

وأفلح القائد أبو العباس في قتل طالب بن مودود الموروري عام 287 هـ وكان متمرداً في كورة مورور [146]، وفي نفس الوقت سار إلى كورة شذونة وحارب زعيم العصاة فيها ابن سليم [147]، وأنزل به الخسائر الكبيرة، ثم زحف إلى كورة ريه

لقمع مساور بن عبد الرحمن فيها، فجاس الجيش مواطن العصاة، وافتتح الكثير من حصونهم. واستمر مساور بن عبد الرحمن في تمرده [148]، وترددت إليه الحملات المتكررة، ففي عام 294 هـ خرجت إليه جيوش الإمارة بقيادة الأمير أبان والقائد أبي العباس، فأنزلت به الخسائر الكبيرة، فأذعن مساور للطاعة وأعطى رهائنه [149].

واستنزل القائد أبو العباس بني الخليع المتمردين على الأمير عبد الله في كورة تاركنا، في عام 293 هـ بعد أن حاصر حصنهم (حصن قنيط) وفتحه، وعيّن والياً عليه من قبل حكومة الإمارة [150].

4 - عباس وعيسى أولاد القائد أبو العباس أحمد بن أبي عبدة:

لهذين القائدين دور في قمع بعض حركات التمرد في عصر الأمير عبد الله، ويتمثل هذا الدور عموماً في:

أولاً: مشاركتهم لأبيهم القائد صاحب الدور العسكري الكبير في هذا العصر، ففي حملة الغرب عام 284 هـ التي قادها الأمير أبان والقائد أبو العباس من أجل إخضاع المتمردين في أشبيلية وشريش ولبله، كان عباس وعيسى (أكبر أولاد القائد) معه في هذه الحملة، وقد عانيا الأمرين من وعورة المنطقة وشدة البرد وغزارة الأمطار مع أبيهم [151].

ثانياً: وكان لهم دور منفرد في بعض الحملات:

أ - دور القائد عباس: وساهم القائد عباس ابن القائد في محاربة المتمرد سعيد بن هذيل بحصن المنتلون، فخرج إليه بصحبته طائفة من الجيش عام 299 هـ وحاصره بحصنه المنيع وانتصر عليه، بعد أن هربت جماعة من الطنجيين الذين كانوا مع القائد عباس إلى حصن المنتلون وتعاونوا مع سعيد بن هذيل [152].

ب - دور القائد عيسى: في صائفة 296 هـ التي قادها الأمير أبان والقائد أبو العباس إلى مدينة ببشتر، خرج القائد عيسى بقواته مهاجماً حصون سعيد بن وليد ابن مستنه [153].

في عام 298 هـ أقام القائد عيسى في جماعة من الفرسان بمدينة (جيانة)، فهاجم تجمع عمر بن حفصون وسعيد بن وليد بن مستنه في بسيط قبره وقرى قرطبة، والتقى بهما على (نهر ألبه) فدارت حرب شديدة بينهم، وانهزم فيها العصاة وقتل القائد عيسى الكثير من رجالهم [154].

وورث الأمير عبد الرحمن الناصر (300 - 316 هـ) من جده بلداً لا زال يعج بالكثير من حركات التمرد، على الرغم من الجهود الجبارة التي بذلها الأمير عبد الله وقائده المشهور أبو العباس.

وبقي لأسرة أبي عبدة نفس الدور العسكري في قمع حركات التمرد، وفي طليعة أفراد هذه الأسرة:

1 - القائد أبو العباس: كان للقائد أبي العباس دور بارز في إخماد الكثير من حركات التمرد في عصر الأمير عبد الله، واستنزل الكثير من زعمائها وأرجع بعضهم إلى الطاعة، إلاّ أنه لم يلعب نفس الدور في عصر الأمير عبد الرحمن الناصر، ونراه يخرج مرتين - كما تخبرنا بذلك الروايات - إلى مراكز العصاة فقط، ولعل مرد ذلك يعود إلى انصراف القائد أبي العباس لمجاهدة الممالك الأسبانية في الشمال، واستشهاده المبكر في عام 305 هـ.

فالمرة الأولى كانت في ربيع الآخر من عام 300 هـ، أي في فاتحة عهد الأمير الناصر، الذي أخرج قائده أبا العباس مع جنده إلى كورة قبره من أجل إخماد حركات التمرد فيها، وقد أبلى القائد بلاءً حسناً ونجح في مهمته هذه [155].

والمرة الثانية كانت في أواخر عام 301 هـ، ففيها هرب من قرطبة هابل بن حريز بن هابل مع ستة أشخاص من أعوانه إلى حصن (شنت اشتبين) وسيطر عليه وأعلن تمرده - بعد أن استنزل منه عام 300 هـ وجيء به إلى قرطبة - فأرسل إليه الأمير الناصر الجيش بقيادة أبي العباس فحاصره وشدد عليه الحرب فأسر مجموعة من رجاله وأتى بهم إلى قرطبة [156].

2 - عيسى ابن القائد أبو العباس: هاجم عمر بن حفصون مدينة أشبيلية عام 301 هـ فتصدى له عاملها سعيد بن المنذر القرشي وهزمه، وكتب هذا الوالي إلى الأمير عبد الرحمن الناصر بخبر النصر، فأرسل إليه وزيره عيسى بن أحمد بن محمد أبي عبدة قائداً للجيش إلى أشبيلية، فأدارها مع سعيد بن المنذر وأخضعا أهلها للطاعة [157]. وفي أواخر عام 301 هـ تمرد في مدينة قرمونة حبيب بن عمروس بن سوادة صاحب محمد بن إبراهيم بن حجاج - توفي إبراهيم بن حجاج عام 298 هـ وخلفه ابنه عبد الرحمن إلى سنة 301هـ، وكان أخوه محمد بمدينة قرمونة، فلما توفي عبد الرحمن جعل أهل أشبيلية الأمر لأحمد بن مسلمة من بني

حجاج في عام 302 هـ الذي أعلن الطاعة للناصر وبذلك انقطعت أيام بني حجاج [158] - خرج إليه الأمير الناصر وضيّق عليه، فطلب الأمان، ولما قرر الناصر العودة إلى قرطبة - بعد أن تجول في مناطق العصاة وأخضع الكثير منهم رمضان - ذي الحجة عام 301 هـ - عاد حبيب إلى التمرد، فأوعز الأمير الناصر إلى قائد جيشه في مدينة أشبيلية عيسى بن أحمد بالتضييق على حبيب بن عمروس ومواصلة حربه [159]. وفي محرم من عام 301 هـ قام الأمير عبد الرحمن الناصر بغزوة (أشتيبن) نسبة إلى حصن أشتيبن في كورة البيرة - فسار إلى كورة جيان وفتح في طريقه حصن المنتلون، ثم فتح بعض حصون كورة البيرة وهدم البعض الآخر، إلى أن وصل إلى حصن أشتيبن في ربيع الأول، فشدد عليه الحصار فامتنع عليه الحصن طويلاً، ولما قرر الناصر العودة إلى قرطبة في ربيع الثاني، عهد بمهمة مواصلة حصار الحصن إلى القائد عيسى بن أحمد وصاحب الشرطة درى بن عبد الرحمن اللذين واصلا الحصار بشدة إلى أن تم فتحه واستنزلا من كان فيه من المتمردين [160]. وفي صفر من عام 315 هـ سار الأمير الناصر بنفسه إلى مدينة ببشتر لمنازلة حفص بن عمر بن حفصون (توفي عمر عام 306 هـ) [161]. ، وخرج معه ولي عهده الحكم والوزير عيسى بن أحمد، وكانت هذه الحملة من العنف بحيث طلب حفص بن عمر الأمان في الأخير فأجيب له، وعهد الأمير الناصر إدارة مدينة ببشتر إلى عيسى بن أحمد وكلفه بإصلاح أمورها [162] ووافق الوزير القائد عيسى بن أحمد الأمير عبد الرحمن الناصر في غزوة عام 316هـ والتي استهدفت الإشراف على مدينة ببشتر وترتيب أمورها أولاً، ومن ثم القضاء على حركات التمرد في حصون (شنت بيطر) و (بمارس) في كورية ريه، وفي حصون تاكرنا وفغيلة، وفي جبال كورة شذونة ثانياً. وقد أفلح الأمير الناصر في هذه المهمة واستنزل العصاة منها، وألزم الكثير منهم السكنى في قرطبة، ويبدو لنا أن القائد عيسى بن أحمد الذي رافق الناصر كان له دور كبير في استنزال العصاة [163].

3 - عباس ابن القائد أبو العباس: القائد الشجاع الذي كلفه الأمير عبد الرحمن الناصر بمحاصرة حصن (منت روى) في كورة البيرة، وشدد الحصار على المتمردين وشنّ الغارات عليهم باستمرار، حتى قتل في يوم الأحد فاتح شهر ذي الحجة من عام 302 هـ، فتأثر الأمير الناصر لهذا الخطب الجلل وشارك قائده

أبا العباس أحزانه [164].

دور الأسرة الجهادي في محاربة الممالك الأسبانية والنورمان:

أ - دور الأسرة الجهادي في محاربة الممالك الأسبانية:

كانت الممالك الأسبانية المعاصرة لعهد الإمارة في الأندلس 138 - 316هـ ثلاث ممالك: مملكة ليون وقشتالة وعاصمتها ليون، ومملكة النافار وعاصمتها بنبلونه، ومملكة المارك الأسباني (الثغر القوطي) وعاصمتها برشلونة [165].

ودور الأسرة الجهادي هذا يتمثل في اشتراك أفرادها بحملات الإمارة العسكرية إلى مملكة ليون. ففي عام 251 هـ / 865 م أرسل الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط (238 - 273 هـ) جيشاً بقيادة ابنه المنذر ومعه الحاجب عيسى بن الحسن بن أبي عبدة إلى مملكة ليون، وتسمى هذه الغزوة باسم (غزوة ألبه والقلاع) أو غزوة (المركوين)، نسبةً إلى فج المركوير وهو هضبة تخترقها سلسلة من الجبال التي تشقها وديان عميقة، وتقع إلى الجنوب من بلدة (ميراندادل ابرو) على بعد (130كم) غربي مدينة بنبلونه، وسار الجيش الإسلامي بحذاء نهر الأبرو وفتح معظم حصون النبلاء وأكابر أمراء الأسبان في منطقة ألبه والقلاع. وحاول ملك ليون اردون الأول (236 - 252 هـ / 850 - 866 م) التصدي للجيش الإسلامي في فج المركوير الذي صرف سنوات طويلة في تحصينه، وسخّر شعبه لهذه المهمة، ولكن قائد الجيش الحاجب عيسى بن الحسن وضع خطة عسكرية محكمة، استطاع بها أن يدمر قوى الأعداء، وقتل أعداداً كبيرة منهم وأسر الآخرين، كما غرقت أعداد أخرى منهم في نهر الأبرو عند محاولتهم عبوره [166].

وفي عهد الأمير عبد الرحمن الناصر (300 - 316 هـ) أرسل أول حملة حربية إلى مملكة ليون عام 304 هـ / 916 م بقيادة وزيره أبو العباس أحمد بن محمد ابن أبي عبدة وذلك رداً لهجمات ملك ليون أردوم الثاني (301 - 316 هـ / 914 - 924 م) على الأراضي الإسلامية عالم 302 هـ / 914 م الذي دمّر الكثير من حصون وقلاع مقاطعة ماردة [167]. فسار القائد أبو العباس إلى أراضي مملكة ليون واستطاع هزيمة الأسبان في عدة معارك، وفتح الكثير من حصونهم وغنم ما فيها [168]. وفي عام 305 هـ / 917 م قام ملك ليون أردون الثاني بمهاجمة منطقة

طلبيرة انتقاماً للهزيمة التي لحقت به عام 304 هـ، فأحرق مدنها وأتلف زروعها، فضج المسلمون لهذا البلاء وحفزوا أميرهم على أن يرد هذا العدوان. فسير الأمير الناصر قائده أبا العباس أحمد إلى مملكة ليون في جيش كبير من الديوان والمتطوعة، وانضم إليهم كثير من المتطوعة في الطريق. فاخترق الجيش أراضي قشتاله وزحف إلى قلعة (شنت اشتيين) الواقعة على نهر التاجه، وكانت تسمى أيضا قلعة (قاشترو مورش / قلعة العرب)، وهي أمنع قلاع الإسبان على الحدود، فضرب القائد الحصار حولها ونازلها بشدة حتى كادت تسقط في يديه، لولا أن جاء لإنقاذها ملك ليون أردون الثاني مع جمع ضخم من الإسبان، ولأمر ما لم يصحب أبو القائد أبو العباس في هذه الغزوة كبار ضباطه المدربين على يديه، وأغلب الظن أن الأمير الناصر احتفظ بهؤلاء القادة من أجل القضاء على حركة عمر بن حفصون 3/4 وأولاده التي دوّخت عصر الإمارة وكلفته الكثير، ولهذا الجيش الإسلامي مع القائد في هذه الغزوة اكثره من المتطوعة، فلما بدأ ملك الإسبان بالهجوم على الجيش الإسلامي ارتدت جموع كبيرة أمامه، ودب الهرج والاضطراب في صفوة ولكن القائد أبا العباس فضّل الموت على الهزيمة، لأنه يؤمن بمبدأ " لا تراجع أبداً، والجندي إما أن ينتصر أو يستشهد في مكانه "، فثبت في مكانه مع نفر من أشجع ضباطه وجنده، فقتلوا جميعاً وهلك معهم عدة من أكابر الفقهاء المجاهدين وذلك في 14 ربيع الأول عام 305 هـ / 5 ديسمبر (أيلول) 1917 م، واستطاعت فلول الجيش الإسلامي الباقية أن تعود بعتادها ومتاعها سالمة إلى الأراضي الإسلامية، وشبهت هذه المغركة، بمعركة بلاط الشهداء عام 114 هـ لكثرة من قتل فيها من المسلمين مع قائدهم [169].

ب - دور الأسرة الجهادي في محاربة النورمان:

النورمان أو الفيكنج (سكان الخلجان وهم سكان البلاد الأسكندنافية [170]، وتسميتهم الرواية الإسلامية المجوس، لأنهم كانوا يكثرون من إشعال النار فظنّ المسلمون في الأندلس أنهم من عبدة النار كالفرس المجوس [171]. أغاروا على الأندلس أول مرة عام 229 هـ / 843 م على عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط (206 - 238 هـ) ولاقت فيها الأندلس الأمرين، وانتصرت عليهم بعد عناء طويل، وكان من نتائجها إرسال سفارة يحيى بن الحكم الغزال إلى بلادهم عام 231 -

232 هـ / 845 - 486 م)[172].

وعاد النورمان إلى مهاجمة الأندلس على عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط (238 - 273 هـ)، ففي عام 245 هـ / 859 م جاءوا بـ (80) مركباً[173]، وهاجموا سواحل الأندلس الغربية، فوجدوها محروسة بالسفن الحربية، وحاولوا اختراق نهر أشبيلية فلم يفلحوا، لأن الأمير محمد قد هيأ الجيوش وجمعها في غربي الأندلس لصد مثل هذه الهجمات، وعهد بقيادتها إلى الحاجب عيسى بن الحسن ابن أبي عبدة.

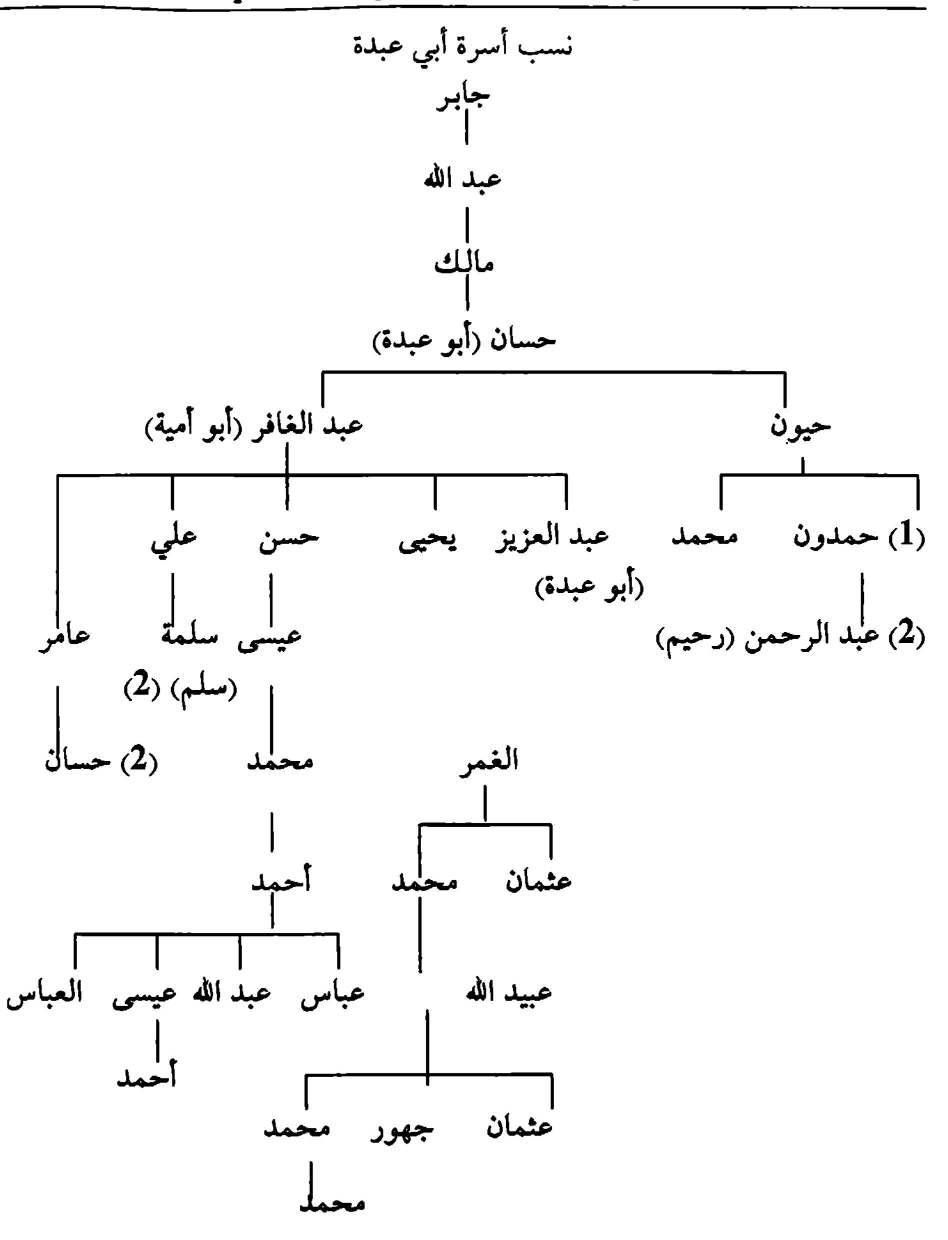
ويبدو لنا أن مقاومة الجيش وقائده لهذه الغارة كانت قوية لأن مراكب النورمان فشلت من دخول الوادي الكبير والوصول إلى مدينة أشبيلية [174]، فرجعت مراكبهم صوب الجزيرة الخضراء وأعملوا فيها الدمار وأحرقوا مسجد الرايات فيها [175]، ثم عبروا إلى عدوة المغرب واستباحوا أريافها [176]، ثم اتجهوا صوب الساحل الشرقي للأندلس وعاثوا فيها فساداً، وبعدها وصلوا إلى سواحل فرنسا الجنوبية وأمضوا فصل الشتاء هناك، ثم رجعوا إلى الجنوب بمحاذاة الساحل الشرقي للأندلس، وأثناء رجوع سفنهم هاجمتها الأساطيل الأندلسية عند مدينة شذونة وأسرت منها مركبين، وأحرقت مركبين آخرين، واستشهد جماعة من المسلمين [177]. ثم سارت مراكب النورمان شمالاً وهاجمت بنبلونه عاصمة النافار وأسرت ملكها غرسيه بين ونقه، فافتدى نفسه بالمال [178]. ثم ظهر النورمان مرة أخرى عام 247 هـ / 861 م قرب شواطئ الأندلس، لكنهم وجدوا السواحل قد حرست بالسفن الحربية، كما أن أمواج البحر دمرت لهم (14 مركباً)، ولم يظفروا بشيء ورجعوا إلى بلادهم [179].

لم يذكر ابن عذاري شيئاً عن هجوم النورمان عام 247 هـ، على الرغم من اتفاق ابن حيان والعذاري على هذا الخبر، ولكن الذي يبدو لنا أن ابن حيان بموجب رواية (معاوية بن هشام الشبانسي) يورد لنا تفاصيل هجوم النورمان عام 217 هـ بنفس الصيغة تقريباً التي أوردها عن هجومهم عام 245 هـ، مثل ذكره، أسر النورمان لغرسيه بن ونقه وكذلك ذكره قيادة الحاجب عيسى بن الحسن للجيش في هجوم عام 247 هـ [180].

وقد أشار ابن حيان إلى كل هذا في روايته لهجوم عام 245 هـ، ولم يشاركه

العذاري في تفاصيل هجوم عام 247 هـ، أي قيادة الحاجب عيسى بن الحسن للجيش وتصديه للنورمان، فربما اختلطت الرواية على ابن حيان [181].

ولكن يمكن الاستنتاج من كل هذا، بأن الأمير محمد استعان بنخبة من قادته لصد هجوم النورمان عام 247 هـ، وكان الحاجب عيسى بن الحسن أحدهم الذي تصدى للنورمان بجيوشه البرية بالتعاون الحربي، واستمرت الخلافة الأندلسية 316 - 422هـ تعتمد على أسرة أبي عبدة في المجال الإداري والعسكري، حتى كانت فتنة الطوائف وسقوط الخلافة الأندلسية، فاستقبل الوزير أبو الحزم جهور في قرطبة مقيماً دويلة بني جهور في عام 422 هـ / 1031 م، واستمرت هذه الدويلة إلى عام 462 هـ / 1070 م حيث أسقطها المعتمد بن عباد بعد سيطرته على قرطبة.



(1) لا ندري هل هو حيون بن عبد الغافر أو ابن حسان (أبو عبدة) ولكن يبدو أنه أبي حسان، كما تنص الرواية.

(2) لا نعرف بالتأكيد إلى أين يمتد نسبهم ولو أننا نميل إلى أنهم من ذرية عبد الغافر لبعد الزمن.

هوامش البحث:

---

(1) ينظر: لسان الدين بن محمد بن عبد الله بن الخطيب، أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق ليفي بروفنسال، (بيروت: 1965م)، ص 9؛ الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، (القاهرة: 1975): 4 / 468.

(2) أبو العباس أحمد بن محمد بن العذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: كولان وبرفنسال، (بيروت: د. ت): 2 / 59. وله لقب آخر باسم صقر بني أمية؛ ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة: 3 / 467.

(3) أحمد بن محمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، (بيروت: 1968): 4 / 333. عند فتح الأندلس خمس موسى بن نصير الأراضي التي فتحت عنوة، وهي على العموم جنوبي الوادي الكبير، فأخذ المسلمون أربعة أخماسه، وبقي الخمس ملكاً للدولة، وأطلقت الدولة فيه السبي يزرعونه للدولة ويؤدون من أمواله الثلث، وقد اعتبر هؤلاء زراع أرض الدولة وأطلق عليهم اسم الأخماس، وأولادهم أولاد الأخماس. ينظر: حسين مؤنس، فجر الأندلس (القاهرة: 1959)، ص 124؛ عبد الواحد ذنون، الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال أفريقيا والأندلس (ميلانو - بغداد: 1982)، ص 212.

(4) إبراهيم ياس الدوري، عبد الرحمن الداخل في الأندلس وسياسته الخارجية والداخلية، (بغداد: 1982)، ص 30.

(5) ابن منظور، لسان العرب " مادة أولى ".

(6) معركة مرج راهط: وقعت بين مروان بن الحكم ومعه اليمانية وبين الضحاك بن قيس الفهري ومعه القيسية، فانتصرت اليمانية فيها وثبتت هذه المعركة الخلافة الأموية في الفرع المرواني. ينظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد (القاهرة: 1962): 4 / 395 - 397؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، (بيروت: 1977): 4 / 149 - 151.

(7) الحلة السيراء، تحقيق: الدكتور حسين مؤنس، (القاهرة: 1963): 1 / 246.

(8) ينظر: محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: 1971): 5 / 535 - 540؛ تبن عبد ربه، العقد الفريد: 4 / 395 - 397؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ (بيروت: 1965): 4 / 149 - 151.

(9) الحلة السيراء: 1 / 246.

(10) المقري، نفح الطيب: 1 / 298.

(11) ينظر: محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة (بيروت: 1969)، خارطة الأنساب القحطانية.

(12) ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، تحقيق: الدكتور شوقي ضيف (القاهرة: 1964): 1 / 56؛ ينظر: ابن الأبار، الحلة السيراء: 1 / 245؛ الحميدي، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس (القاهرة: 1966)، ص 188 (رقم 308).

(13) ابن مروان بن حيان بن خلق القرطبي، المقتبس من أبناء أهل الأندلس، تحقيق: الدكتور محمود علي مكي، (بيروت: 1973): 2 / 79.

(14) ابن عذاري، البيان المغرب: 3 / 175 وبعدها.

(15) ابن الأبار، الحلة السيراء: 1 / 246.

=

(16) ينظر: فريدة الأنصاري، الأمارة الأموية في الأندلس على عهد الأمير عبد الرحمن الداخل، رسالة ماجستير مخطوطة (جامعة بغداد: 1976)، ص 17؛ إبراهيم ياس الدوري، عبد الرحمن الداخل في الأندلس، ص 29.
(17) ابن الأبار، الحلة السيراء: 1 / 246.
(18) حسين مؤنس، " أبو العباس أحمد بن أبي عبدة "، مجلة العربي، العدد 171 (الكويت: 1973)، ص 145.
(19) إبراهيم ياس الدوري، عبد الرحمن الداخل، ص 54: 3/4.
(20) غيطشة: آخر ملوك القوط بالأندلس الذي سيطر على ملكة لوذريق، وترك غيطشة ثلاثة أولاد هم: المند، ورملة، وأرطباس، وكان أرطباس من كبار الملاكين وكانت له ألف ضيعة 4 / 3 في وسط الأندلس، إضافة إلى ضياع أخيه المند في الأندلس والتي سيطر عليها بعد وفاته. ينظر: خليل إبراهيم السامرائي، الثغر الأعلى الأندلسي (بغداد: 1976)، ص 382 - 383.
Leviprovencal, Histoire de l'Espagne Musulmane, Vol: 1, C (Paris: 1953), P. 7.
(21) وهم بيت عربي غير البيت الذي ينتسب له أبو محمد بن حزم الظاهري، وهو فارسي الأصل. المقري، نفح الطيب: 1 / 291.
(22) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، (مدريد: 1898) / ص 28 - 30؛ المقري، نفح الطيب: 3 / 267 - 269.
(23) ينظر: عبد الواحد ذنون، الفتح والاستقرار العربي، ص 417.
(24) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 8 يسميه يحيى بن يحيى اليحصبي؛ شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، (غرناطة: 1917): 22 / 4. يسميه أبو صالح يحيى بن يحيى.
(25) ابن القوطية، افتتاح الأندلس، ص 22.
(26) ينظر: مؤلف مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، (مدريد: 1867)، ص 54 - 56؛ مؤلف مجهول، فتح الأندلس، نشر: كونثاليث، (الجزائر: 1889)، ص 40 : 4 / 1؛ إبراهيم ياس الدوري، عبد الرحمن الداخل، ص 37 - 38.
(27) ابن الخطيب، الإحاطة: 1 / 444.
(28) ابن الأبار، الحلة السيراء: 1 / 246.
(29) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص 21؛ مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص 67.
(30) عبد الواحد ذنون، الفتح والاستقرار، ص 418.
(31) إبراهيم بيضون، الدولة العربية في أسبانيا (1978)، ص 174.
(32) أحمد بدر، دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها، (دمشق: 1972): 1 / 78.
(33) ينظر: فريدة رؤوف الأنصاري، المارة الأموية، ص 53.
(34) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (بيروت: 1962)، ص 180.
(35) ابن الأبار، الحلة السيراء: 1 / 246.
(36) ينظر: ابن عذاري، البيان المغرب: 2 / 44؛ محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: الدكتور إحسان عباس (بيروت: 1975)، ص 518؛ عبد الرحمن الحجي، التاريخ الأندلسي، (دمشق: 1976)، ص 216.
(37) المقري، نفح الطيب: 3 / 31 - 32.
(38) أحمد بدر، دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها: 1 / 79.
(39) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص 76؛ وينظر: المقري، نفح الطيب: 3 / 31 - 32.
(40) الحلة السيراء: 1 / 246.

=

(41) ينظر: ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص 25؛ ابن الأثير، الكامل: 5 / 494؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 8؛ السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص 185؛ عبد الواحد ذنون، الفتح والاستقرار العربي، ص 426 - 428؛ إبراهيم ياس الدوري، عبد الرحمن الداخل، ص 52 - 53.

(42) تاريخ افتتاح الأندلس، ص 22.

(43) ينظر: ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص 19 - 20؛ محمد بن عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون، (بيروت: 1979): 119/4؛ محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، (القاهرة: 1969)، ص 125 - 126؛ حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص 222.

(44) عن هذه المعركة. ينظر: أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والأندلس، (بيروت: 1972)، ص 302 - 303؛ إبراهيم ياس الدوري، عبد الرحمن الداخل، ص 59 وبعدها.

(45) حسن إبراهيم حسن وآخر، النظم الإسلامية، (القاهرة: 1939)، ص 187.

(46) ينظر: محمد بن عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، (بيروت: 1978)، ص 240؛ ظافر القاسمي، نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي، (بيروت: 1982): 1 / 450 - 451.

(47) ابن الأبار، الحلة السيراء: 2 / 30.

(48) عنان، دولة الإسلام: 1 / 251.

(49) البيان المغرب: 2 / 93.

(50) ينظر: المقتبس: 2 / 25 - 29.

(51) أيضاً: 2 / 152 - 155؛ عنان، دولة الإسلام: 1 / 290.

(52) ابن الأبار، الحلة السيراء: 1 / 146 (هامش 1).

(53) ابن حيان، المقتبس في تاريخ رجال الأندلس، نشر: ملشور م. أنطونية، (باريس: 1937): 3 / 4.

(54) ينظر: : ابن خلدون، المقدمة، ص 239 - 240؛ ظافر القاسمي، نظام الحكم: 1 / 450؛ حسن إبراهيم حسن، النظم الإسلامية، ص 188؛ أحمد مختار العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، (الأسكندرية: 1968)، ص 144، 146.

(55) ينظر: ابن الأبار، الحلة السيراء: 1 /236 - 247 و 2/ 30؛ مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص 76 ؛ ابن عذاري، البيان المغرب: 2 / 48؛ إبراهيم ياس الدوري، عبد الرحمن الداخل، ص 236.

(56) ينظر: ابن عذاري، البيان المغرب: 2 / 80؛ أحمد مختار العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص 142 - 143.

(57) ابن حيان، المقتبس: 2 / 137؛ ابن الأبار، الحلة السيراء: 1 / 120 - 121.

(58) أيضاً، ص 58 - 86.

(59) عنان، دولة الإسلام: 1 / 290.

(60) ابن حيان، المقتبس: 2 / 137؛ ابن الأبار، الحلة السيراء: 1 / 120 - 121.

(61) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص 101.

(62) ينظر: ابن حيان، المقتبس: 3 / 5 - 6؛ ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص 194؛ ابن الأبار، الحلة السيراء: 1 / 146، 245، 247.

(63) ابن حيان، المقتبس: 2 / 169 - 197؛ ابن الأبار، الحلة السيراء: 1 / 120 - 121.

(64) ابن حيان، المقتبس، نشر. ب. شالميا، (مدريد: 1979): 5 / 97، 210، 215، 242؛ ابن عذاري، البيان المغرب: 2 / 158، 160، 164.

(65) ابن الأبار، الحلة السيراء: 1 / 246.

=

=

(66) ينظر: مؤلف مجهول، فتح الأندلس، ص 67؛ ابن خلدون، تاريخ: 4 / 135. وعن حركات التمرد هذه. ينظر: ابن الأبار، الحلة السيراء: 1 / 246 (هامش 3)؛ إبراهيم ياس الدوري، عبد الرحمن الداخل، ص 110، 112، 160، 236.

(67) ابن حيان، المقتبس: 3 / 68.

(68) تاريخ: 4 / 135 - 136.

(69) دولة الإسلام: 1 / 331.

(70) ابن حيان، المقتبس: 3 / 71 - 72.

(71) ينظر: ابن حيان، دولة الإسلام: 1 / 332.

(72) المقتبس: 4 / 68.

(73) ابن حيان، المقتبس: 3 / 51؛ ابن الأبار، الحلة السيراء: 1 / 146، 247.

(74) ابن حيان، المقتبس: 5 / 82.

(75) توفي عمر بن حفصون عام 306 هـ وخلفه أولاده في مواصلة التمرد وهم: جعفر عبد الرحمن وحفص، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 32 - 33.

(76) ابن حيان، المقتبس: 5 / 213.

(77) أيضاً، ص203؛ ابن الأبار، الحلة السيراء: 1 / 247.

(78) ينظر: ابن خلدون، المقدمة، ص 251 - 252.

(79) أيضاً، ص 251؛ أحمد بدر، دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها: 1 / 165.

(80) إبراهيم ياس الدوري، عبد الرحمن الداخل، ص 251.

(81) ابن عذاري، البيان المغرب: 2 / 61.

(82) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص 104؛ ابن الأبار، الحلة السيراء: 1 / 46.

(83) ينظر: ابن حيان، المقتبس: 5 / 97، 107، 210، 215؛ ابن عذاري، البيان المغرب: 2 / 159 - 160، 167، 193، 196 - 197.

(84) حسن إبراهيم حسن، النظم الإسلامية، ص 217.

(85) ابن خلدون، المقدمة، ص 246.

(86) ابن عذاري، البيان المغرب: 2 / 81؛ عنان، دولة الإسلام: 1 / 1 - 2.

(87) ينظر: ابن حيان: 455/2 (هامش 97)؛ ابن الأبار، الحلة السيراء: 247/1 (3/4)، 30/2.

(88) صبحي الصالح، النظم الإسلامية، (بيروت: 1978)، ص 312 - 313، 450.

(89) أحمد بدر، دراسات: 1 / 104.

(90) عنان، دولة الإسلام: 1 / 224.

(91) أحمد بدر، دراسات: 149 وبعدها، 164.

(92) ينظر: عنان، دولة الإسلام: 1 / 330، 333.

(93) ابن الأبار، الحلة السيراء: 1 / 252؛ ابن عذاري، البيان المغرب: 2 / 158، 167.

(94) ابن عذاري، البيان المغرب: 2 / 197.

(95) المقدمة، ص 246 وبعدها.

(96) حسن إبراهيم حسن وآخر، النظم الإسلامية، ص 181 - 183.

(97) صبحي الصالح، النظم الإسلامية، ص 304 - 305؛ حسن إبراهيم حسن وآخر، النظم الإسلامية، ص 180.

(98) ابن الأبار، الحلة السيراء: 1 / 146 - 147.

=

(99) أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، (دار الكاتب العربي: 1967)، ص 261 (رقم 265)؛ محمد بن فتوح بن عبد الله الحميدي، جذوة المقتبس (رقم 360)؛ ابن الأبار، الحلة السيراء: 1 / 247 وبعدها؛ المقري، نفح الطيب: 1 / 303 - 304.

(100) ابن حيان، المقتبس: 3 / 35 - 36.

(101) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب: 1 / 134.

(102) ابن الأبار، الحلة السيراء: 1 / 147.

(103) ينظر: ابن حيان، المقتبس: 3 / 6؛ ابن الأبار، الحلة السيراء: 1 / 146 - 147؛ ابن عذاري، البيان المغرب: 2 / 145.

(104) ابن عذاري، البيان المغرب: 2 / 152.

(105) ابن حيان، المقتبس: 2 / 197 - 198.

(106) ابن حيان، المقتبس: 3 / 47.

(107) أيضاً: 3 / 53.

(108) ابن الخطيب، الإحاطة: 4 / 38؛ أعمال الأعلام، ص 22 - 25.

(109) ابن الخطيب، أعمال الأعلام / ص 32.

(110) ينظر: أحمد بن عمر بن أنس العذري، نصوص عن الأندلس، تحقيق: الدكتور عبد العزيز الأهواني، (مدريد: 1912)، ص 103؛ ابن الأبار، الحلة السيراء: 2 / 376. وبعض المصادر تتفق على وفاته عام 288هـ، ابن عذاري، البيان المغرب: 129/2؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 35.

(111) ينظر: محمد بن أيوب بن غالب، فرحة الأنفس (نص أندلسي جديد) نشر: الدكتور لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، (القاهرة: 1955 - 1959): م 1 / ج 1 / 292 - 293.

(112) ينظر: ابن حيان، المقتبس: 3 / 69 - 71؛ 73 - 86، 79 - 83.

(113) أيضاً: 3 / 82 - 84.

(114) ينظر: ابن حيان، المقتبس: 3 / 94 - 97، ص 99 - 105؛ ابن عذاري، البيان المغرب: 2 / 132 - 133؛ ابن الخطيب، الإحاطة: 4 / 41.

(115) البيان المغرب: 2 / 152.

(116) ينظر: ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص 107 - 108؛ ابن حيان، المقتبس: 3/ 129.

(117) ينظر: ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 27.

(118) ابن حيان، المقتبس: 3 / 26 - 27.

(119) أيضاً: 3 / 120 - 122.

(120) أيضاً: 3 / 128؛ ابن عذاري، البيان المغرب: 2 / 139.

(121) عنان، دولة الإسلام: 1 / 333.

(122) ينظر: ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص 127.

(123) عبد الواحد الروطي: نسبة إلى حصن روطة بالثغر الأعلى، تمرد بين عامي 261 - 2171 هـ /875 .884 م، ثم رجع إلى الطاعة. ينظر: خليل إبراهيم السامرائي، الثغر الأعلى الأندلسي، ص 445 - 448.

(124) ينظر: ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص 109 - 111؛ ابن حيان، المقتبس: 3 / 129 - 131؛ ابن عذاري، البيان المنغرب: 2 / 129؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 35.

=

=

(125) ابن حيان، المقتبس: 3 / 140 - 141؛ ابن عذاري، البيان المغرب: 2 / 140 - 141.
(126) ابن حيان، المقتبس: 3 / 143؛ ابن عذاري، البيان المغرب: 2 / 143.
(127) أيضاً: 3 / 145 - 146؛ أيضاً: 2 / 145.
(128) أيضاً: 3 / 146 - 147، أيضاً: 2 / 147، 149.
(129) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 67.
(130) ينظر: ابن حيان، المقتبس: 25/3، 139؛ السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص256.
(131) ابن حيان، المقتبس: 3 / 26، 114 - 116.
(132) أيضاً: 3 / 145 - 146؛ ابن عذاري، البيان المغرب: 2 / 146.
(133) أيضاً: 3: 26، أيضاً: 2 / 149.
(134) ينظر: ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص27؛ السيد عبدالعزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص 253.
(135) ابن حيان، المقتبس: 3 / 143؛ ابن عذاري، البيان المغرب: 2 / 144.
(136) أيضاً: 3 / 145 - 146.
(137) ينظر أيضاً: 3، 27 - 29، 115.
(138) العذري، نصوص عن الأندلس، ص 11.
(139) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص 253.
(140) ينظر: ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص 108 - 109؛ ابن حيان، المقتبس: 3 / 117 - 118؛ ابن عذاري، البيان المغرب: 2 / 138.
(141) العذري، نصوص عن الأندلس، ص 12.
(142) ابن الأبار، الحلة السيراء: 2 / 376.
(143) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 27.
(144) ابن حيان، المقتبس: 3 / 119.
(145) أيضاً: 3: 120.
(146) ابن عذاري، البيان المغرب: 2 / 139.
(147) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 27.
(148) ابن حيان، المقتبس: 3 / 128.
(149) ينظر: ابن حيان، المقتبس: 3 / 142؛ ابن عذاري، البيان المغرب: 2 / 142 - 143.
(150) أيضاً: 3 / 142؛ أيضاً: 2 / 142.
(151) ابن حيان، المقتبس: 3 / 120.
(152) أيضاً: 3 / 147؛ ابن عذاري، البيان المغرب: 2 / 148.
(153) ابن عذاري، البيان المغرب: 2 / 144.
(154) أيضاً: 2 / 148.
(155) ابن حيان، المقتبس: 5 / 53؛ ابن عذاري، البيان المغرب: 2 / 159.
(156) أيضاً: 5 / 92.
(157) ابن حيان، المقتبس: 5 / 82؛ ابن عذاري، البيان المغرب: 2 / 165.
(158) ينظر: البكري، جغرافية الأندلس وأوربا، تحقيق: الدكتور عبد الرحمن الحجي، (بيروت: 1968)، ص 112 - 113؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 35؛
Levi – Provencal,Histoire, 2 p, 11.
(159) ابن حيان، المقتبس: 5 / 85 - 91.
(160) أيضاً: 5 / 199.
(161) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 32 - 33.

=

=

(162) ابن حيان، المقتبس: 5 / 213.

(163) ينظر: ابن عذاري، البيان المغرب: 2 / 193.

(164) ابن حيان، المقتبس: 5 / 107؛ ابن عذاري، البيان المغرب: 2 / 167.

(165) ينظر: خليل إبراهيم السامراي، الثغر الأعلى الأندلسي، ص 159، 193 وبعدها، 141.
Chapmen, A History of Spain (New – York, 1985), P: 56 – Hoyt, R. Europe in Middle Ages, (London: 1957), P: 130.

(166) ينظر: ابن حيان، المقتبس: 2 / 319 - 320؛ ابن عذاري، البيان المغرب: 2 / 98 - 99؛ النويري، نهاية الأرب: 22 / 55؛ ابن خلدون، تاريخ: 4 / 284؛ ابن الأثير، الكامل: 5 / 329؛ خليل إبراهيم السامرائي، الثغر الأعلى الأندلسي، ص 215 - 216.

(167) ابن خلدون، تاريخ: 4 / 307.

(168) ابن حيان، المقتبس: 5 / 127؛ ابن عذاري، البيان المغرب: 2/ 169؛ عنان، دولة الإسلام: 2 / 394.

(169) تنظر التفاصيل: ابن حيان، المقتبس: 5 / 135 - 136؛ مؤلف مجهول، قطعة من تاريخ عبد الرحمن الناصر، نشر: ليفي بروفنسال وآخر، (مدريد: 1950)، ص 52، 54؛ ابن عذاري، البيان المغرب: 2 / 170 - 171؛ مؤنس " القائد أبو العباس "، ص 148؛ عبد الكريم التواتي، مأساة انهيار الوجود العربي بالأندلس، (الدار البيضاء: 1967)، ص566؛ عنان، دولة الإسلام: 2 / 394 - 395؛ خليل إبراهيم السامرائي، الثغر الأعلى الأندلسي، ص 222.

(170) عبد القادر اليوسف، العصور الوسطى الأوربية، (بيروت: 1967)، ص 111.

(171) ابن حيان، المقتبس: 2 / 307؛ خليل إبراهيم السامرائي، الثغر الأعلى الأندلسي، ص 269.

(172) حسين مؤنس، غارات النورمانديين على الأندلس، (القاهرة: 1949)، ص 52؛
E. I – Hajji, A. A.
Andalusian Diplomatic Relations with Western Europe during the Umayyad Period, (Beirut: 1970), P: 171 – 181.

(173) العذري، نصوص عن الأندلس، ص 118.

(174) ابن حيان، المقتبس: 2 / 308؛ العذري، نصوص عن الأندلس، ص 118.

(175) العذري، نصوص عن الأندلس، ص 119؛ الحميري، الروض المعطار، ص 223.

(176) ابن الخطيب، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، تحقيق: الدكتور أحمد مختار العبادي وآخر، (الدار البيضاء: 1964)، ص 173 - 174.

(177) ابن حيان، المقتبس: 2 / 308 - 309؛ العذري، نصوص عن الأندلس، ص 119؛ ابن عذاري، البيان المغرب: 2 / 197؛ ابن الأثير، الكامل: 7 / 90؛ النويري، نهاية الأرب: 22 / 54.

(178) ينظر: ، خليل إبراهيم السامرائي، الثغر الأعلى الأندلسي، ص 280 - 281.

(179) ابن حيان، المقتبس: 2 / 311؛ العذري، نصوص عن الأندلس، ص 119.

(180) المقتبس: 2 / 311 - 312.

(181) أيضاً: 2 / 603 (هامش 510).

إمارة نكور (بنو صالح الحميري في المغرب العربي)

نهاية القرن الأول - بداية القرن الخامس الهجري

أصل الإمارة وتأسيسها:

ترجع أصول الأسرة المؤسسة لإمارة " نكور " إلى رجل يمني من " حمير " [1]. كان من أوائل الذين ساهموا في الفتح العربي لبلاد المغرب، اسمه صالح بن منصور الحميري، المعروف بـ " العبد الصالح " [2]، الذي نزل مدينة " تمسامان " [3]، التي كانت تعرف بـ " مرسى البقر " [4]. وقد افتتح أرض " نكور " قبل بنائها، وأقام فيها بعد أن أقطعها له الخليفة الوليد بن عبد الملك [5]، وأسلم على يديه عدد كبير من سكان المنطقة من قبيلتي " صنهاجة " و " غمارة "، ونصبوه حاكماً عليهم، لكن الكثير منهم ارتدوا عن الإسلام لحداثة عهدهم به، وعدم معرفتهم لتعاليمه، وطردوا صالح بن منصور الحميري، وعيّنوا حاكماً عليهم من " نفرة " يدعى داود، ويعرف بـ " الرندي " إلاّ أنهم سرعان ما ثابوا إلى رشدهم وعادوا للإسلام ثانية، وقتلوا " الرندي " وأعادوا صالح بن منصور الحميري، وبقي فيهم حتى وفاته، حيث دفن هناك وصار قبره يعرف بقبر" العبد الصالح " [6]، وقد خلفه من بعده أبناؤه وأحفاده في حكم هذه المنطقة.

الموطن:

قامت إمارة نكور شرق إقليم " غمارة "، الذي كان يشغل الجناح الغربي من سلسلة جبال الريف الممتد بين بادس [7] شرقاً، وطنجة غرباً [8]، أي بين نهر نكور من الناحية الشرقية وبلاد الهبط من الناحية الغربية [9]. وكانت مدينة نكور العاصمة من أهم مدن الإمارة، وهي مدينة كبيرة تقع في شمال شرق المغرب، في منطقة الريف المغربي، ممتدة بين نهرين أحدهما يعرف بـ " نكور" أو " نكرو " وبه سميت، والثاني نهر " ورغة " ويسمى أيضاً بـ " نهر غيس "، محصنة بسور من اللبن، ولها مرسى ترسي فيه المراكب يعرف بـ " المزهة "، وتميزت بكثرة عماراتها وقراها[10].

وينسب إلى إمارة نكور عدد من المراسي، منها مرسى مدينة " بادس "، ومرسى " ملوية " و "هرك " و " كرط " ومرسى " الدار" و" افتيس " من مراسي" تمسامان " [11].

تطورات الأوضاع الداخلية:

تولى الإمارة بعد وفاة مؤسسها صالح بن منصور الحميري، ابنه المعتصم، الذي لم يدم حكمه طويلاً حيث توفي [12]، وخلفه في الحكم ابن أخيه الأمير سعيد بن إدريس، الذي واجه تمرد البرانس الذين ثاروا في جميع أنحاء الإمارة، وخلعوا طاعتهم للأمير، وقدّموا على أنفسهم رجلاً يدعى " سكن " حيث تصدى لهم وقضى على تمردهم بعد أن قتل زعيمهم، ثم عاد من بقي منهم إلى سلطة الإمارة [13].

وبعد هيمنة الأمير سعيد بن إدريس على زمام الأمور، واستقرار أوضاع الإمارة قام ببناء مدينة نكور سنة 123 هـ / 740 م [14]. ، لتصبح مركزاً لإمارة بني صالح.

وتولى الإمارة من بعده ابنه صالح بن سعيد الذي واجه عدة تمردات، منها تمرد قبيلة " مكناسة " التي امتنعت عن دفع الضرائب، فكتب إليهم يتوعدهم بالقصاص منهم، مما دفعهم في نهاية الأمر إلى الإذعان لطاعته، وطلب الاستعفاء منه، وتلبية أوامره [15]، ولكن أخطر ما واجه حكم صالح بن سعيد هو تمرد شقيقه إدريس، حيث التقى الطرفان في معركة انهزم فيها الأمير صالح بن سعيد، وتفرقت جموع قواته أمام قوات شقيقه الذي استمر في زحفه لاحتلال مدينة نكور، لكن أهالي المدينة تصدوا للمتمردين وأوقفوا زحفهم، حتى تمكن الأمير صالح بن سعيد من دخول المدينة في جوف الليل بمعاونة خاصته، فألقى القبض على شقيقه إدريس وسجنه وفرق قواته، ثم أمر بقتله على يد أحد فتيانه يدعى " عسلون " [16].

وجاء إلى حكم الإمارة من بعده ابنه سعيد بن صالح، أصغر أولاده، وقد واجه في بداية حكمه تمرد الصقالبة [17]، بسبب رفضه طلبهم بأن يقاسمهم الغنائم، مما زاد في إلحاحهم عليه، ولمّا لم يستجب لهم ناله منهم جفاء شديد انتهى بالتمرد عليه، وخلع طاعته، وولوا عليهم شقيقه عبيد الله وعمه الرضي المكنى بـ " أبي علي "، وزحفوا إلى قصر الأمير، فتصدى لهم سعيد بمن كان معه من حرسه،

يسانده أهالي المدينة، حتى تمكن من هزيمتهم وإخراجهم من المدينة [18]، لكنهم استطاعوا التحصن في إحدى القرى المعروفة بقلعة الصقالبة، فحاصرهم هناك لمدة سبعة أيام، حتى انهارت مقاومتهم، فقتل منهم من قتل واستسلم الآخرون [19]، وألقى القبض على شقيقه عبيد الله وعمه الرضي، ثم قام بنفي شقيقه إلى المشرق في مكة المكرمة حيث توفي هناك، وأبقى على عمه الرضي لعلاقة صهر بينهما، في حين قام بقتل سائر من ظفر بهم من أبناء عمومته وقرابته الذين شاركوا شقيقه وعمه في تمردهم ومنهم أولاد عمه الأغلب وأبو الأغلب [20]، الأمر الذي أثار غضب واستنكار سعادة الله بن هارون، ابن عم الأغلب على الأمير سعيد بن صالح، حيث قال: " قتل ابن عمي وأبقى عمه وأخاه" [21]، وألّب عليه " بني يصليتين " وعقد تحالف معهم دون علم الأمير سعيد بن صالح، وكانت الخطة التي وضعها سعادة الله بن هارون تقضي بأن يتقدم المتمردون إلى مدينة نكور، ثم ينسحب سعادة الله بقواته إلى جانب المتمردين ضد سعيد بن صالح، وقد نفّذ خطته بنجاح حيث انهزم سعيد أمام قوات المتمردين، وقتل من جنده نحو الألف رجل، وحاصر المتردون سعيد في نكور، لكنه استطاع أن يتصدى لهم ويهزمهم في نهاية المطاف، وتمكن من أسر " ميمون بن هارون " شقيق سعادة الله وقتله، أما سعادة الله فقد هرب إلى تمسامان، وقام سعيد بحرق وتخريب دياره، مما حمل سعادة الله إلى طلب الصلح، فأجابه سعيد إلى طلبه وأنزله معه مدينة نكور [22].

وقضى الأمير سعيد بقواته وبمعاونة سعادة الله له على تمرد بعض قبائل السكان المحليين، وبذلك توطد الأمر له وهدأت الأوضاع، وعاد بقواته إلى عاصمته نكور [23].

ولكن الأوضاع عادت إلى التدهور من جديد نتيجة رفض الأمير سعيد دعوة زعيم الدولة الفاطمية عبد الله المهدي له للدخول في طاعته، التي أدت إلى نشوب الحرب بين الطرفين، وانتهت بهزيمة الأمير سعيد ومقتله، وهرب أفراد عائلته إلى الأندلس، ووقوع مدينة نكور بأيدي الفاطميين [24]، ولكن بني صالح سرعان ما تمكنوا بعد فترة وجيزة من طرد الفاطميين، وإعادة نكور إلى حوزتهم، بمساعدة السكان المحللين لهم، وبايعوا صالح بن سعيد أميراً عليهم، الذي حكم الإمارة قرابة العشرين عاماً حتى وفاته [25].

وتولى السلطة من بعده ابن عمه المؤيد بن عبد البديع بن صالح بن سعيد الذي قتل على يد موسى بن أبي العافية [26] أمير مكناسة، الذي حاصر بقواته العاصمة نكور واقتحمها ونهب خيراتها وهدم أسوارها وديارها ثم تركها في سنة 317هـ/929م [27].

وجاء إلى حكم الإمارة الأمير أبو أيوب إسماعيل بن عبد الملك الذي قام بإعادة بناء مدينة نكور وتحصينها من جديد [28]، لكن الأوضاع لم تستمر على هدوئها واستقرارها، فقد تعرضت الإمارة لهجوم جديد من قبل الفاطميين سنة 323 هـ / 934 م قتل على أثره الأمير إسماعيل، وقضي على معظم قواته، وتمت السيطرة على نكور [29]، لكن سيطرة الفاطميين على نكور لم تدم طويلاً أيضاً بسبب مقاومة أهل نكور وقتلهم لعامل الفاطميين عليها وجميع من كان معه، ومبايعتهم موسى بن المعتصم بن صالح بن منصور المعروف بـ " ابن الرومي " أميراً عليهم [30].

وقد ثار على ابن الرومي أحد أبناء عمومته المدعو عبد السميع بن جرثم.. بن صالح بن منصور سنة 324 هـ / 935 م وتغلب عليه وأخرجه عن نكور، فالتجأ ابن الرومي بأهله وأبناء عمومته إلى الأندلس [31]، ثم انتفض أهل نكور على عبد السميع وقتلوه، واستدعوا ابن مالقة جرثم بن أحمد بن إدريس بن صالح وبايعوه أميراً عليهم سنة 330هـ /941م، الذي استقامت له الأمور حتى وفاته سنة 360هـ /971م [32].

وتوارث السلطة بعده أولاده حتى قضي على ملكهم بتغلب قبيلة " ازداجة " عليهم، وزحف أميرها " يعلى بن أبي الفتوح الأزداجي " على نكور وإخراج بني جرثم منها سنة 410 هـ / 1019 م [33].

العلاقة بين إمارة نكور والدولة الأموية في الأندلس:

اتسمت العلاقة بين إمارة نكور والدولة الأموية في الأندلس بكونها علاقة طيبة، قائمة على أساس التعاون والتحالف بينهما، فقد اهتم الأمراء الأمويون ببلاد المغرب العربي، وبشكل خاص الخليفة عبد الرحمن الناصر (300 - 350 هـ/912-962م) الذي أدرك طبيعة الأهداف التوسعية للدولة الفاطمية في السيطرة التامة على بلاد المغرب العربي، والاستحواذ على ما تمتلكه من مزايا اقتصادية وموقع جغرافي مهم، لاسيما المغرب الأقصى الذي لا يفصله عن بلاد الأندلس إلاّ مضيق جبل

طارق، وازدياد هذه المخاطر فيما لو نجح الفاطميون في الهيمنة على المسلك الغربي لتجارة الذهب وتحويله نحو الشرق، وعزل الأندلس عن التجارة المغربية. ومن هنا نلاحظ بأن الدولة الأموية في الأندلس ناصرت جميع حركات المعارضة في المغرب العربي ضد الفاطميين، من الذين يرفضون الخنوع والتبعية للحاكم الفاطمي الذي كان يحاول بسط نفوذه وسيطرته عليهم، واتبعت سياسة مهادنة واصطناع رؤساء القبائل المغربية، ومحالفة أمراء بعض الدويلات القائمة في المغرب العربي، مثل دولة الأدراسة وإمارة نكور " بني صالح " [34].

وقد تلقت إمارة نكور الدعم المادي والسياسي من الدولة الأموية في الأندلس، ولا سيما في الظروف الصعبة والحرجة التي مرّت بالإمارة، وتمثل هذا الدعم في العديد من المواقف والمشاهد. ففي سنة 244 هـ / 858 م، قام الأمير الأموي محمد بن عبد الرحمن الأوسط (238 - 273 هـ / 852 - 886 م) بافتداء الأميرتين الأسيرتين " خنعولة " و " أمة الرحمن " من بنات واقف بن المعتصم بن صالح، اللتين وقعتا في يد النورمانديين أثناء هجومهم على مدينة نكور [35].

كما تشير رواية ابن عذاري أنه لمّا خرجت مراكب النورمانديين للمرة الثانية سنة 245هـ / 859 م للتعرض على سواحل المغرب وجدوا البحر محروساً، والسفن في حالة تعبئة وتأهب على طول السواحل العربية للأندلس، وسواحل المغرب الأقصى، ومن هذا يبدو بأن الأسطول الأندلسي في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن كان يقظاً لا يغفل عن حراسة شواطئ المغرب [36].

وعندما تغلب الفاطميون على بني صالح ودخلوا عاصمتهم نكور سنة 305 هـ / 917م، وقتلوا أميرهم سعيد بن صالح وعدداً كبيراً من أفراد بيته، انهزم من نجا منهم إلى الأندلس، ونزلوا في مدينة " مالقة " [37] و " بجاية " [38]، وقد رحّب بهم الخليفة عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله وأمر بإكرامهم وأغدق عليهم العطايا، وخيّرهم بين البقاء في " مالقة " أو المقام في العاصمة قرطبة، ففضلوا البقاء في " مالقة " لقربها من مملكتهم، وليتسنى لهم مراقبة تطورات الأحداث واغتنام الفرصة لإعادة ملكهم وانتزاعه من أيدي الفاطميين. ولقد تسنى لبني صالح فتح نكور ثانية، وكتب الأمير صالح بن سعيد إلى الخليفة عبد الرحمن بن محمد يخبره بما تمّ له من نصر على أعدائه، فقرأ الخبر على منبر

المسجد الجامع بقرطبة، وأرسلت نسخ منه إلى كافة أقاليم الأندلس، وأمر بإرسال الهدايا والتحف والألبسة وأنواع الأسلحة والأسرجة والطبول لتعويضهم ما خسروه في حربهم ضد الفاطميين [39].

وعندما دخل الفاطميون نكور ثانيةً سنة 323 هـ / 934 م واستطاع أهلها مقاومتهم وقتل عاملهم " مرمازو " ومن كان معه، أرسلوا بأخبار النصر وبرأس " مرمازو " إلى الخليفة الأندلسي عبد الرحمن بن محمد [40].

وكانت الأندلس أيضاً ملجأً سياسياً لأفراد بيت بني صالح في حالة حدوث خصومات وصراعات وتمردات فيما بينهم، ففي سنة 324 هـ / 935 م، ثار على أمير نكور المسمى بـ " ابن الرومي " أبناء عمومته، فهرب مع أفراد عائلته وخاصته إلى الأندلس، ونزلوا في مدينة بجاية ومالقة [41].

كما عبر أبناء أمراء نكور إلى الأندلس من أجل المشاركة في القتال ضد المتمردين والثائرين على سلطة الخلافة في الأندلس، فقد خرج سعيد بن منصور الملقب " عبد الرحمن الشهيد " أحد أبناء الأمير سعيد بن إدريس بحملة عسكرية ضد المتمرد ابن حفصون، واستطاع أن يقطع عليه الطريق ويقتل كل من كان معه [42]، ثمّ شارك في إحدى غزوات الوزير القائد أبي العباس أحمد بن محمد بن أبي عبدة [43] ضد ابن حفصون واستشهد فيها [44].

العلاقة بين إمارة نكور والدولة الفاطمية:

جاءت علاقة إمارة نكور العدائية مع الدولة الفاطمية انعكاساً للعلاقة الطيبة بينها وبين الدولة الأموية في الأندلس عدوة الدولة الفاطمية من جهة، ورغبة الفاطميين في التوسع على حساب هذه الإمارة من جهة أخرى، فقد تعرض بنو صالح لأكثر من مرة إلى هجوم الفاطميين على إمارتهم، والاستيلاء على عاصمتهم نكور، فبعد أن وطّد عبيد الله المهدي جبهته الداخلية، وأتمّ سيطرته على المغرب الأدنى والأوسط قام بإرسال كتاب إلى أمير نكور سعيد بن صالح يدعوه فيه إلى الدخول في طاعته، ويهدده بأبيات شعرية:

فإن تستقيموا استقم بصلاحكم ... وإن تعدلوا عني أرى قتلكم عدلا
وأعلوا بسيفي قاهراً لسيوفكم ... وأدخلها عنواً وأملؤها قتلا

وقد رفض أمير نكور الإذعان له، وردّ عليه بمثلها:

كـذبت وبـيت الله لا تحـسن العــدلا ولا علـم الـرحمن مـن قـولك الفـضلا
فمـــا كـــنت إلاّ جاهـــل ومـــنافق تمـثل للجهــال فــي الــسنة المثلــى
وهمتـــنا العلـــيا لـــدين محمـــد وقد جعل الرحمن همتك السفلى[45]

وما أن قـرأ عبيد الله المهـدي هـذه الأبـيات حتـى أمـر قائـده " مـصالة بـن حبوس " [46] والي تاهرت بتجهيز حملة عسكرية وذلك في سنة 304 هـ / 916 م، والتوجه نحو نكور، فخرج مصالة ونزل في موقع على بعد مسيرة 15 كم من مدينة نكـور، وخرج إليه سعيد بن صالح بجنده، وحاربه لثلاثة أيام، كان القتال فيها سجالاً بين الطرفين، وقد كـان مع سعيد رجلاً من كبار البربر يقال له أحمد بن العباس من بني يطوفت الـذي قام بمحاولة جريئة للوصول إلى مقر " مصالة " وقتله في سبعة من الجند، لكن محاولته باءت بالفشل، وألقي القبض عليه، وأمر " مصالة " بقتله، لكنه عفا عنه بعد أن اطمأن إلى خيانته لسعيد بن صالح، واستعان به في كشف ثغرات معسكره، فدخل أحمد بن العباس في قلّة من جند " مصالة " على مضارب جيش سعيد الـذي فوجئ بخيانته، وعمـل على إربـاك جنده وتفريق جمعهم، مما اضطره للانسحاب إلى مدينة نكور، وإخراج كل من كان في قصره، وتوجهوا إلى جزيرة في مرسى نكـور ومعهـم أولاده، صـالح وإدريس والمعتصم، وقاتـل سعيد بجنده وفتيانه وخاصته، لكنه لم يستطع الصمود وقتل في المعركة وشتت عسكره، وأرسـل " مصالة " برأسـه ورؤوس من قتل من قومه إلى المهدي، وطوّف بها في القيروان، وتمكـن " مـصالة " مـن دخـول مدينة نكـور سنة 305 هـ / 917 م، وقتل رجالهـا وأطفالهـا وسبى نسائها [47]، وفـرّ مـن نجـا مـن ذريـة سـعيد بـن صـالح إلـى الأندلس [48].

وقد مكث " مصالة " بمدينة نكور ما يقرب الستة أشهر، ثم قفل راجعاً إلى تاهرت[49]، بعد أن ولى عليها أحد رجاله المدعو " ذلول " الـذي سرعان ما انفض أعوانه من حوله، وبقي في قلّة من أصحابه، فتسرب الخبر لأولاد سعيد بن صالح في " مالقة " فعزموا على العبور إلى بلدهم والقضاء على " ذلـول " وأتباعه، وقـد اتفق الأخوة الثلاث صالح وإدريس والمعتصم على عبور البحر بمراكب متفرقة وبوقت واحد، ومن يصل نكور أولاً تكون الولاية له، وقد وصل صالح من ليلته أولاً، فاجـتمع الـسكان المحلـيون حـوله وبايعـوه سـنة 305 هـ / 917 م، ولقـبوه

بـ " اليتيم " لصغر سنّه، وزحفوا إلى " ذلول " وقواته وقضوا عليهم جميعاً [50].

وكانت الحملة الفاطمية الثانية على نكور سنة 323 هـ / 934 م في عهد الأمير أبي أيوب إسماعيل بن سعيد بن إدريس بن صالح، حيث أمر الخليفة الفاطمي " القائم أبو القاسم " قائده " صندل " [51] بتجهيز حملة عسكرية والتوجه نحو نكور، فخرج " صندل " من المهدية وكتب إلى إسماعيل بن سعيد يأمره بالقدوم إليه وتقديم طاعته وولاءه للخليفة الفاطمي، فأحس الأمير إسماعيل بالخطر القادم نحوه، فترك نكور وتوجه إلى قلعة بالقرب منها تدعى " أكري "، ثم أرسل إلى " صندل " يعلمه أنه في طاعة الخليفة الفاطمي، لكن " صندل " لم يرضَ بذلك، وأرسل رسلاً تخبره بضرورة حضوره أمامه، لكن ردّ الأمير إسماعيل كان بقتله جميع رسله، مما أدى إلى تصعيد غضب " صندل " وإسراعه في الزحف إلى قلعة " اكري " ومحاصرة الأمير إسماعيل وجنده، ثم دار قتال بين الجانبين استمر ثمانية أيام كانت نتيجته انتصار " صندل " ومقتل الأمير إسماعيل وعدد كبير من جنده، والاستيلاء على كل من كان في القلعة حتى أولاد إسماعيل ونسائه وقرابته [52]، ثم ولى " صندل " على نكور رجلاً من قبيلة "كتانة " يدعى " مرمازوا "، ولكن ما أن انسحب " صندل " عن نكور حتى قصدها موسى بن علي بن المعتصم بن صالح المعروف بـ " ابن الرومي " فبايعه أهل نكور وقتلوا " مرمازوا " وجنده [53]، وبذلك استطاع بنو صالح استعادة إمارتهم ثانية من أيدي الفاطميين.

الغزو النورماندي لإمارة نكور:

هاجم النورماند [54] بأساطيلهم بعض جهات سواحل المغرب الأقصى ومنها مدينة نكور في سنة 244 هـ / 858 م، وتمكنوا من دخولها ونهبها وسبي من كان فيها، إلاّ من استطاع الهرب، ثم تركوا المدينة بعد بقائهم فيها مدة ثمانية أيام [55].

دور إمارة نكور في نشر الإسلام واللغة العربية:

كان الهدف الأول للعرب المسلمين في عملية تحرير بلاد المغرب العربي هو نشر الإسلام وإعلاء كلمة التوحيد لله ﷻ، ومن هنا يتوضح دور وجهود مؤسس هذه الإمارة صالح بن منصور، والأمراء الذين جاءوا من بعده في نشرهم للإسلام وتعريب المنطقة، فقد أسلم على يد صالح بن منصور سكان الريف من

"صنهاجة " و " غمارة " وامتثلوا لأمره ولكن يبدو أن إسلامهم في البداية كان ضعيفاً لأنهم سرعان ما ارتدوا عنه وانتفضوا على صالح بن منصور وأخرجوه من بينهم، وانتخبوا رجلاً من قبيلة " نفرة " يسمى داود ويعرف بـ " الوندي " كما أسلفنا. ولكنهم سرعان ما عادوا إلى الإسلام ثانية وردوا صالحاً إليهم [56]، فقد أثرت شخصية صالح ودعوته في نفوسهم، إذ رأوا فيه خير من يمثل الإسلام ومبادئه السمحاء، حتى لقب من قبلهم بالعبد الصالح [57].

وقد عُرِفَ العديد من قادة وأمراء نكور بتقواهم وتمسكهم الشديد بالدين الإسلامي وتطبيقهم لتعاليمه ومبادئه، مما جعلهم قدوة حسنة، وشّجع الكثير من سكان المنطقة على الدخول في الإسلام [58].

كما انتشرت اللغة العربية جنباً إلى جنب مع انتشار الإسلام، فهي لغة الدين وقرآنه، وكان اقبال سكان بلاد الريف على اعتناق الإسلام يعني اقبالهم على تعلم اللغة العربية واتقان أصولها ومفرداتها وقواعدها التي تعد الأساس في فهم الدين الإسلامي وترسيخ مبادئه وتعاليمه في نفوسهم.

وكان أيضاً لإستقرار بني صالح في بلاد نكور واختلاط سكانه بهم ومصاهرتهم لهم أثره الكبير في تعريبهم.

وبذلك يلاحظ بأن الأسباب التي أدت إلى انتشار الإسلام هي الأسباب نفسها التي أدت إلى تعريب المنطقة وانتشار اللغة العربية بين سكانها.

سقوط إمارة نكور:

جاء سقوط هذه الإمارة وانقراض ملك " بني صالح " التي استمرت ثلاثة قرون وربع القرن على يد " يعلى بن أبي الفتوح الأزداجي " أمير قبيلة " ازداجه " إحدى القبائل الريفية سنة 410 هـ / 1019 م [59] الذي استغل وهن الإمارة وضعفها وتدهور أوضاعها الداخلية بسبب النزاعات والخلافات على السلطة ومعتمداً في ذلك أيضاً على كثرة عدد أفراد قبيلته [60]، فقد استطاع السيطرة على مدينة نكور التي لم تستطع الصمود طويلاً أمام قواته واستولى عليها [61]، وأخرج " بني صالح " وعمومتهم " بني جرثم " من المدينة ومن كافة أنحاء بلاد نكور [62]، وقتل من بقي منهم [63].

وبذلك انتهى دور هذه الإمارة في هذه المنطقة التي استمرت طيلة هذه

القرون رغم المشاكل والمعوقات الصعبة التي واجهتها داخلياً والمتمثلة بكثرة الثورات والتمردات وتنازع أفراد البيت الحاكم على السلطة، إضافة إلى المخاطر الخارجية التي واجهتها والمتمثلة بالغزو النورماندي، والخطر الفاطمي الذي اجتاح الإمارة مرتين، إلاّ أنها استطاعت الصمود والبقاء لفترة طويلة من الزمن، وممارسة دورها السياسي والحضاري في المغرب العربي.

ولعل العامل الأساس الذي ساعدها على ذلك هو دعمها وإسنادها ضد أعدائها على كافة الأصعدة السياسية والعسكرية والمالية. . من قبل الدولة الأموية في الأندلس التي التقت مصالحها بمصالح هذه الإمارة فارتبط الطرفان بعلاقة تعاون وتحالف.

هوامش البحث:

(1) اليعقوبي، أحمد بن يعقوب بن جعفر، البلدان، منشور مع كتاب الأعلاق النفيسة، تحقيق: دي غويه (ليدن: 1892)، ص357. " وأضاف بأن هناك من يزعم أنه (نفري)؛ البكري، أبو عبيد، المغرب في ذكر بلاد المغرب أفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، نشر: دي سلان (الجزائر: 1857)، ص 91؛ ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبيد الله محمد التلمساني، أعمال الأعلام، القسم الثالث، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، تحقيق: أحمد مختار العبادي، ومحمد إبراهيم الكتاني (الدار البيضاء: 1964)، ص 171؛ ابن خلدون، عبد الرحمن، العبر وديوان المبتدأ والخبر (بيروت: 1071): 6 / 212؛ الزركلي، خيرالدين، الأعلام، الأعلام (بيروت: 1969): 3 / 283.

(2) البكري، المصدر السابق، ص 92؛ ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج. س. كولان، وليفي بروفنسال (ليدن: 1984): 1 / 176؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 6 / 212.

(3) البكري، المصدر السابق، ص 91؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 1 / 176. وتمسامان: مدينة في شمال المغرب بناحية الريف، تقع بالقرب من مدينة نكور، وقد أطلق البكري هذه التسمية على قبيلة ونهر ومرسى. انظر: المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، ص 90 - 91، المكناسي، أحمد، المدن المندرسة في شمال المغرب (تطوان: 1959)، ص 154.

(4) البكري، المصدر السابق، ص 91؛ الزركلي، المصدر السابق: 3 / 283.

(5) ابن خلدون، المصدر السابق: 6 / 212.

(6) البكري، المصدر السابق، ص 93؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 1 / 177.

(7) بادس: مدينة متحضرة تكثر فيها الأسواق والصناعات، وهي آخر بلاد غمارة، والمسافة بينها وبين مدينة نكور قرابة العشرون ميلاً. انظر: الإدريسي، أبو عبد الله محمد، المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق، تحقيق: محمد حاج صادق (بلجيكا: بلا زمان)، ص 188 - 189.

(8) طنجة: مدينة كبيرة وقديمة، بناؤها من الحجر، تقع على ساحل البحر المتوسط، المقابل لساحل عدوة الأندلس، وقد كانت مقراً لحكام المغرب من البيزنطيين، وغيرهم من الأمم السالفة. انظر: ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي، صورة الأرض (بيروت: 1979)، ص 80؛ البكري، المصدر السابق، ص 108؛ الحميري، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: 1975)، ص 396.

(9) العافية، عبد القادر، الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون وأحوازها خلال القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي (بلا مكان: 1984)، ص 17، 24، 25. وبلاد الهبط: تشمل إقليم طنجة، وأصيلا، والعرائش، والقصر الكبير. انظر: المرجع نفسه، ص 17.

=

=

(10) ابن حوقل، المصدر السابق، ص 79؛ البكري، المصدر السابق، ص 90 - 91؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 6 / 212؛ الحميري، المصدر السابق، ص 576، 577؛ المكناسي، المرجع السابق، ص 4.

(11) البكري، المصدر السابق، ص 90؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 6 / 212.

(12) البكري، المصدر السابق، ص 92.

(13) المصدر نفسه، ص 91؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 1/ 176؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 6 / 212 (حيث يضيف قيام قبيلة غمارة بتمرد مماثل لتمرد البرانس).

(14) البكري، المصدر السابق، ص 92؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 1 / 176؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 6 / 212؛ أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبري، تحقيق: عبد الكريم الفيلالي (المحمدية: 1967)، ص 79 (ويذكر أن بناء المدينة كان سنة 80 هـ على يد إدريس بن صالح الحميري، ويبدو أنه قد توهم في ذلك).

(15) البكري، المصدر السابق، ص 90؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 1 / 176؛ ابن الخطيب، المصدر السابق، ص 172؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 6 / 212.

(16) البكري، المصدر السابق، ص 92 - 93؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 1 / 177.

(17) البكري، المصدر السابق، ص 93، وقد ورد ما يشابه هنا النص عند ابن عذاري: 1 / 177.

(18) البكري، المصدر السابق، ص 93؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 1 / 177.

(19) البكري، المصدر السابق، ص 93؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 1 / 178؛ ابن الخطيب، المصدر السابق: ص 175.

(20) البكري، المصدر السابق، ص 93 - 94؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 1 / 178 (حيث يذكر أن الأمير سعيد حبس أخاه عبيد الله وعمه الرضي)؛ أما ابن خلدون فيذكر: (أن عبيد الله أخ الأمير سعيد قد هرب بنفسه إلى المشرق) العبر: 6 / 212 - 213.

(21) البكري، المصدر السابق، ص 94؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 1 / 178.

(22) البكري، المصدر السابق، ص 94؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 1 / 178؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 6 / 213.

(23) البكري، المصدر السابق، ص 94؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 1 / 178؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 6 / 212.

(24) البكري، المصدر السابق، ص 96 - 97؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 181/1؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 6 / 213 - 214 (وسوف نشير إلى ذلك بالتفصيل عند التحدث عن العلاقة بين إمارة نكور والدولة الفاطمية).

(25) البكري، المصدر السابق، ص 96 - 97؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 1 / 180؛ ابن الخطيب، المصدر السابق، ص 177؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 6 / 212 - 214 (ويذكر أن صالح بن سعيد توفي بعد ملك دام عشر سنوات).

=

=

(26) موسى بن أبي العافية: بن أبي نائل بن أبي الضحاك بن أبي نزول من قبيلة مكناسة، وكان موسى يترأس مكناسة بمشاركة قريبة مصالة بن حبوس قبل انضمام الأخير إلى القواطم في أواخر القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي. انظر: ابن خلدون، المصدر السابق: 6 / 130 - 134.

(27) البكري، المصدر السابق، ص 97؛ ابن الخطيب، المصدر السابق، ص 177 (ويذكر بأن هدم مدينة نكور كان سنة 339 هـ / 950 م؛ ابن أبي زرع أبو الحسن الفاسي، الروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ فاس (الرباط: 1972)، ص 84 - 85 (ويذكر بأن هدم المدينة تم سنة 320 هـ / 932 م)؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 6 / 213.

(28) البكري، المصدر السابق، ص 97 - 98؛ ابن الخطيب، المصدر السابق، ص 78 (ويذكر ان بناء المدينة كان سنة 343 هـ / 954 م)؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 6 / 213.

(29) البكري، المصدر السابق، ص 98؛ ابن الخطيب، المصدر السابق، ص 177؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 6 / 213 - 214 (وسوف نشير إلى هذا الهجوم بالتفصيل عند التحدث عن العلاقة بين نكور والفاطميين).

(30) البكري، المصدر السابق، ص 98؛ ابن الخطيب، المصدر السابق، ص 178؛ ابن خلدون المصدر السابق: 6 / 214.

(31) البكري، المصدر السابق، ص 98 - 99؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 6 / 214 (ويذكر بأن ثورة عبد السميع علي بن الرومي كانت سنة 329 هـ / 940 م).

(32) البكري، المصدر السابق، ص 99؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 6 / 214 (ويذكر بأن مبايعة جرثم بن أحمد تمت سنة 336 هـ / 947 م).

(33) البكري، المصدر السابق، ص 99؛ ابن الخطيب، المصدر السابق، ص 179؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 6 / 214.

(34) الجنحاني، الحبيب، دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي (بيروت: 1986)، ص 165؛ الفيلالي، عبد العزيز، العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب، (الجزائر: 1982)، س 139 - 140؛ العبادي، أحمد مختار، في تاريخ المغرب والأندلس (الأسكندرية: بلا)، ص 212.

(35) البكري، المصدر السابق، ص 94.

(36) البيان المغرب: 1 / 96؛ الفيلالي، المرجع السابق، ص 110 - 111.

(37) **مالقة**: إحدى المدن الأندلسية الساحلية الواقعة على شاطئ البحر المتوسط والمشهورة بكثرة عماراتها وممارسة سكانها للتجارة. انظر: الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان (بيروت: 1957): 5 / 43.

(38) **بجانة**: مدينة بالأندلس من أعمال كورة البيرة، قريبة من مدية المريّة، بينها وبين غرناطة 100 ميل. انظر: المصدر نفسه: 1 / 339.

=

=

(39) البكري المصدر السابق، ص 96 - 97؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 1 / 179 - 180؛ ابن الخطيب، المصدر السابق، ص176 - 177 (ويذكر كل من ابن عذاري وابن الخطيب مدينة مالقة فقط)؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 6 / 213.

(40) البكري، المصدر السابق، ص 98؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 6 / 214.

(41) البكري، المصدر السابق، ص 98 - 99؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 6 / 214.

(42) البكري، المصدر السابق، ص 92؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 1 / 177.

(43) للمزيد من المعلومات حول القائد ابن العباس، انظر: أحمد، نهلة شهاب، أسرة أبي عبدة ودورها في تاريخ الأندلس في عهد الولاة والإمارة، مجلة البحث العلمي، عدد (35)، (الرباط: 1985)، ص 49 - 84.

(44) البكري، المصدر السابق، ص 92؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 1 / 177.

(45) البكري، المصدر السابق، ص 94 - 95؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 178/1؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 6 / 213 (حيث يذكر نفس أبيات الشعر مع الاختلاف في بعض الكلمات).

(46) البكري، المصدر السابق، ص 95 - 96؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 1 / 179 - 180.

(47) انظر فيما سبق، ص.

(48) تاهرت: من المدن القديمة والمشهورة في المغرب الأوسط، تقع على سفح جبل يسمى جزوّل، يحيط بها سور من صخر، وهي شديدة البرد كثيرة الغيوم والثلج، تشتهر بكثرة ثمارها وغلاتها. راجع: البكري، المصدر السابق، ص 66 - 67؛ القزويني، زكريا محمد بن محمود، آثار البلاد وأخبار العباد (بيروت: 1980)، ص 169.

(49) البكري، المصدر السابق، ص 96؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 1 / 180؛ ابن الخطيب، المصدر السابق، ص 176 (ويذكر بأن مدة بقاء مصالة في نكور كانت شهرين)؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 6 / 213.

(50) البكري، المصدر السابق، ص 96 - 97؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 1 / 180؛ ابن الخطيب، المصدر السابق، ص 176؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 6 / 213.

(51) البكري، المصدر السابق، ص 98؛ ابن الخطيب، المصدر السابق، ص 177 (ويذكر بأن صندل كان قائد الخليفة عبيد الله المهدي، ويبدو أن ابن الخطيب قد وهم لأن عبيد الله المهدي قد توفي سنة 322 هـ - 933 م، وخلفه ابنه القائم أبو القاسم محمد، وهو الذي أرسل صندل لغزو نكور).

(52) البكري، المصدر السابق، ص 98.

(53) المصدر نفسه، ص 98؛ ابن الخطيب، المصدر السابق، ص 178.

(54) النورماند: تعود أصول النورماند أو " الفيكنج " Vikingsإلى سكان البلاد الأسكندنافية، أي (السويد والنرويج والدانمارك) الحالية، وقد وردت تسمية هذه الأقوام في مصادرنا العربية باسم (أردمانيون والمجوس) وكلمة (أردمانيون) تعني سكان الشمال، وهي تحريف للكلمة

=

=

Norsemen الإنكليزية أو Normandoseالأسبانية، أما تسميتهم بالمجوس أي " عبدة النار " فلأنهم كانوا يشعلون النار في كل مكان يهاجمونه، وفي سفنهم، فظنّ العرب أنهم يعبدون النار. انظر: العبادي، المرجع السابق، ص 148.

(55) البكري، المصدر السابق، ص 92؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 1 / 176؛ ابن الخطيب، المصدر السابق، ص 73 (ويذكر بأن بقاء النورمانديين في نكور دام ثمانية أعوام، ويبدو أنه تصحيف لثمانية أيام)؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 6 / 212 (ويذكر بأن غزو النورماند كان سنة 144 هـ / 761 م)؛ الحميري، المصدر السابق، ص 577؛ الزركلي، المصدر السابق: 3 / 283.

(56) البكري، المصدر السابق، ص 91؛ مجهول، مؤلف، الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق: سعد زغلول عبد الحميد (الأسكندرية: 1958)، ص 136؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 1 / 176؛ الحميري، المصدر السابق، ص 577؛ الزركلي، المصدر السابق: 3 / 283.

(57) البكري، المصدر السابق، ص 91؛ الاستبصار، المصدر السابق، ص 136؛ ابن عذاري، المصدر السابق: 1 / 176؛ ابن الخطيب، المصدر السابق، ص 172؛ الحميري، المصدر السابق، ص 577؛ الزركلي، المصدر السابق: 3 / 283.

(58) البكري، المصدر السابق، ص 92 - 97.

(59) المصدر نفسه، ص 99؛ ابن الخطيب، المصدر السابق، ص 179؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 6 / 214.

(60) ابن الخطيب، المصدر السابق، ص 179.

(61) البكري، المصدر السابق، ص 99؛ ابن الخطيب، المصدر السابق، ص 179؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 6 / 214.

(62) البكري، المصدر السابق، ص 99.

(63) ابن الخطيب، المصدر السابق، ص 179.

بنو خزر وعلاقتهم بالخلافتين
الأموية والفاطمية
خلال القرن الرابع الهجري
العاشر الميلادي

أولاً: أصلهم ونسبهم:

بطن من قبيلة مغراوة الزناتية إحدى قبائل البتر، تركز سكنهم في المغرب الأوسط من شلف إلى تلمسان إلى جبل مديولة [1]، كان جدهم الأعلى (صقادب بن وزومار) [2]، وبعد وفاته تولى حفص الزعامة، وكان يعد من أعظم أمرائهم، ولما توفي تولى ابنه خزر [3]، ومنذ ذلك الحين أعطى بنو خزر المغراويين ولاءهم لبني أمية، وساندوا الخلافة الأموية في الأندلس [4].

ثانياً: بنو خزر على عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر (300 - 350 هـ / 912 - 961 م):

لقد حرصت كل من الخلافتين الفاطمية في المغرب، والخلافة الأموية في الأندلس على السيطرة على المغرب العربي، واستخدام قبائله لتحقيق أغراضها السياسية والعسكرية، واتخاذهم سداً منيعاً أمام تقدم كل من الخلافتين الواحدة تجاه الأخرى، وقد برز بنو خزر من أهم وأقوى خلفاء بني أمية ضد الخلافة الفاطمية وحلفائها، ولذلك فقد دأب خلفاء بني أمية منذ عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر على كسب ود وولاء بني خزر وأمرائهم من خلال مخاطباتهم المستمرة لهم [5] (وبالمقابل فقد سارع بنو خزر بتقديم ولائهم للأمويين في الأندلس، والذي يعدُّ استمراراً لولائهم القديم لبني أمية منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان ﷺ [6]، وقد توّج هذا الولاء من خلال مواقف التأييد والنصرة لبني خزر للخلافة الأموية ضد الخلافة الفاطمية [7].

وفي السنة 317 هـ / 929 م، أرسل الأمير محمد بن خزر هدية ورسالة إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر، يشرح لهُ فيها أعمال ابنه الخير وأخويه عبد الله

ومسعود، وما حققوه من انتصارات على أعدائه من قبيلة كتامة حلفاء الفاطميين وإخراجهم من بلد الزاب وطبنة، ويرد الخليفة الناصر على رسالة الأمير محمد مشجعاً إياهُ على مواصلة حربه ضد الفاطميين وحلفائهم مرسلاً لهُ أنواع الهدايا والتحف والخلع [8].

وفي السنة نفسها أرسل الخليفة عبد الرحمن الناصر إلى الأمير محمد بن خزر رسالة شفوية نقلها لهُ سفيره (محمد بن عبد الله بن عيسى) المشهور بذكائه وحنكته السياسية، يدعوهُ فيها إلى تقديم معونته ومساندته لتوطيد دعوة الخلافة الأموية في المغرب وذلك بدفع خطر الفاطميين وحلفائهم عن طريق مواصلة حربه ضدهم، وقد أكد الأمير محمد لسفير الخليفة حسن وثبات موقفه من الخلافة الأموية، وأخبره بالانتصارات التي حققها أخوة عبد الله على أعوان الفاطميين من بني حمدون[9] أصحاب مدينة المسيلة، وإخضاع القبائل المجاورة لها لطاعة الأمويين، كما قام بشن هجماته على مدينة تاهرت مركز تجمع حلفاء الفاطميين قاطعاً عنها المؤن والإمدادات التي كانت تصلها من الفاطميين وذلك بسيطرته وتحكمه بطريق المواصلات التي يصل بينها وبين أفريقية [10].

كما أرسل (الخير بن محمد بن خزر) رسالة باسمه إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر يشرح فيها عن تحركاته في وهران والمناطق المجاورة لها من الساحل على أثر هجوم القائد الفاطمي (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبيد الله) على الساحل الوهراني وتمكنه من هدم أحد الحصون واستخدام خشبه وحجره في بناء حصن منيع استخدمه في شن هجماته ضد بني خزر، وتقدم الخير بقوات نحو الحصن، وأنذرهم بإخلائه، لكنهم لم يأبهوا لإنذاره وخرجوا لملاقاته بالقرب من الحصن، فوثب عليهم بقواته وانهزموا أمامه إلى الحصن لكنه تمكن من اقتحامه وقتل معظم من فيه، وأحرق الحصن، ولم يبقَ للفاطميين موقعاً على الساحل في المغرب الأوسط غير مدينة تاهرت [11].

وأرسل الخير رسالة أخرى إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر يخبره فيها عن فتحه لمدينتي شلف وتنس، وتحويل طاعة سكانهما إلى الأمويين، فقد سارع أهل شلف بتقديم الطاعة للخير بعد هروب عامل الفاطميين عنها إلى تاهرت، أما مدينة تنس فعند سماع أهلها بتقدم قوات الخير نحوهم، أجهزوا على عاملهم الفاطمي

وقتلوه وأرسلوا برأسه إلى الخير، وتقدموا بطاعتهم لهُ فقبلها [12].

وفي أواخر السنة 317 هـ / 929 م، أرسل الأمير محمد بن خزر رسالةً إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر يجدد فيها بيعته، ويؤكد على أحقيته بالخلافة دون غيره من خلفاء المسلمين على الرغم من كل الإغراءات التي تقدم بها كلّ من العباسيين والفاطميين لكسب ودّه، وجعله في صفهم ضد الخلافة الأموية في الأندلس [13]. ، وقد أرسل مع الرسالة هدية قيّمة وفريدة من نوعها [14]، وقد قبل الخليفة عبد الرحمن الناصر هديته، وردّ لهُ بهدية مضاعفة ضمّت ملابس صنعت خصيصاً للأمير محمد وطرز عليها اسمه وهذا أمرٌ لم يفعله الخليفة عبد الرحمن الناصر مع غيره من أوليائه، هذه دلالة على المكانة الخاصة والرفيعة التي يتمتع بها الأمير محمد عند الخليفة عبد الرحمن الناصر، كما أرسل مع الهدية رسالة شكر جواباً على رسالة الأمير محمد [15].

وبعد فتح الخليفة عبد الرحمن الناصر مدينة سبتة في السنة 319 هـ / 931 م، أرسل كتاباً إلى الأمير محمد يخبره بالفتح، ويطلب معاونته ومساندته لأهل سبتة عند احتياجهم لذلك، لأنهم أصبحوا تابعين لحكم الأمويين في الأندلس [16]، ثم أرسل إليه سفيراً (محمد بن عبد الله بن أبي عيسى) للتباحث والتشاور معه حول إدارة شؤون الأمويين في المغرب [17].

وفي السنة نفسها أرسل الأمير محمد بن خزر رسالةً إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر يطلعه فيها على جملة أمور منها:

1 - انتقاله مع أهله وخاصته وجنده ورعيته إلى مقره الجديد على الساحل عند مدينة (تسفا) الواقعة إلى الغرب من مدينة تاهرت، ومبيناً لهُ سبب هذا الانتقال وهو حبهُ في القرب من الأندلس حتى يسهل الاتصال به، كما بيّن له أنه ما إن وصل إلى (تسفا) حتى شرع في قتال حلفاء الفاطميين، وتمكن من نشر طاعة الأمويين والخطبة باسمهم بين جميع أهل الساحل.

2 - عزمه على مهاجمة مدينة تاهرت ومحاصرتها، وقطع امدادلات الفاطميين عنها، ولكنه لم يمتلك الإمكانيات الكافية لتحقيق هدفه، وأنه يلتمس منه تقديم المعونة من أصناف الأسلحة ومن الرجال من الرماة وذوي الخبرة في حصار المدن واختراق حصونها ومعاقلها.

3 - خروج أخيه (فلفل بن خزر) عن طاعته ولجوئه إلى الخليفة عبيد الله المهدي باستخدامه الحيلة حيث تظاهر أنه خرج إلى المراعي لرعي ماشيته، وأبعد بها حتى وصل إلى حواضر الفاطميين فاستقبله عبيد الله المهدي مع من كان من أبنائه والبعض من أصحابه، وأجزل لهم العطاء ثم خرج بهم إلى أطراف بلد الزاب لإخضاع البعض من بني مغراوة المستقرين هناك، والذين ما أن سمعوا بتقدمهم نحوهم حتى سارعوا إلى الهرب بأموالهم وعوائلهم إلى الأمير محمد بن خزر الذي خرج بقواته وتمكن من صد عبيد الله المهدي ومن كان معهُ.

4 - دعوة عبيد الله المهدي لهُ (محمد بن خزر) للدخول في طاعته مستخدماً في ذلك كل وسائل الإغراء والترغيب، مذكراً إياه بالحظوة الكبيرة التي يتمتع بها أخوهُ فلفل عندهُ، ولكن كل تلك الوسائل لم تَجْدِ نفعاً ولم تثنِ الأمير محمد بن خزر عن طاعة الأمويين، وقد أكد الأمير محمد في نهاية رسالته حرصه وعزمه الكبيرين في مواصلة قتاله للفاطميين وحلفائهم[18].

وبعد أن أمّن وأقرّ الخليفة عبد الرحمن الناصر الوضع الداخلي للأندلس فكّر في تحقيق حلمه الكبير بتوحيد العالم الإسلامي تحت لواء الخلافة الأموية في الأندلس وذلك بالقضاء على الخلافتين العباسية والفاطمية[19]، وباشر بأخذ الاستعدادات اللازمة لذلك، وكان أول من فكر بهم في مساندته بتحقيق حلمه هذا حلفاءه من بني خزر إذ أرسل برسالة سنة 319 هـ / 931 م إلى الأمير محمد بن خزر يطلب منه أن يكون على أهبة الاستعداد حال وصول أمرهُ، وقد وضّح لنا ابن حيان ذلك بقوله: " وإن أمير المؤمنين لمّا تفرغ باله، وتقضت بالأندلس اشغاله واكتملت لهُ في اعدائه آماله، ... صرفِ عزيمته، وآمال همته إلى ما بين يديه من أسباب المشرق، وطلب ما لم يزل لأوله حقّاً، ولهُ ميراثاً ... وقد أمر أمير المؤمنين بالتأهب والاستعداد بالرجال والأجناد وتخير الكماة وانتقاء الرماة، وتضعيف العدد وتكثير العدد ... والنظر في إلحاق الحشود بالجنود لميقات معلوم ووقت محدود، وأن يستكثر من جميع المراكب ...ويتوسع في عددها لتجهيز الأساطيل المؤيدة في وقت إجازتها، وعند إمكان البحر لها السير، طائفة منها إلى سبتة وأخرى إلى جهة وهران ... فاستعد (محمد بن خزر) أسعدك الله وتأهب وشمّر وتلبّب، ولكن على انتظار ما يوافيك من أمير المؤمنين وولاته لتكون صدر القوّاد، كما أنت صدر أولى

الوداد، ومتقدماً للرجال كما أنت صدر الصيبيال "[20]، وقد عدل الخليفة عبد الرحمن الناصر عن تنفيذ مشروعه الكبير هذا، إذ يبدو أنه بعد أن درسه دراسةً مستفيضة وجد أنه من المحال تحقيقه، لأنه يحتاج في سبيل ذلك إلى إمكانياتٍ ماديةٍ وبشريةٍ كبيرةٍ جداً، مضافاً إلى ذلك ما قد يتعرض لهُ أمن الأندلس من خطر هجوم قوات الممالك الأسبانية منتهزين فرصة غياب معظم القوات الأندلسية البرية منها والبحرية، إلى جانب الأخطار التي قد تواجهها تلك القوات، لا سيما إذا ما علمنا ببعد المسافة ما بين المشرق والأندلس.

وتأكيداً لعلاقة التحالف والصداقة بين بني خزر والخلافة الأموية في الأندلس، أرسل الخليفة عبد الرحمن الناصر في السنة 326 هـ / 937 م بهدية من أفخر الثياب إلى الأمير (الخير بن محمد بن خزر) الذي تولى زعامة قومه بعد وفاة والده، وأتبعها الخليفة عبد الرحمن الناصر بهديةٍ أخرى سنة 328 هـ / 939 م، ضمّت صنوفاً من الثياب الفاخرة والأمتعة الرفيعة، والآلات الحربية، كما أرسل إليه خاتماً من خواتمه الخاصة منقوش عليه اسمه أمرهُ أن يستخدمه في توقيع رسائله الرسمية [21]. ويبدو أن الخليفة عبد الرحمن الناصر بعمله هذا أراد أن يفوضه على حكم المغرب باسمه.

وقد اتبع الخير بن محمد بن خزر سياسة والده في مقارعة حلفاء الفاطميين في المغرب، وأرسل أخبار تحركاته ضدهم إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر، ففي السنة 333 هـ / 944 م، بعث الأمير الخير رسوله إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر يخبره بدخوله مدينة تاهرت، وإقامة دعوة الأمويين فيها [22]، لكن يبدو أن أهالي تاهرت قد نقضوا طاعة الأمويين وعادوا إلى طاعة الفاطميين، حيث يشير ابن عذاري مجدداً إلى أن الأمير الخير قد حارب أهل تاهرت، واستنجدوا بالقائد ميسور الخصي، واحتدمت المعركة بين الطرفين، وانتهت بانتصار الأمير الخير، ووقوع القائد ميسور، وحليفه القائد عبد الله بن بكار بيده، ودخول قواته مدينة تاهرت في أول ذي القعدة من السنة 338 هـ / 949 م، ثم قام الأمير الخير بإرسال رسولاً في السنة 339 هـ / 950 م إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر يخبره بدخوله مدينة تاهرت، وأسره لكل من القائد ميسور، وعبد الله بن بكار، وأمر الخليفة عبد الرحمن الناصر بقراءة كتاب النصر بجامعي قرطبة والزهراء [23].

وفي آخر جمادي الآخرة من السنة 341 هـ / 952 م وصل الأمير (فتوح بن الخير بن محمد بن خزر) إلى قرطبة، ومعه وجوه أهل مدينة تاهرت ووهران ليؤكدوا طاعتهم للخلافة الأموية، وحاملاً معه رؤوساً لقواد الفاطميين ووجوه رجالهم، يتقدمهم رأس القائد ميسور، وعشرة من بنودهم، وعدّة من طبولتهم، وقد استقبل الأمير فتوح ووفده بمزيد من الحفاوةِ والتكريم [24].

ولمّا بلغ الخليفة الفاطمي المعز لدين الله (341 - 365 هـ / 952 - 975م) نجاح سياسة الخليفة عبد الرحمن الناصر في المغرب وأن جميع من بها من قبائل زناتة وغيرها قد رفضوا دعوته، ودخلوا في طاعة الخلافة الأموية، أسرع بإرسال جيش من حلفائه من قبائل كتامة وصنهاجة بقيادة (جوهر بن عبد الله الرومي) الذي تمكن من اجتياح المغربين الوسط والأقصى حتى وصل إلى المحيط الأطلسي، وأنزل الهزيمة بخلفاء الأمويين من زناتة ومنهم بنو خزر، وقطع دعوة الأمويين، وردها إلى الفاطميين [25]، وكان ذلك في السنة 349 هـ / 960 م [26].

ثالثاً: بنو خزر على عهد الخليفة الحكم المستنصر (350 – 366هـ / 961 – 976 م):

اتبع الخليفة الحكم المستنصر سياسة والده تجاه زناتة في المغرب فاستأنف مخاطبتهم، وشحذ هممهم، ووعدهم بتحقيق آمالهم [27]. وقد تلقى دعوته أمراؤها من مغرازة وغيرهم وبثوها وزاحموا بها دعوة الفاطميين، ووفد عليه أمراؤهم من آل خزر وغيرهم. . وأحسن وفادتهم، وأجزل لهم العطاء [28].

واستأنف بنو خزر جهودهم للوقوف ضد حلفاء الفاطميين، ففي رمضان من السنة 360 هـ / 970 م دخل بنو خزر وغيرهم من بطون قبيلة زناتة، وحكام المسيلة من (بني حمدون) [29] جعفر ويحيى اللذان تخلا عن دعوة الخلافة الفاطمية ودعا بدعوة الخلافة الأموية، بحرب مع حلفاء وممثلي الفاطميين في المغرب (بنو زيري) الصنهاجيين، وكانت نتيجتها انتصار بنو خزر ومقتل زيري بن مناد، ثم أرسل بنبأ النصر إلى الخليفة الحكم المستنصر [30]، ثم عبر حمدون، وأمراء بنو خزر إلى قرطبة حاملين معهم رأس زيري بن مناد ورؤوس أعيان أصحابه، وعندما علم الخليفة الحكم المستنصر بقدومهم، خاطب قادته وعماله بكور الأندلس وأمرهم باستقدام كبار وأعلام رجالها لاستقبالهم، وخرج صاحب السكة والمواريث وقاضي

أشبيلية (محمد بن أبي عامر) لملاقاة الوفد بالمقربة من مالقة، وسار الوفد بموكب بهيج حتى دخل قرطبة، واستقبلهم الخليفة الحكم المستنصر، وأجناد الكور، ووجوه أهلها الذين دعاهم لمشاهدة الوفد[31]، وهكذا استعاد الحكم المستنصر من جديد السيادة الأموية في المغرب.

ولكن هذا لم يدم طويلاً إذ في ربيع الثاني من السنة نفسها 360هـ / 970م توجه (بلقين بن زيري بن مناد) إلى المغرب لقتال بني خزر وباقي بطون قبيلة زناتة، والأخذ بثأر أبيه والتقى بالأمير (محمد بن الخير بن خزر) وهزمه، وقتل عدداً من أهله ورجاله، ولمّا أيقن الأمير محمد من وقوعه بيد بلقين عظم الأمر عليه وقتل نفسه، وقام بلقين بمطاردة بني خزر وباقي بطون زناتة لاستئصال جذورهم، وهدم مدينة البصرة، وغيرها من مدن المغرب الأقصى، وقطع دعوة الخلافة الأموية فيه، عدا مدينة سبتة التي استعصت عليه، ثم عاد إلى مركز حكمه في إفريقية[32].

رابعاً: بنو خزر على عهد العامريين (366 – 399 هـ / 976 – 1008 م):

جاءت سياسة الحاجب المنصور بن أبي عامر (366 هـ - 392 هـ /976 - 1001م) استمراراً لسياسة سلفه من الخلفاء الأمويين في المغرب في الاعتماد على قبيلة زناته وبطونها المختلفة، لا سيما بنو خزر، المغراويين، وقد عبّر ابن خلدون عن ذلك بقوله: " كان المنصور بن أبي عامر القائم بدولة المؤيد قد اقتصر لأول مرة حجابته من أحوال العدوة على ضبط سبته برجال الدولة، ووجوه القواد، وطبقات العسكر، ودفع ما وراءها إلى أمراء زناته من مغراوة ...، وعوّل في ضبط كوره وسداد ثغوره عليهم وتعهدهم بالعطاء، وأفاض فيهم الإحسان، فازدلفوا إليه بوجوه التقربات وأسباب الوصائل "[33].

ففي السنة 369 هـ / 979 م تمكن (بلقين بن زيري) من دخول المغرب الأقصى ونزل مدينة فاس، وفرت أمامه زناته، وأمرائها من بني خزر المغراويين وغيرهم إلى سبته فحاصرهم، وعبر الأمير (محمد بن الخير) إلى الأندلس مستنجداً بالمنصور بن أبي عامر الذي خرج بعساكره إلى الجزيرة الخضراء، واتخذها قاعدة عسكرية للإشراف منها على العمليات الحربية في المغرب، وعقد لجعفر بن علي حمدون على حرب بلقين، وعبر بجيشه إلى سبته، وجاء بلقين وصعد جبال تطوان، وأطلّ على عساكر زناته وأهل الأندلس بساحة سبته، ورأى أنه لا قبل له بحربهم،

ففك حصاره عنهم، وعاد بجيشه إلى أفريقية في السنة 372 هـ / 982 م [34].

ونظراً لحسن تأييد وصدق طاعة بني خزر للأمويين، قام المنصور بن أبي عامر بتعيين (زيري بن عطية بن عبد الرحمن بن خزر) زعيم مغراوة، حاكماً على المغرب، قائماً بدعوة الأمويين، محارباً لأعدائهم الصنهاجيين أمراء أفريقية حلفاء الفاطميين [35].

ففي السنة 377 هـ / 987 م خلع (أبو البهار بن زيري بن مناد الصنهاجي) طاعة الفاطميين، وقام بدعوة الأمويين، وخطب للخليفة هشام المؤيد وحاجبه المنصور بن أبي عامر، وأرسل ببيعته لهم، فأقره المنصور على ما بيده من البلاد، وأرسل لهُ الهدايا والأموال، ولكن لم يبقَ على بيعة الأمويين طويلاً بل خلع طاعتهم وعاد من جديد إلى طاعة الفاطميين [36]. ويتضح أن سبب هذا التذبذب في الطاعة من قبل أبي البهار هي السياسة الانتهازية التي اتبعها، فقد كان خلعه لطاعة الفاطميين بسبب خلافه وتمرده على ابن أخيه (المنصور بن بلقين بن زيري) صاحب أفريقية [37] ومن أجل أن يحصل على دعم سياسيٍ وماديٍ بدل الذي فقده نادى بطاعة الأمويين، ولكن ما إن اصطلح مع ابن أخيه (المنصور بن بلقين) حتى خلع طاعة الأمويين وعاد إلى طاعة الفاطميين [38]، ولمّا وصل خبره للمنصور بن أبي عامر غضب عليه، وكتب إلى الأمير زيري بن عطية بولايته على جميع بلاد أبي البهار، وأمره بقتاله، وخرج زيري من فاس وتوجه إليه بجيش كبير، وفرّ أبو البهار، ولحق بابن أخيه (المنصور بن بلقين) أمير أفريقية، وسيطر على تلمسان وسائر أعمال أبي البهار، وملك ما بين السوس الأقصى والزاب، وكتب بالفتح إلى المنصور، وأرسل لهُ هدايا كثيرة ومتنوعة فسرّ المنصور بها وكافأه عليها، وجدّد لهُ الولاية على المغرب وذلك في السنة 381 هـ / 991 م [39].

أ - تمرد بنو خزر على حكم العامريين:

على الرغم من العلاقة القوية التي ربطت بين الخلافة الأموية في الأندلس وقبيلة زناته في المغرب بشكل عام، وبني خزر المغراويين بشكل خاص، إلاّ أن هذه العلاقة توترت على عهد الأمير الخزري (زيري بن عطية) الذي كان قد عظم شأنه، وأحيط باهتمام كبير، ونال مكانةً رفيعةً عند المنصور بن أبي عامر، وسادَ في عهده حالةً من الهدوء والاستقرار في المغرب حتى سنة 387 هـ / 997 م، حيث

توترت العلاقة بين المنصور وزيري، وعزم زيري على خلع طاعة المنصور ومخالفته، وطرد عماله من المغرب الأقصى وأجلاهم إلى سبته[40]. وقد تباينت المصادر التاريخية حول أسباب هذا التوتر، فالبعض منها يشير إلى أسباب سياسية منها غضب زيري وامتعاضه من المنصور بسبب غلبته هشام المؤيد وسلبه ملكه[41]، فضلاً عن استهجانه لقب الوزير منحه إياه المنصور، فقد وجد فيه تقليلاً من مكانته السياسية كأمير ينتمي إلى قبيلة كبيرة بقوله: " ... ويحك، وزيراً لا والله إلاّ أمير ابن أمير، واعجباً لابن أبي عامر ومخرقته لأن تسمع بالمعيدي خير من ان تراهُ ولو كان بالأندلس رجل ما تركه على حاله "[42]. في حين تشير مصادر أخرى إلى أسباب اقتصادية وهي استقلال زيري العطاء الذي كان يرسله له المنصور كل سنة[43] ويبدو أن زيري كان قد عزم على الاستقلال ببلاده بعد أن شعر بقوته، وقوة قبيلته، وبالمكانة الكبيرة التي تحتلها بين قومه، ويتضح ذلك في قوله عند عودته من الأندلس إلى المغرب ونزوله في طنجة وضع يده على رأسة وقال: " الآن علمتُ انك لي "[44]، مما يدل على أن الأسباب التي ذكرت حول خلافه مع المنصور ما هي إلاّ ذريعة اتخذها لتحقيق هدفه في الاستقلال.

وعلى أية حال ما إن وصل خبر تمرد زيري إلى المنصور حتى سارع إلى استقدام مولاهُ وغلامه (واضح الفتى) من مدينة سالم، وأرسله بجيشٍ كبيرٍ مدعوماً بأموال كثيرة إلى المغرب في السنة 387 هـ / 997 م، واستقر في طنجة، ثم أرسل إليه المنصور قوات إضافية، وانضم إلى جيش واضح عدد من القبائل الموالية للأمويين في المغرب من غمارة وصنهاجة وغيرهما[45]، ثم خرج واضح بجيشه من طنجة لقتال زيري الذي خرج لملاقاته من مدينة فاس والتقى الجمعان، ودارت بينهما معركةً أسفرت عن هزيمة القائد واضح ومقتل معظم جنده، وفراره إلى طنجة، ومن هناك كتب إلى المنصور يطلب منه المعونة والمدد بالرجال والأموال[46].

وإزاء هذه التطورات الخطيرة أقدم المنصور على اتخاذ إجراءات سريعة فخرج بنفسه من قرطبة ونزل بالجزيرة الخضراء واتخذها قاعدة عسكرية لمداد القائد واضح، إذ أرسل إليه ولده عبد الملك المظفر بجند الأندلس وقادتها، وبقي هو في الجزيرة الخضراء يراقب تطور الأحداث عن كثب، مرسلاً لهم الإمدادات

عند الحاجة، وعبر عبد الملك إلى المغرب واستقر في طنجة، وانضم إليه القائد واضح بقواته، وساروا جميعاً لقتال زيري، والتقى الجمعان بـ (وادي منى). من أحواز طنجة ودارت بينهما معركة نتج عنها جرح زيري وهزيمته [47]، وفراره إلى موضع يعرف بـ (مضيق الحية) بالقرب من مدائن مكناسة، فأقام به واجتمع إليه من فرّ من جنده، وعزم على الرجوع لمقاتلة عبد الملك، لكن عبد الملك فاجأه بإرسال خمسة آلاف فارس بقيادة واضح الفتى، وهاجمهم ليلاً وهم في غفلةٍ من أمرهم وأوقع بهم، وأسر من أشراف مغراوة نحو ألفي رجل، ومنّ عليهم عبد الملك المظفر وجعلهم في صفوف جنده، وفرّ زيري إلى فاس في قلةٍ من أصحابه وبني عمه، وأغلق أهلها الأبواب في وجهه، وطلب منهم أن يسلموا لهُ أولاده فأخرجوهم إليه، وزودوه بالزاد والدواب، وانصرف إلى الصحراء هارباً، وسار عبد الملك إلى فاس ودخلها نهاية شوال 387 هـ / 997 م، وعاد الهدوء إلى المغرب الأقصى، وكتب إلى أبيه بالفتح، وقرأ كتابه على منبري جامع الزهراء وقرطبة وعلى منابر قواعد الأندلس كلها، وهذا دلالة على مدى خطورة تمرد زيري وقومه على وضع السلطة الأموية في المغرب، ولهذا حرص منذ ذلك الوقت أن يعهد بولاية المغرب إلى ذويه أو رجال دولته المخلصين، حيث أرسل بولاية عهده على المغرب إلى ولده عبد الملك، وأمره بحسن السيرة والعدالة، وأقام عبد الملك في فاس مدة ستة أشهر، ثم استدعاه والده وأرسل مكانه عيسى بن سعيد صاحب الشرطة، فأقام والياً فيها إلى شهر صفر من السنة 389 هـ / 889 م، ثم عزله وولى مكانه واضح الفتى [48].

ب - عودة بنو خزر لطاعة العامريين:

بعد أن هرب زيري بن عطية، توجه إلى الصحراء ونزل بديار صنهاجة في المغرب الأوسط، واستغل خلافات الأسرة الحاكمة على عهد حاكمهم

(باديس بن منصور بن بلقين بن زيري الصنهاجي) حيث أرسل زيري إلى قومه، وزحف بهم إلى بني زيري الصنهاجيين، ودخل بلادهم وهزم جيوشهم، وملك مدينة تاهرت وبعض بلاد الزاب وتلمسان وشلف والمسيلة، وأقام فيها الدعوة للأمويين، وكتب إلى المنصور يسترضيه، ويشترط على نفسه الرهن والاستقامة إن أُعيد لولايته على المغرب، ويقوم بإرسال ابنه وابن أخيه رهينة عنده،

وذلك لحاجته إلى دعم سياسي وعسكري يضمن لملكه البقاء بعد أن أصبح على حدود الدولة الفاطمية [49]، ولكنه توفي على أثر جراحه في السنة 391 هـ / 1000م قبل أن يصله رد المنصور، وتولى من بعده ابنه الأمير (المعز) الذي صالح المنصور وعاد إلى طاعته [50].

وبعد وفاة المنصور في السنة 392 هـ / 1001 م ومجيء ابنه عبد الملك المظفر (392 - 399 هـ / 1001 - 1008 م) سار على نفس سياسة والده في حرصه على دعم السلطة الأموية في المغرب، وكسب ود قبيلة زناته وبطونها المختلفة، لا سيما بنو خز المغراويين، حيث تقدم أميرهم (المعز بن زيري بن عطية) بطاعته وولائه إلى عبد الملك المظفر، وأقام بدعوة الأمويين في المغرب، وشرط على نفسه إرسال كل سنة خَيلاً ودرقاً، ومالاً معلوماً إلى قرطبة، فضلاً عن إرسال ولده (معنصر) رهينة عند عبد الملك [51]. وقام عبد الملك من جانبه بعزل القائد واضح الفتى عن فاس، وسائر أعمال المغرب عدا سجلماسة فكانت (لوانودين وسعيد بن فلفلول) الزناتيين، وذلك في السنة 397 هـ / 1006 م [52]، واستمر الأمير المعز على طاعة الأمويين في الأندلس حتى بعد وفاة عبد الملك المظفر في السنة 399 هـ / 1008 م، وتولى الحكم من بعده أخوه عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر، حيث أرسل إليه هدية ثمينةً تضمنت مئة وخمسون فرساً، وبالمقابل أمر عبد الرحمن بإحضار رهينة الأمير المعز ابنه (معنصر) والإفراج عنه، وإرساله إلى أبيه مكرماً، وردّ عليه الأمير المعز بأن أرسل لهُ هدية بلغت تسعمئة فرساً [53].

ولم يزل المغرب على عهد الأمير المعز في حالةٍ من الهدوء والاستقرار والطاعة للأمويين حتى وفاته في السنة 416 هـ / 1025 م [54]، وتولى ولاية المغرب من بعده ابن عمه (حمامة بن المعز عطية) الذي استفحل ملكه [55] في الوقت الذي كانت الدولة الأموية قد اختلت أركانها وتداعت في الأندلس فاستغل بنو خزر المغراويين الفرصة واستقلوا بحكم المغرب حتى قيام دولة المرابطين التي قضت على ملكهم [56].

هوامش البحث:

---

(1) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر (بيروت، منشورات الأعلمي للمطبوعات، 1971): 7 / 24.

(2) ويذكر بـ (صولات بن وزمار) كان أميراً على مغراوة وسائر زناته قبل الفتح العربي الإسلامي للمغرب، وذكر أنه كان قد وفد إلى الخليفة عثمان بن عفان ﷺ وأسلم على يديه، فأقره على قومه وبلاده، وقيل أنه قبض عليه أسيراً أثناء الفتح العربي الإسلامي، وأرسل إلى الخليفة عثمان بن عفان ﷺ لمكانته الرفيعة عند قومه، وأسلم على يديه وحسن إسلامه، وأبقاه على ملكه في قومه. ينظر: ابن حيان القرطبي، المقتبس في أخبار رجال الأندلس، نشره: ب. شالميتا بالتعاون لضبطه وتحقيقه مع ف. كورينطي، وم. صبح وغيرهم (مدريد، المعهد الأسباني العربي للثقافة، كلية الآداب، الرباط، 1979): 5 / 257؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 7 / 24.

(3) المصدر نفسه: 7 / 24.

(4) ابن حيان، المصدر السابق: 5 / 257؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 7 / 24.

(5) حدد ابن خلدون أول اتصال للخليفة عبد الرحمن الناصر ببني خزر في السنة 316 هـ / 928 م. ينظر: العبر: 7 / 25.

(6) ابن حيان، المصدر السابق: 5 / 256، 257.

(7) من الجدير بالذكر أن بني خزر كانوا قد اتخذوا موقفاً عدائياً من الخلافة الفاطمية من قبل أن يتصل بهم الخليفة عبد الرحمن الناصر، فقد هاجم الأمير عمر بن خزر بجموع زناته حلفاء الفاطميين مما حدا بالخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي (296 - 322 هـ / 908 - 933 م) في السنة 309 هـ / 921 م في إرسال جيشٍ من قبائل كتامة إلى المغرب الأوسط، فتصدى لهم بنو خزر وألحقوا الهزيمة به، وفي السنة 310 هـ / 922 م أرسل الخليفة الفاطمي جيشاً آخر بقيادة ابنه أبي القاسم الذي تمكن من إنزال الهزيمة ببني خزر، وفي السنة 314 هـ / 927 م هاجم الأمير محمد بن خزر بقواته مدينة تاهرت ثم انسحب، فأرسل الخليفة الفاطمي في أثره جماعة من القادة دخلوا في معركة مع أخيه عبد الله بن خزر أسفرت عن هزيمتهم، مما دفع بالخليفة الفاطمي إلى إرسال قواتٍ أخرى دُحِرَتْ أيضاً، ودخل أهالي طبنه والقبائل المجاورة لها في طاعة الأمويين، وولى الأمير محمد بن خزر عليهم أخاه عبد الله الذي دخل في حروبٍ كثيرةٍ مع الخليفة عبيد الله المهدي. وللمزيد من التفاصيل، ينظر: أبو العباس أحمد بن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج. س كولان، وليفي بروفنسال (ط 2، بيروت، دار الثقافة، 1980): 1 /191؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 7 / 25.

(8) ابن حيان، المصدر السابق: 5 / 258.

=

(9) بنو حمدون: هم علي بن حمدون وأولاده جعفر ويحيى، دخل جدهم الأكبر عبد الحميد الأندلس من بلاد الشام ونزل بكورة البيرة، ثم انتقل حفيده حمدون إلى بجاية في المغرب الأوسط، وصحب أبا عبد الله الشيعي ودخل في مذهبه، ولما تغلب عبيد الله المهدي على أفريقية برز علي بن حمدون وأصبحت له مكانةً مرموقةً عنده، وضمّه إلى ابنه القاسم ولي عهده فازداد حظوةً لديه، وأمره ببناء مدينة المسيلة سنة 313 هـ / 925 م في إقليم الزاب بالمغرب الأوسط وسمّاها بالمحمدية من أجل مراقبة تحركات القبائل المعادية للفاطميين، ولا سيما مغراوة ومنهم بنو خزر. ينظر: ابن عذاري، المصدر السابق: 1 / 190، 2 / 242؛ وللمزيد، ينظر: عبد العزيز الفيلالي، العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب (الجزائر، الشركة الوطنية للتوزيع، 1982)، ص 131، 132.

(10) ابن حيان، المصدر السابق: 5 / 258، 259.

(11) المصدر نفسه: 5 / 259، 260.

(12) المصدر نفسه: 5 / 260، 261.

(13) لمزيد من التفاصيل عن مضمون الرسالة، ينظر: المصدر نفسه: 265، 266، 267.

(14) عن تفاصيل هذه الهدية، ينظر: المصدر نفسه: 5 / 267، 268.

(15) عن تفاصيل الهدية والرسالة، ينظر: المصدر نفسه: 5 / 268، 269.

(16) المصدر نفسه: 5 / 290.

(17) المصدر نفسه: 5 / 299.

(18) المصدر نفسه: 5 / 305.

(19) المصدر نفسه: 5 / 305، 306.

(20) المصدر نفسه: 5 / 306، 307.

(21) المصدر نفسه: 5 / 428، 460.

(22) ابن عذاري، المصدر السابق: 2 / 212.

(23) المصدر نفسه: 2 / 216، 217.

(24) المصدر نفسه: 2 / 218.

(25) أحمد بن خالد الناصري السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري، ومحمد الناصري (الدار البيضاء: 1954): 1 / 198، 199.

(26) ابن عذاري، المصدر السابق: 1 / 198.

(27) مؤلف مجهول، مفاخر البربر، تحقيق: ليفي بروفنسال (الرباط، المطبعة الجديدة، 1934)، ص 6.

(28) ابن خلدون، المصدر السابق: 4 / 146.

(29) عن بني حمدون، ينظر فيما سبق: الهامش (9).

(30) ابن عذاري، المصدر السابق: 2 / 242.

(31) المصدر نفسه: 2 / 243، 244.

=

(32) المصدر نفسه: 2 /243؛ مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص 46؛ السلاوي، المصدر السابق: 1 / 200.

(33) العبر: 7 / 37.

(34) مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص 17؛ أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس (الرباط، دار المنصور للطباعة، 1972)، ص 101؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 7 / 28، 29؛ السلاوي، المصدر السابق: 1 / 208.

(35) ابن عذاري، المصدر السابق: 1 / 253.

(36) ابن أبي زرع، المصدر السابق: ص 103؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 7 / 431؛ السلاوي، المصدر السابق: 1 / 210، 211.

(37) ابن عذاري، المصدر السابق: 1 / 2144؛ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 102، 103.

(38) ابن عذاري، المصدر السابق: 1 / 246، 247؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 7 / 20، 31.

(39) ابن أبي زرع، المصدر السابق / ص 103؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 7 / 31؛ السلاوي، المصدر السابق: 1 / 210، 211.

(40) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 105.

(41) ابن عذاري، المصدر السابق: 1 / 253، 2 / 281؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 4 / 148؛ السلاوي، المصر السابق: 1 / 213؛ وينظر: أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس (الأسكندرية، مؤسسة الثقافة الجامعية، بدون تاريخ)، ص 255.

(42) ابن أبي زرع، المصدر السابق /، ص 104؛ السلاوي، المصدر السابق: 1 / 211.

(43) مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص 22؛ السلاوي، المصدر السابق: 1 / 211؛ وينظر: العبادي، المرجع السابق، ص 255.

(44) مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص 22؛ السلاوي، المصدر السابق: 1 / 211.

(45) مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص 28؛ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 105، 106؛ وقارن بـ: ابن خلدون، / المصدر السابق: 7 / 32؛ وينظر: السلاوي، المصدر السابق: 1 / 214.

(46) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 105، 106؛ وقارن بـ: ابن خلدون، المصدر السابق: 7 / 32؛ وينظر: السلاوي، المصدر السابق: 1 / 214.

(47) ابن عذاري، المصدر السابق: 253/1، 2 / 282؛ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 106؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 7 / 32؛ أحمد بن محمد المكناسي بن القاضي، جذوة الاقتباس في ذكر ما حلّ من الأعلام مدينة فاس (الرباط، دار المنصور للطباعة، 1973): 1 / 198.

=

=

(48) مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص 31، 32؛ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 106، 107؛ ابن القاضي، المصدر السابق: 198/1، 199؛ السلاوي، المصدر السابق: 215/1، 216.

(49) مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص 33؛ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 107؛ السلاوي، المصدر السابق: 1 / 216؛ وقارن بـ: ابن خلدون، المصدر السابق: 7 / 433، وينظر: إبراهيم بيضون، الدولة العربية في أسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة (بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1980)، ص 363؛ عبد العزيز بنعبد الله، الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية (ط 1، المغرب، مطبوعات وزارة الأوقاف المغربية، 1975): 1 / 97.

(50) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 107، 108؛ ابن القاضي، المصدر السابق: 1 / 199، 337؛ السلاوي، المصدر السابق: 1 / 97.

(51) مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص 39 (ويذكر أنه أرسل ولداه معنصر وحمامة رهينة عند عبد الملك)؛ ابن أبي زرع، المصدر السابق: ص 108؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 7 / 33، 34 (ويشير إلى نص الرسالة التي بعث بها الأمير المعز إلى عبد الملك المظفر)؛ ابن القاضي، المصدر السابق: 1 / 337.

(52) مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص 41؛ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 108؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 7 / 138 (ويذكر بأن عودة الأمير المعز إلى ولاية المغرب كانت سنة 396 هـ / 1005 م)؛ ابن القاضي، المصدر السابق: 1 / 337.

(53) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 116، 117؛ السلاوي، المصدر السابق: 1 / 219.

(54) ابن عذاري، المصدر السابق: 1 / 253؛ مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص 42؛ السلاوي، المصدر السابق: 1 / 219 (ويذكر بأن وفاته كانت في السنة 417 هـ / 1026 م).

(55) ابن عذاري، المصدر السابق: 253/1 (ويذكر بأن حمامة ابنه وليس ابن عمه)؛ ابن أبي زرع، المصدر السابق: ص 109؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 7 / 35؛ السلاوي، المصدر السابق: 1 / 220.

(56) المصدر نفسه: 1 / 220.

بنو حمدون وعلاقتهم بالخلافتين الفاطمية والأموية

نهاية القرن الثالث الهجري وبداية القرن الرابع الهجري / نهاية القرن التاسع الميلادي وبداية القرن العاشر الميلادي

تمهيد:

حرص الفاطميون منذ بداية دعوتهم وسعيهم لإقامة دولتهم في المغرب العربي، على أن يكون لهم نفوذ في الأندلس، ولتحقيق ذلك أرسلوا إليها دعاتهم وجواسيسهم تأسيساً لنفوذهم، فضلاً عن استطلاعهم لأوضاعها السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية ليتسنى لهم نيلها من مواطن ضعفها، وللتمويه على هذه الأهداف تستر دعاتهم بلبوس العلم والتجارة أو السياحة الصوفية [1].

وكان أبو اليسر إبراهيم بن محمد الشيباني المعروف بالرياضي (ت 298هـ / 915 م) في طلائع الدعاة، عرف بالعلم والأدب، غادر بغداد واستوطن القيروان، ثم عبر إلى الأندلس، إلا أن اكتشاف أمره أجبره على سرعة المغادرة باتجاه مصر[2]. واتهم أبو جعفر أحمد بن محمد بن هارون البغدادي [3]. بالتجسس ايضاً وكان قد دخل الأندلس على عهد الأمير عبد الله بن محمد (275ـ 300 / 888 - 912 م)، وتكرر دخوله إليها مرات عدة متستراً بالعلم، وعلى ما يبدو أن ما قدمه من معلومات عن رحلته، عدها الفاطميون إنجازاً استحق عليه المكافأة، فأسند له خطة البريد بالإضافة إلى ما كان يتولاه من منصب الكتابة [4].

وعلى الرغم من أن أحد المؤرخين المحدثين دفع بتهمة التجسس عن ابن القاسم ابن حوقل النصيبي، صاحب كتاب صورة الأرض، وأن رحلته إلى الأندلس كانت بقصد التجارة كغيرها من الرحلات [5]. إلاّ أن هذا لا يلغي ان المعلومات التي ضمنها كتابه عن الأندلس [6]، قد أفادت الفاطميون في التعرف على أوضاعها بدقة، وان تحزبه للفاطميين لا يبرأ مهمته من غاية مقصودة.

وعلى الرغم من أن جهود هؤلاء المبعوثين لم تسفر عن نتيجة ظاهرة لصالح الأطماع الفاطمية في الأندلس، إلا أنها تمكنت بلا شك من زرع جذور موالية لها، تجلت بوضوح بالدور الذي قام به بني حمدون (علي بن حمدون وأولاده) لاحقاً لصالح الأهداف الفاطمية.

أولاً: أصلهم ونسبهم:

ترجع اصول اسرة بني حمدون (علي المعروف بابن الأندلسي وأولاده جعفر ويحيى) إلى حمدون بن سملك بن سعيد بن إبراهيم ...بن أحمد بن عبد الحميد الجذامي [7].

توجه جدهم الأعلى عبد الحميد من بلاد الشام ونزل بكورة البيرة (غرناطة) بقرية من قرى قلعة يحصب ثم انتقل حفيده حمدون إلى المغرب، ونزل عند مدينة بجاية في الجزائر، واستقر وعائلته في قرية تعرف (بقسطلنانة) [8] وتزوج ابنه علي امراة تدعى (ميمونة بنت علاهم الجيلي) من قبيلة كتامة، وانجبت له كل من جعفر و يحيى [9].

ثانياً: موقف بني حمدون من الدعوة الفاطمية:

مثلت المدة التي استقر فيها علي بن حمدون في بلاد كتامة، أولى المؤشرات على اطلاعه عن كتب على حيثيات الدعوة الفاطمية، إذ كان أحد دعاته (أبو عبد الله) قد أشاعه في هذه البلاد، ولا ندري أهي القناعة بالدعوة الفاطمية، أم الاعجاب بشخصية الداعي، كانت وراء العلاقة الحميمة التي جمعت بين أبي عبد الله وعلي بن حمدون، أياً يكن الأمر فقد أفرزت هذه العلاقة داعية جديداً وهب نفسه لخدمة الفاطميين وأهدافهم، واذا ما صحت رواية ابن حيان، من أنّ أبي عبد الله هو الذي منح علي بن حمدون اسمه بدلاً من ثعلبة [10]. ندرك مدى التجسد الذي بلغه هذا الداعي الجديد بفكره.

وبعد أن نجح أبو عبد الله في تحقيق انتصارات على دولة الأغالبة (184 - 296هـ / 800 - 908 م)، رأى بأن الوقت قد حان لظهور الأمام الفاطمي عبيد الله المهدي، فأرسل وفداً من كتامة لاصطحابه من مدينة (سلمية) من أعمال حمص حيث يقيم إلى المغرب الأدنى، وعلى ما يبدو أنّ علي بن حمدون كان على رأس

هـذا الـوفد، إذ يكفـي مؤشـراً علـى مكانـته أن الإمـام خـصه بمـرافقته بعـد أن وجـد الأوضـاع غير مهيأة للاستقرار في أفريقية (المغرب الأدنى) حيث لا زالت دولة إلا غالية تنازعه السيادة عليها، فواصل مسيره بمعية ابن حمدون إلى أن استقر بهما المقام في مدينة سجلماسه، مقر دولة بني مدرار الصفرية (140 - 297هـ/757 - 909م) ودخل معه السجن حيث اعتقل للشك في أمره، والى ذلك يشير ابن خلدون بقوله: " اتصل [علي بن حمدون] بعبيد الله وأبي القاسم بالمشرق قبل شأن الدعوة ... فأحسن اللقاء والانصراف، ولزمهم أيام اعتقالهم بسجلماسة" [11].

أظهر ابن حمدون في مرافقته وصحبته ما أثار إعجاب الأمام به، فخصه بقربه وثقته، موكلاً إليه خاص أعماله، مرسلاً له صوب المشرق لإنجاز مهمة سياسية لم تفصح المصادر عن فحواها. ومما زاد في حظوته لديه نجاحه في تنفيذ المهمة، فأصبح أثيراً لديه قريباً من نفسه حتى عده بمقام ابنه وولي عهده أبي القاسم محمد [12]. وأمر بتربية أبنائه (جعفر ويحيى) في البلاط الفاطمي [13].

ثالثاً: ولاية بني حمدون لأقاليم الزاب وبناء مدينة المسيلة:

ان مستوى الولاء الرفيع الذي أظهره علي بن حمدون للخلافة الناشئة والتفاني في خدمتها، أهلته لأن يكون أحد أركانها المتعمدين في تنفيذ سياساتها، فكانت ولايته على الزاب*، والعهد إليه في بناء مدينة المسيلة [14]، بداية لمشواره السياسي.

بناء مدينة المسيلة:

1 - قرار بناء مدينة المسيلة:

تصدى الفاطميون بعد قيام نظامهم الخلافي لفرض سيادتهم وانتزاع الطاعة من المغرب العربي المتعدد الولاءات والانتماءات بأوسطه وأقصاه.

ولتحقيق هذه الأغراض تولى أبو القاسم محمد (ولي العهد)، ومعه علي بن حمدون في عام 315 هـ / 927 م إخضاع قبائل زناتة، حلفاء الأمويين الأقوياء في المغرب الأوسط وأجبر زعيمها محمد بن خزر على الفرار أمامه نحو الصحراء، واستثمر انتصاره بالاندفاع إلى نواحي الريف من المغرب الأقصى مخضعاً في طريقه قبائل مزاته ومطماطه، وهوارة، وسائر الخوارج الإباضية والصفرية، وجراوة

الموالية لدولة الأدارسه (172 - 375هـ / 788 - 985 م) [15].

اعتقد ولي العهد أن حملته قد حققت أهدافها، فلم يشأ الاندفاع أكثر، مدركاً مخاطر الابتعاد عن قاعدة ملكه، فآثر العودة، وعند وادي (سهر) استوقفته أولى النتائج المتمخضة عن هذه الحملة، فأمر ببناء مدينة المسيلة حيث اختط موضعها، وأوكل مهمة بنائها إلى علي بن حمدون الذي خبر قدراته وإمكانياته عن قرب خلال هذه الحملة، وأطلق عليها اسم المحمدية تيمناً باسمه [16].

2 - أسباب بناء مدينة المسيلة:

أ - الأسباب العسكرية:

أشرنا سابقاً إلى أن أولى النتائج التي تمخضت عن الحملة التي اندفع فيها ولي العهد إلى أقاصي المغرب، إدراكه خطورة توغله بعيداً في وسط معادي ومناقض في الفكر والموقف، وليس وراءه أو قريباً منه، ما يحمي ظهره أو يمده بأسباب القوة إذا ما اجتمعت عليه القوى المناوئة، فضلاً عن قناعته بأن الولاء والطاعة اللذان انتزعهما بحد السيف لن يكتب لهما الدوام، طالما أنه سيعود بجيشه من حيث انطلق. فكان لابد من وجود قاعدة متقدمة في هذا الوسط المخالف، الشديد الشكيمة، والمتعدد الولاء يعينه من جهة على التواجد الدائم للقوة الفاطمية، بما يجعل معارضيها اكثر تردداً في إعلان مناوأتهم، وفي الوقت ذاته يوفر لقواته الوقت ويكفيها عناء الرحلة الطويلة من قواعدها في المهدية، إذا ما تطلب الظرف، ولعل اختيار موضع المدينة كافٍ لتفسير ما ذهبنا إليه إذ توسطت أراضي عجيسة، وبرزال وبني كهلان من هوارة، الخارجية الميول والانتماء، وغير بعيدة عن زناته [17].

لذا حرص أبو القاسم على الإسراع ببنائها وسط بطونهم، وقام بنقل البعض منهم من موقع بنائها إلى القيروان، وهم بنو كهلان، لأنه توقع الغدر منهم، فأراد أن يكونوا بالقرب منه وتحت نظره، وقد صدق ظنه فيهم، إذ عندما قام أبو يزيد بن كيداد* بثورته ضد الفاطميين كانوا في مقدمة المؤيدين له [18].

ب - العامل الاقتصادي:

لا بد أن خصوبة موقع المسلية كان عاملاً مشجعاً لبناء المدينة حيث يجري

فيه نهر وفير المياه يدعى بنهر (سهر) ساعد على كثرة وتنوع الغلات المزروعة على جانبيه، وقد أشار ابن حوقل إلى ذلك بالقول: " ولها واد يقال له وادي سهر فيه ماء عظيم فنبسط ... ولهم عليه كروم واجنة كثيرة تزيد على كفايتهم وحاجيتهم ... ومن غلاتهم القطن والحنطة والشعير، وتكثر عندهم المواشي من الدواب والأنعام والبقر " [19].

3 – تخطيط المدينة:

اشاد المؤرخون بحصانة المسيلة والتعزيزات العسكرية والغذائية التي رفدت بها [20]، إلاّ انهم لم يتفقوا على صورة المدينة وتخطيطها، إذ ذكر بأنها أحيطت بسور واحد من الطوب [21] وقيل سورين وجدول ماء، وأن الأخير يفصل بينهما، أو يحيط بهما [22].

ولعل هذا الاختلاف يعود إلى التفاوت الزمني في وصفها، إذ يبدو أنّ ابن حوقل قد اطلع على المدينة في ابتداء بنائها، وما خالفه به البكري وابن عذاري يعود إلى التطور الذي شهدته المدينة في الفترات اللاحقة. وعليه يفترض المنطق أنّ المدينة أحيطت في البداية بسور واحد، أضيف اليه سور ثان في فترة لاحقة وأحيط بجدول ماء.

على أية حال، أصبحت المدينة بعد أن استكملت تحصيناتها، ومرافقها، العاصمة السياسية والإدارية في المنطقة، متجاوزة مدينة طبنة عاصمة الزاب القديمة، التي فقدت مكانتها لصالح المسيلة التي أصبحت المركز التجاري والحضاري لعموم المنطقة الممتدة من باغاية شرقاً إلى تاهرت غرباً، فأصبح من الطبيعي أن تجتذب سكان المناطق المجاورة مما زاد في اتساعها وازدهار أوضاعها عامة [23]. ولا سيما في عهد جعفر بن علي بن حمدون وأخاه يحيى، حيث تمكنا من إقامة إمارة قوية ومزدهرة، ومقصداً للعلماء والشعراء أمثال شاعر الأندلس محمد بن هانئ [24] والشاعر أحمد بن محمد المروزي الذي قال في مدينة المسيلة: " ... ثم إلى المدينة مرضية سميت على التقى محمدية " [25].

تجسدت أولى المقاصد المرتجاة من إقامة هذه المدينة. ففي سنة 334هـ / 945م، أعلن أبو يزيد بن مخلد بن كيداد مناواته للفاطميين، ويبدو أن الخليفة القائم الفاطمي (322 - 339 - هـ / 933 - 945 م) استشعر خطورة الثورة،

وعدم قدرة الجيش المركزي على تطويقها، فأرسل إلى علي بن حمدون حاكم المسيلة، يدعوه للقدوم على رأس مدد كبير، فامتثل لأمره، وتوجه صوب المهدية، حاشداً في مساره ما أمكنه من القبائل الضاربة في طريقة حتى استقر في مدينة باجة[26] والتحمت قواته بأبي يزيد مخلد، ملحقة الهزيمة بهوارة، ومسيطرة على المدينة تيجست وباغاية [27]. وفي معركته الفاصلة إزاء أيوب بن أبي يزيد، مني بالهزيمة ودفع حياته ثمناً لانكساره بعد أن سقط من على ظهر جواده من جرفٍ عالٍ سنة 334 هـ / 945 م [28].

ونظراً لما أبداه علي بن حمدون من ولاءٍ مطلق للخلافة الفاطمية، فقد حفظ الخليفة إسماعيل المنصور الفاطمي (334 - 341 هـ / 945م - 952 م) مكانته ودور عائلته بأن أورث أولاده (جعفر ويحيى) حكم المسيلة والزاب [29].

اختار الخليفة أن يقود المعركة بنفسه للخطورة التي مثلتها الثورة بعد هذا الانتصار، فالتجأ إلى مدينة المسيلة قاعدة الفاطميين المتقدمة، حاشداً جندها وعساكرها، وخرج لمطاردة أبي يزيد إلاّ أن المرض أثناه عن المواصلة، فاستغل أبو يزيد الوضع فعاد لمحاصرة المسيلة، إلا أنه لم يتمكن من اقتحامها بما يؤكد مناعة أسوارها، لهذا سارع إلى رفع الحصار بعد أن دنت منه قوات الخليفة موغلاً في الجنوب حيث بلاد السودان، إلا أن بني كهلان رفضوا محالفته، بل أرغموه على العودة إلى جبال كتامة وعجيسة ليتحصن بها ولم يمنع ذلك الخليفة من معاودة ملاحقته حتى تمكن من قتله والقضاء على ثورته في محرم من عام 336 هـ / 947 م [30].

رابعاً: تصدي بني حمدون لحلفاء الخلافة الأموية في المغرب:

شكّل بنو حمدون سداً أمام خطر تحركات بنوخزر* الذين مثلوا أهم وأقوى حليف لبني أميه في المغرب العربي، واصطلوا بنار حربهم ففي عام 317 هـ / 929م، زحف أميرهم عبد الله بن خزر لمحاصرة قاعدة الفاطميين المستحدثة (مدينة المسيلة)، ويؤشر تحاشي حاكمها علي بن حمدون المواجهة، ضخامة القوة المهاجمة التي اضطرته للاعتصام بقلعة فيعة بجبل قرب المسيلة. وعلى الرغم من فشله في اقتحام المدينة والامساك بحاكمها، إلا أن عبد الله بن خزر أفلح في نيل تأييد القبائل الضاربة حول المدينة، مما شجعه للتوجه نحو مدينة تاهرت، قاعدة

الفاطميين في المغرب الأوسط، وأغار عليها، وقطع خط الإمدادات والميرة عنها [31].

وأكد الأمير محمد بن خزر حسن وثبات موقف قومه من الخلافة الأموية لسفير الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر (300 - 350 هـ / 912 - 961 م) المدعو (محمد بن عبد الله بن عيسى) الذي عبر إلى المغرب لتأكيد طاعة الخلافة الأموية، شارحاً له ما حققه قومه من انتصارات حجمت قوة الفاطميين وأعوانهم في المغرب، وتأكد للسفير الأموي بأن الأهداف الفاطمية لم تجد لها طريقاً ممهداً ليس فقط لتحقيق أطماعها في الأندلس، وإنما في جهة المغرب، حيث لم تفلح في ترسيخ أركانها [32].

أتاحت جرأة بنو خزر في مواجهتهم للفاطميين وأعوانهم، فرصة ليعلى بن محمد اليفرني - حليف الفاطميين - في الرجوع عن ولائه لهم ومبايعته للخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر عام 347 هـ / 958م، ربما لتحقيق مصالح ذاتية، فكان ذلك كافياً لإثارة غضب الخليفة الفاطمي المعز لدين الله (341 - 365هـ / 952 - 975م) مدركاً أن انفراط العقد الذي انتظم بيده، رغبة أو رهبة، سيعصف بالنتيجة بالكيان الفاطمي برمته، ولمنع ذلك وإيقافه لا بد من أن يكون رده موجعاً لخلفائه قبل أعدائه، يؤكد ذلك ضخامة الجيش الذي اوكل له هذه المهمة حيث اجتمع على قيادته أبرز قادته ومناصريه، وهم جوهر الصقلي، وجعفر بن علي بن حمدون حاكم المسيلة، وزيري بن مناد حاكم أشير، وقد أفلح هذا الجمع من إلحاق الهزيمة بيعلى بن محمد اليفرني، ومن ثم قتله، وأسر ولده (يعدو بن يفرن) ثم واصل تقدمه نحو فاس وسجلماسه. مجتاحاً كل من أعلن المناوئه وشتتهم لاجئين إلى حلفائهم في الأندلس وبضمنهم كان بنو يعلى اليفرني [33].

خامساً: خروج بنو حمدون عن طاعة الخلافة الفاطمية:

اعترفنا سابقاً بجهلنا بطبيعة الدوافع التي كانت وراء انحياز علي بن حمدون إلى صف الدعوة الفاطمية في المغرب، أكانت إعجاباً بالداعي الذي صحبه ورافقه في جولاته، أم إيماناً بمنطلقاتهم وفكرهم، أم تطلع إلى دور ومكانة في نظام توقع أن يكون له شأناً في المستقبل القريب، أم نزعة إلى مخالفة قبلية لأولئك الذين حددوا اتجاههم واختاروا مواقعهم إلى جانب هذه القوة أو تلك. وقد يكون هذا

الدافع أو ذاك أو كلها اجتمعت لتجعل من علي بن حمدون وقومه أشد الموالين تحمساً لنصرة الدعوة الفاطمية ودولتها لأكثر من نصف قرن.

كان هذا التاريخ الحافل كفيلاً بأن يتصدروا خيارات الخليفة الفاطمي المعز لدين الله، بأن يأتمنهم على ملكه في المغرب، عندما فرضت عليه توجهاته بالانتقال إلى مصر حيث المشرق المجال الحيوي لتوسعه، وتقويض خلافة بني العباس، لهذه الاعتبارات استدعى الخليفة الفاطمي جعفر بن علي بن حمدون، طالباً منه أن ينوب عنه في حكم المغرب، إلا أنه اشترط للقبول بأن قال للخليفة: " تترك معي أحد أولادك أو إخوتك جالساً في القصر، وأنا أدبر، ولا تسألني عن شيء من الأموال إن كان ما أجبيه بازاء ما أنفقه، وإذا أردت أمراً فعلته ولم انتظر ورود الأمر فيه لبعد ما بين مصر والمغرب، ويكون تقليد القضاء والخراج وغيره من قبل نفسي" [34].

وكان رد جعفر ينطوي على تطلع ونزوع نحو الانفراد في الحكم، تاركاً للخليفة الفاطمي هامشاً بسيطاً من النفوذ المعنوي، هذا ما استشعره الخليفة ذاته حين قال له: " يا جعفر عزلتني عن ملكي، وأردت أن تجعل لي شريكاً في أمري، واستبددت بالأموال والأعمال دوني" [35].

ولا ندري أي مبرر جعل جعفر يتعجل بالإفصاح عن تطلعاته، ولم يكتمها أو على الأقل يؤجلها إلى أن يحين الأوان، ربما كان مدفوعاً بشعور أحقيته دون غيره بهذا الامتياز لماله وعائلته من فضل في قيام النظام الخلافي الفاطمي. ولكن كان على ابن حمدون أن يدرك مسبقاً أن الخليفة لا يمكن القبول بهذا النزوع السافر، فهو بغض النظر عن دوره ومكانته لا يعدو بنظر الخليفة سوى تابعاً وليس حليفاً أو شريكاً، يؤكد ذلك أسلوب الخليفة بالرد عليه بقوله: " قم فقد أخطأت حظك وما أصبت رشدك " [36].

أبانت هذه المقابلة قصور المنظور السياسي لجعفر بن علي بن حمدون في كيفية التعامل مع مستجدات الأحداث وصولاً إلى تحقيق أهدافه، فجاء رد الخليفة محبطاً ومخيباً لآمال ربما داعبت مخيلة بني حمدون في أن يتصدروا الأمور في هكذا مواقف جزاء ولائهم وخدماتهم، بما أحدث قطيعة لا لقاء بعدها بالخلافة الفاطمية، بما أوجب على الأخيرة التفكير في خياراتٍ بديلة.

كان بلكين بن زيري زعيم صنهاجه مرشحاً محتملاً، إلاّ أن الخليفة المعز لدين الله لم يشأ تكرار تجربة ابن حمدون فيدفعه ردّ فعله إلى اصطناع عدو جديد، فأرسل إلى كتامة من يختبر موقفها وكيفية تعاملها مع ما أعرضه عليهم الخليفة بقوله: " يا إخواننا قد رأينا أن ننفذ رجالاً من قبلنا إلى بلدان كتامة يقيمون بينهم، ويأخذون صدقاتهم ومراعيهم ويحفظونها علينا في بلادهم، فإذا احتجنا إليها أنفذنا خلفها فاستعنا بها على ما نحن بسبيله" [37]. إلا أن كتامة اعتبرت ذلك إهانة لمكانتها ونكراناً لولائها تمثل ذلك برد بعض زعمائها بالقول: "قل لمولانا، والله لا فعلنا هذا أبداً، كيف تؤدي كتامة الجزيه، ويصير عليها في الديوان ضريبة؟ وقد اعزها الله قديماً بالإسلام، وحديثاً معكم بالإيمان، وسيوفنا بطاعتكم في المشرق والمغرب" [38].

لم يفاجأ الخليفة المعز بهذا الرد، وأراد أن يتحقق من موقفهم فطلب مواجهتهم، ربما أسفرت رؤية الخليفة موقفاً مرناً، إلا أنهم ثبتوا على مقالتهم حين فاتحهم بقوله: "ما هذا الجواب الذي صدر عنكم" [39] فكرروا عليه الجواب: "نعم هو جواب جماعتنا، ما كنا يا مولانا بالذي يؤدي جزية تبقى علينا" [40].

أيقن الخليفة أن كتامة غير مهيأة لامتثال ما يريد، لكنه لم يشأ استفزازهم في هذه المدة على الأقل، فأظهر قوله موقفاً مغايراً اضطر لكتمانه حرصاً على بقايا نفوذ يمنحه الوقت لترتيب أوضاعه في مصر، فرد عليهم قائلاً: " بارك الله فيكم فهكذا أريد أن تكونوا، وإنما أردت ان أجربكم، فانظروا كيف أنتم بعدي إذا سرنا عنكم إلى مصر، هل تقبلون هذا أو تفعلونه وتدخلون تحته ممن يرومه منكم، والآن سررتموني بارك الله فيكم " [41].

بهذا الموقف تضاءلت خيارات الخليفة المعز، إذ لم يبقَ أمامه سوى مرشحه المضموم بلكين بن زيري، الذي لم يكن أمامه سوى القبول أمام إصرار الخليفة عليه، إذ لم تجد نفعاً خشيته ومخاوفه من جسامة المسؤولية معبراً عن ذلك بقوله: " يامولانا أنت وآباوك الأئمة من ولد رسول الله (ﷺ) ما صفا لكم المغرب، فكيف يصفو لي أنا صنهاجي بربري، قتلتني يامولاي بلا سيف ولا رمح. " [42]، ولكن لا مناص يعد في ذهن الخليفة سواه، فقبل الأمر بشروط حازت موافقة الخليفة إذ عرض ذلك عليه بقوله: " يا مولانا بشريطة أن تولي القضاء والخراج

لمن تراه وتختاره، والخبر لمن تثق به، وتجعلني أنا قائماً بين أيديهم، فمن استعصى عليهم أمروني به حتى أعمل فيه ما يجب، ويكون الأمر لهم، وأنا خادم بين يديك " [43].

أصبح بلكين أميراً للفاطميين على المغرب، وعلى الرغم من الشكوك التي طرحت من بعض الآراء التي أشارت على الخليفة بعدم الركون والاطمئنان، إلاّ أن المعز كان مؤمناً بأن الوقت لن يطول حتى يخرج المغرب من تحت السيطرة الفاطمية [44]، لذا لم يكن مبتغاه من بلكين سوى الوقت، وحماية ظهره، كما أشرنا سابقاً، ولتوفير ضمانات ذلك، وعرقلة وتأخير ما يتطلع إليه بلكين من الانفراد في النفوذ، اتخذ المعز عدة إجراءات اعتقد أنها ستؤمن له الاطمئنان لبعض الوقت، حيث قام بتوزيع النفوذ بين صنهاجة، وكتامة التي منحها ولاية طرابلس، وبذلك زرع بذور التنافس بين القوى القبلية الكبيرة بما لا يسهل اتفاقها. كما اقتطع من مساحة نفوذهم جزيرة صقلية وأسندها لبني أبي الحسن الكلبي ليكون أسطولهم أداة طيعه في يد الفاطميين يهددون به زيري متى شاءوا [45].

ذهبنا بعيداً وراء الأحداث، لغرض أن نفهم مغزى المواقف التي ربما سيفرضها الواقع على بني حمدون، إذ أنّ تثبيت بلكين في الإمارة على المغرب تأكيد لما افترضناه من قطيعة بين الخلافة وبني حمدون، وكان بالإمكان أن ينتهي الموقف عند هذه الحدود، إذ ما ترك بني حمدون وشأنهم في مناطق نفوذهم، إلاّ أن تعرض بلكين المستمر لأعمال جعفر بن علي بن حمدون بفعل العداء الشخصي والتنافس على النفوذ، دفع بالمواقف إلى حيث تقتضي المصالح، لاسيما وأن المنطقة ميداناً لتنافس اتجاهات مختلفة معادية [46].

إن الضغط على بني حمدون دفعهم إلى إقامة تحالف وثيق مع قبيلة زناتة – حليفة الأمويين القوية في المغرب – وتوحيد إمكانياتهما في مواجهة قبيلة صنهاجة ممثلة الفاطميين، وقد كشف زيري بن مناد هذه العلاقة بعد الانتصار الذي حققه على زناتة، وقتل أميرها محمد بن الخير بن خزر، إذ اطلع على رسائل، كان جعفر بن علي قد أرسلها إلى زناتة، تتضمن معلومات عن تحركات زيري ومواطن ضعفه، فضلاً عن ذلك، فقد وجد عند محمد بن خزر فرساً لجعفر بن علي كان الخليفة قد منحه إياه، فاستغل ابن زيري ذلك لوسم جعفر عند الخليفة المعز

بالخيانة، مما جعل الأخير، يكتب بعزله عن المسيلة، ويستقدمه وأهله إلى المهدية [47].

لم يكن متوقعاً أن يرضخ بني حمدون لهذه الإرادة، لاسيما وأن الأمر لم يباغتهم، إذ وصل الخبر قبل مبعوث الخليفة، مما سمح لجعفر بن علي من الخروج بأهله وأمواله وسلاحه من المسيلة في جمادي الآخرة عام 360هـ / 971 م صوب حليفته زناتة [48].

سادساً: دخول بنو حمدون في طاعة الخلافة الأموية في الأندلس:

كان من الطبيعي أن تحتضن زناتة حليفها المطارد، مدفوعة بعدة اعتبارات، لعل أهمها أنه شريك جديد، وقوة عسكرية مضافة في صف المعارضة للحكم الفاطمي، فضلاً عن ما تفرضه القيم القبلية من حماية اللاجئين إليها. والأهم من ذلك، أن لا تغلق الطريق أمام القوى الأخرى الموالية للفاطميين إذا ما اختارت خيار آخر. .

ولكن المفاجأ أن تولى زناتة قيادتها لابن حمدون وتندرج تحت زعامته [49]، وهو في كل القياسات في موقف ضعيف لا يمكنه إلاّ من اللجوء والاحتماء. ويبدو لي أن سبب ذلك اعتباري، أكثر منه عسكري أو قبلي، فهو قد خرج من المسيلة مهزوماً باهله وماله، ومطارداً من الخلافة وممثليها، وإن لجوئه إلى زناتة يوضح غياب العصبية القبلية التي تحتضنه وتحميه.

أثار هذا التحالف مخاوف زيري بن مناد بما جعله يتعجل في مواجهتهم في معركة فاصلة، دفع حياته وعدد كبير من رجاله ثمناً لسوء التقدير عند نهر الملوية، وذلك في رمضان سنة 360 هـ / 970م [50]. وكان هذا الانتصار مدعاة لأن يجدد هذا التحالف ولائه للخلافة الأموية، وتذكيرها بأنهم قوتها الضاربة إزاء مناوئيها في المغرب. فقوبل وفد زناتة برئاسية يحيى بن علي بن حمدون العابر إلى الأندلس بحفاوة كبيرة تقدمها الخليفة الحكم المستنصر (350 - 366 هـ / 961 - 976 م) ورجال دولته، بما يؤشر سرور الخلافة الأموية بمسار الأحداث [51].

أدرك الخليفة المعز الفاطمي. انعكاسات منحى التطور على نفوذه السياسي والعسكري، بما يشكل خطراً ليس على الوجود الفاطمي في المغرب وإنما على أهدافه في المشرق، لذلك سارع إلى تطويق ووقف هذا الانهيار فأوعز إلى

بلكين بن زيري للقيام بالمهمة بعد أن وسع ملكه في ضم المسيلة والزاب إليه، ودعمه بالأموال والرجال والسلاح في مستهل عام 361 هـ / 971م بما أوحى لزناته وحليفها بأن الخلافة الفاطمية بإمكانياتها قد تفرغت له، فأصبحت كفه الميزان لصالح صنهاجه وزعيمها بلكين المدعوم بلا حساب من قبل الخلافة الفاطمية، وهذا ما جعل زنانة تحتاط للحفاظ على مصالحها ووجودها بما جعلها تفكر للخروج من هذا المأزق بأقل الخسائر التي تمكنها من الاستمرار ولتحقيق ذلك لا بد من أن تتخلى عن طريد الخلافة الفاطمية وعدوها. وقد استشعر جعفر بن حمدون بالتحول في موقف زنانة، وإنها تضمر الغدر والمكيدة وربما تسليمه لبلكين بن زيري ثمناً لعدم التعرض لها. فضاق عليه الخناق، ولم يعد أمامه سوى مغادرة المغرب بأسره، فتمكن من تهريب أهله وأمواله إلى الأندلس، ومن ثم اللحاق بهم، وقد حفظت له الخلافة الأموية موقفه السابق في الانتصار لسياستهم في المغرب، إذ استقبله الخليفة الحكم المستنصر وبالغ في إكرامه، وأهله، وخصص لهم الرواتب [52]. ونظمهم في طبقات الوزراء، وأسند لهم الوظائف العليا في الدولة [53]. ليكونوا ذخراً لقابل الأيام.

واستغل وجوده في شن حملة دعائية مناوئة للخلافة الفاطمية من جهة، والتذكير بأحقية أموي الأندلس بميراث أجدادهم في المغرب من ذلك ما جاء في قصيدة للشاعر محمد بن مطرف بن شخيص الذي قال:

بأيمن إقبال وأسعد طائر ... تباشر محتوم من الأمر واقع
توافت بملك من معدٍ مقوض ... لملكٍ إلى مهدي مروان راجع
فيالك من بشرى سرور تضمنت ... بلوغ الأماني عن سعود الطوالع
لعمري لقد أيدت وقيعة جعفرٍ ... ويحيى إلى الشيعي أخرى الوقائع [54]

أولاً: بنو حمدون على عهد الخليفة الحكم المستنصر (350 – 366هـ / 961 – 976م)

1 – مشاركة يحيى بن علي في القضاء على ثورة الحسن بن كنون الادريسي:

كان وقوع الأدارسة (172 - 375 هـ / 788 - 985 م) بين قوتين كبيرتين،

الخلافة الأموية في الأندلس، والفاطمية وحلفائها في المغرب سبباً فرضته الجغرافية والاعتبارات السياسية والعسكرية، لوصف سياستها الخارجية بعدم الثبات على اتجاه واحد. شأنها في ذلك شأن كل قوة صغيرة تتوسط قوتين كبيرتين، بما يمنح مواقفها مرونة باللجوء إلى الجهة التي توفر لها البقاء. متطلعة على الدوام إلى الاستقلال إذا ما انشغل الآخرين عنها.

كان الأدارسة يدينون بالولاء للخلافة الأموية منذ عهد الخليفة الناصر، واستمر الوضع دون تغيير حتى سنة 362هـ / 972م، في عهد الحكم المستنصر. إلاّ أنّ هذا العام قد شهد تحولات على واقع الخارطة السياسية في المغرب حقق نجاحات ملموسة لصالح الخلافة الفاطمية، بعد اجتياح بلكين بن زيري للمغرب الأقصى فارضاً عليه النفوذ الفاطمي، وفي مثل هكذا ظروف تبرز المصالح الذاتية فوق كل اعتبار، هذا ما جعل الحسن بن كنون حاكم الأدارسه، من أن يعلن ولاءه للفاطميين بحكم الأمر الواقع، ويخلع طاعة الأمويين، ويسيطر على مواقع ستراتيجيه تابعة لحكمهم في المغرب الأقصى كمدينة (تطوان وطنجة وأصيلا) غير مكترث بردة فعلهم [55].

لم يتقبل الخليفة الأموي الحكم خسارته لمواقع نفوذه المتقدم في المغرب بما يمهد لانسحابه من ميدان التنافس على هذا الإقليم، وهذا ما جعله يحشد قوات كبيرة بريه وبحريه لاستعادة ما خسره من نفوذ في المغرب الأقصى وفرض الطاعة على ابن كنون ورفد هذا الحشد بأكثر من مدد كان على قيادة أحدها يحيى بن علي بن حمدون الذي أثار تكليف الخليفة له غبطته للثقة التي أولاها إياه، فانضم بمن معه بعد عبوره إلى قائد الجيش الأموي غالب بن عبد الرحمن، وألحق الهزيمة بابن كنون الذي اضطر لطلب العفو، وأبدى الخضوع والطاعة للحكم المستنصر [56].

2 - نكبة بني حمدون:

شهدت سنة 363هـ/973م فتوراً في العلاقة بين الخلافة الأموية وبني حمدون، تطور إلى تغير في موقف الخلافة منهم، سببه حادثة أوردتها المصادر فحواها أن الخليفة الحكم، اتفق مع جعفر ويحيى (أولاد حمدون) على أن يبيعوه عبيدهم، وأوكل المهمة إلى صاحب الخيل والحشم (زياد بن أفلح) لإنجاز ذلك،

إلاّ أن أولاد علي نقضا الاتفاق، واستخفا بأمره، وتعديا حدود الأدب واللياقة في حديثهما، وبعد اطلاع الخليفة على هذه المجريات أمر باعتقالهما في سجن الدويرة بمدينة الزهراء بهدف تأديبهم وكسر شوعتهم [57].

هذا ملخص ما أوردته المصادر عن هذه الحادثة، ويفرض المنطق التوقف على مدى جدية ومعقولية هذا الموقف لكلا الطرفين. فما الذي كان يبغيه الخليفة من تجريد بني حمدون من عبيدهم، وهل كان بحاجة إلى عبيدهم، وما الذي دفع بنو حمدون على أن ينقضوا اتفاقاً أقروه، وما هو المبرر للتجاوز وهم ينعمون بإكرام الخليفة وحظوته.

ليس هناك إشارة تفسر ما اختفى من أهداف ومقاصد وراء هذه الحادثة التي لا نجد لها مبرراً منطقياً، سوى أن نفترض أن الخليفة الحكم قد أقلقه تعاظم نفوذ بني حمدون من خلال تزايد أتباعهم وعبيدهم، بما أشعره بخطورة ذلك على ولائهم وسلطته عليهم، ومن جانبهم أدركوا هذا المقصد بما دفعهم للتحلل من اتفاقهم والغضب لمكانتهم وما قدموه من خدمات للخلافة الأموية.

إن أصاب هذا الافتراض أو اخطأ، فإن بني حمدون يكررون ذات الخطأ الذي وقعوا به في تعاملهم مع الخليفة الفاطمي.

وعلى أية حال استمر اعتقال بني حمدون حتى أفرج عنهم في 18 رجب من عام 364هـ / 974م بعد عفو الخليفة عنهم [58]، ولا ندري أيضاً ما الذي دفع الخليفة إلى هذا العفو، وإعادة الإعتبار لهم والمبالغة في تكريمهم، هل تحقق الغرض، أم استدعت الحاجة لهم.

3 - ولاية بني حمدون على المغرب:

أسند الخليفة الحكم إمارة المغرب الأقصى لأولاد حمدون (جعفر ويحيى) ولا يمكن أن يكون ذلك تكريماً لهما وتعويضاً عن ما أصابهما، وربما استهدف الخليفة تحقيق غرضين في آن واحد، أولهما: إبعاد بني حمدون عن الأندلس للتخلص مما قد يثيروه من مشاكل، وما يتوقع منهم على الخلافة. وثانيهما: رغبة الخلافة في الاستفادة من خبرة بني حمدون وعلاقتهم القبلية في المغرب المستمدة من نشاطهم الطويل في المنطقة، وتسخير ذلك في فرض السيادة الأموية في المغرب الأقصى، ووقف زحف بلكين الصنهاجي (حليف الفاطميين) ولتحقيق ذلك

استدعى عامله على المغرب الأقصى (يحيى بن محمد بن هاشم) وأسند إليه مهمة الدفاع عن الثغور من هجمات الممالك الأسبانية الشمالية، ليحل محله جعفر ويحيى المدعومين مجدداً من الخليفة، والمرسلين بهداياها إلى مختلف القبائل، وفي مقدمتهم الحليفة القديمة زنانة [59].

باشر بنو حمدون حكم المغرب الأقصى عام 365هـ / 975م ساعين لاستعادة ما كان لهم من مكانة ونفوذ وتدعيمها بولاء ومساندة بقية أمراء قبائل المغرب أمثال يدو بن يعلى بن محمد زعيم بني يفرم، وزيري ومقاتل أبناء عطيو زعماء مغراوة، وبني البوري زعماء مكناسة، وغيرهم من بني مرين وبني مروة، وقد أفلح هذا التحالف القبلي المدعوم أموياً، من وضع حد لتقدم بلكين الصنهاجي، والنفوذ الفاطمي نحو المغرب الأقصى [60].

ثانياً: بنو حمدون على عصر الحاجب المنصور بن أبي عامر (366 - 392هـ / 976 - 1001م)

استمرت ولاية بني حمدون على المغرب الأقصى إلى عام 367هـ / 977 م، حيث وصل أمر الحاجب المنصور إلى جعفر بن علي بترك المغرب والعودة إلى الأندلس [61]، ويبدو أن المنصور استهدف الاستعانة بما لدية من قوة لمواجهة منافسة على حكم الأندلس غالب عبد الرحمن*.

لم يكن يسيراً على جعفر مغادرة مركز قوته ونفوذه والتخلي عنه والعودة إلى الأندلس، لاسيما وأنه لم ينس ما عاناه من نكبته [62]، إلاّ أن تواتر كتب الحاجب المنصور اليه [63]، واهتزاز مركزه، والخشية على فقدان نفوذه في المغرب الأقصى جعله ينصاع لأمر الحاجب المنصور في القدوم عليه، إذ بلغ الخلاف بين الأموين مداه بما جعل يحيى ينفصل عن أخيه بمدينة البصرة وما وراءها، فضلاً عن ذلك فقد مني جعفر بهزيمة قاسية امام بزغواطه* نفذ منها بصعوبة، وهذا ما سهل عليه أمر التخلي عن المغرب الأقصى لأخيه يحيى، والعبور إلى الأندلس عام 367 هـ / 977 م [64].

كان منتظراً من الحاجب المنصور أن يحسن استقباله ويعظم من شأنه بل رتبه وزيراً له، متخذاً من القوة التي عبرت معه من بني برزال * المقدره بستمائة مقاتل سنداً دعم سياسته وعضد نفوذه في الأندلس [65].

وتدور الأحداث في المغرب الأقصى، لتلقي بجعفر بن علي في خضمها مرة أخرى ففي عام 369هـ / 979م تقهقر الحلف الأموي (زنانة ويحيى بن علي) أمام اجتياح بلكين بن زيري الذي أحاط سبته بطوق، وهم بداخلها.

ويبدو أن بلكين لم يكن يستهدف الهيمنة على المغرب الأقصى وإنهاء النفوذ الأموي فحسب، بل تطلع من خلال السيطرة على سبته، من تهديد الأمويين في عقر دارهم، مما جعل الحاجب المنصور يتعجل نجدة حلفائه المحاصرين، ولإبعاد ما يحدق ببلاده من خطر، فانتقل بعساكره إلى الجزيرة الخضراء متخذها قاعدة متقدمة للإشراف على العمليات في المغرب الأقصى، وأوعز لجعفر بن علي بالعبور لمواجهة بلكين بن زيري [66].

نزل جعفر بساحة سبتة وانضوى تحت قيادته زعماء زناتة ويبدو أن قوة هذا الحشد، قد جعلت بلكين الذي أشرف على سبتة، بعد صعود جبال تطوان أن يؤجل المواجهة، مفضلاً الانسحاب لجنده إلى أفريقية، إلاّ أنه لم يفوت الفرصة للتعبير عن حقده لبني حمدون لموالاتهم للأمويين، إذ أحدث الخراب في مدينة البصرة، معقل يحيى بن حمدون. وبعد أن نجح جعفر في إنقاذ المغرب الأقصى دون أن يدخل في معركة، يصله أمر الحاجب المنصور بالعودة بقواته إلى الأندلس في عام 372هـ / 982م [67].

ثالثاً: نهاية بني حمدون:

يبدو من خلال قراءة لأحداث الأندلس خلال هذه المدة، وصراع القوى المتنافسة للانفراد بالنفوذ فيها، أن الحاجب المنصور قد نجح في تثبيت أقدامه وإزاحة خصومه بما مكنه من أن يحظى بالسلطة كحاكم أوحد، ولعل أحد وسائله المسخرة لبلوغ القمة، كان جعفر بن علي بن حمدون، الذي استدعاه لهذا الغرض منذ عام 367هـ / 977م، واستنفذت السنوات الخمس المنصرمة مبررات وجوده إلى جانب الحاجب المنصور الذي كما يبدو لا يطيق إلى جانبه قوة أخرى تفقده الاطمئنان فكان قرار الخلاص من حليف الأمس الذي لم تشفع له خدماته لشخص المنصور خاصة، وللخلافة الأموية عامة.

ولأن احتمال قتله بشكل سافر قد يولد انعكاسات سلبية، ذلك لأنه ليس شخصاً مغموراً، بل إن تاريخه وعائلته كاف لأن يجعل منه أحد الرموز التي

استقطبت الأتباع والأنصار، فقتله ربما أحدث ردة فعل غاضبة، ليس من قبل أتباعه من بني برزال فحسب، بل في الطرف الآخر، حيث أهله في المغرب الأقصى لكل ذلك اتخذ الحاجب المنصور من الترتيبات ما ينأى بنفسه عن هذه الجريمة فأوعز إلى أبا الأحوص معن بن عبد العزيز التجيبي لقتله، وهو يغادر دعوة عشاء أخيرة أقامها له المنصور، فقتل جعفر غيلة عام 372هـ / 982م، أعقبه أبا الأحوص الذي دفنت معه حقيقة المؤامرة وأطرافها [68].

وكان ادعاء الحاجب المنصور الأسى والحزن على جعفر وتقريب أنصاره من بني برزال، وإغداق المناصب عليهم، كافية لأن ينأى بنفسه عن الشكوك [69].

أما عن مصير أخيه يحيى بن علي وأهله وعشيرته في المغرب الأقصى فلا ندري ما الذي جعل المؤرخون لا يدونون ما أعقب الاغتيال من تطورات أهو خشية السلطة، أم أنّ الأمر لم يكن يعنيهم، بحيث يغيب الحدث قرابة ربع قرن لتنجلي الحقيقة في خلع يحيى بن علي طاعة الأمويين والانحياز مجدداً إلى طاعة الفاطميين، في إشارة أوردها ابن خلدون في حوادث سنة 391 هـ / 1000م، ثم ينقطع ذكرهم بعد ذلك، حيث ذكر بأن الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (386 - 411هـ /996ـ 1020م) أرسل من مصر يحيى بن علي بن حمدون، وعقد له على ولاية طرابلس وقابس، ولكن ولايته لم تدم، إذ عاد مجدداً إلى مصر، بعد أن تمكن فلفول بن سعيد أحد أمراء زناتة من الاستبداد بعمل طرابلس [70].

من خلال ما تقدم نستنتج بأن الاعتبارات المصلحية وضعت نهاية بني حمدون الذين اختاروا لأن يكونوا ورقة في حسابات القوى الكبرى المتنافسة في المغرب، فارتأوا في بداية المشوار الطريق الفاطمي، أملاً منهم في أن يحققوا ما يصبون إليه ثمناً لما قدموه من جهود وخدمات للخلافة الفاطمية، إلا أن خطأ حساباتهم وافتقادهم لمنظور سياسي يتقبل مرونة وقتية في المواقف كاد أن يقضي عليهم مما دفعهم إلى إعادة النظر في حساباتهم وولاءاتهم، فلم يكن أمامهم سوى الخيار الثاني (الخلافة الأموية) ملاذاً لهم إعادة اعتبارهم ورغبة منهم في الحصول على ما لم يتمكنوا من الحصول عليه من الخلافة الفاطمية، إلاّ أنهم أخطأوا مجدداً، عندما ذهبوا مرة أخرى بعيداً في هذا الاتجاه، فكانت نهايتهم على يد الخلافة الأموية. وهكذا قضي على أحلام وتطلعات أسرة أرادت أن يكون لها شأن من خلال تأرجحها في مواقفها مع القوى الكبرى.

هوامش البحث:

(1) أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، (الأسكندرية، مؤسسة الثقافة الجامعية، د. ت)، ص 194؛ محمود علي مكي، التشيع في الأندلس منذ الفتح حتى نهاية الدولة الأموية، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، (مدريد، المجلد 2، 1954)، ص 19.

(2) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، نشر: لافوينتي القنطرة، (مدريد: 1867)، ص 146؛ محمد ابن عبد الله بن أبي بكر القضاعي بن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، عني بنشره: السيد عزت العطار الحسني (مصر، مطبعة السعادة، 1956): 1/ 173، 174؛ أبو العباس أحمد بن محمد بن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج. س، كولان، وليفي بروفنسال، (بيروت، دار الثقافة، 1980): 1 / 162، 163.

(3) عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي بن الفرضي، تاريخ العلماء والرواة، (ط 2، القاهرة، مطبعة المدني، 1988): 1 / 74، 75؛ ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة: 2 / 670.

(4) ابن الفرضي، تاريخ العلماء والرواة: 1 / 75؛ ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة: 2 / 670؛ ابن عذاري، البيان: 1 / 163، 169.

(5) ينظر: عبد الواحد ذنون طه، " الأندلس من خلال كتاب صورة الأرض لابن حوقل "، بحث منشور ضمن كتاب دراسات أندلسية، (ط 1، الموصل، دار الكتب للطباعة والنشر، 1986)، ص 105 - 119.

(6) ينظر: أبو القاسم محمد بن علي بن حوقل، صورة الأرض، (بيروت، دار مكتبة الحياة، د. ت)، ص 104، 105، 108.

(7) أبو مروان حيان بن خلف بن حيان، المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق: عبد الرحمن علي الحجي، (بيروت، دار الثقافة، د. ت)، ص 33؛ ويقارن: بأبي عبد الله محمد الصنهاجي، أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق: جلول أحمد البلوي، (الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984)، ص 24؛ عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، (بيروت، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، 1979): 4 / 82.

(8) ابن حيان، المقتبس، تحقيق: الحجي، ص 33.

(9) المصدر نفسه، تحقيق: الحجي، ص 34؛ ابن عذاري: البيان: 2 / 242.

(10) ابن حيان، المقتبس، تحقيق: الحجي، ص 34، 35.

(11) العبر: 4 / 82.

(12) ابن حيان، المقتبس، تحقيق: الحجي، ص 34؛ ابن عذاري، البيان: 2 / 242.

(13) ابن خلدون، العبر: 4 / 82.

=

* بلاد الزاب: من أعمال المغرب الأدنى، تقع على طرف الصحراء، وهي عبارة عن مدن كثيرة، وعمائر تكثر فيها الأنهار والعيون. ينظر: مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر: سعد زغلول عبد الحميد، (بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 1986)، ص 171.

(14) ابن حيان، المقتبس، تحقيق: الحجي، ص 34؛ ابن خلدون، العبر: 4 / 82.

(15) الصنهاجي، أخبار ملوك بني عبيد، ص 24؛ ابن خلدون، العبر: 4 / 38؛ تقي الدين أحمد بن علي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق: جمال الدين الشيال، (القاهرة: 1967): 1 / 72.

(16) الصنهاجي، أخبار ملوك بني عبيدة، ص 24؛ ابن خلدون، العبر: 4 / 82؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا: 1 / 1 / 72؛ وقارن: ابن عذاري، البيان: 1 / 190 (إذ ينفرد في الإشارة إلى أن الإمام عبيد الله المهدي هو من بني المدينة، ونرى أنه لا يوجد تعارض في ذلك لأنه بلا شك أن ولي عهده أبي القاسم بنى المدينة بأمر وموافقة والده عبيد الله المهدي).

(17) أبو عبيد البكري، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب من كتاب المسالك والممالك، نشر: دي سلان، (الجزائر، 1857)، ص 59؛ ابن عذاري، البيان: 1 /190، 3 / 267، 268؛ وينظر: مرمول محمد الصالح، السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي، (الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1983)، ص 296.

* أبو يزيد بن كيداد بن سعد الله بن مغيث بن كرمان بن مخلد بن عثمان بن وريمت بن تيفراسن من قبيلة يفرن الزناتية، ولد ونشأ بتوزر وتعلم القرآن، واتصل بإباضية الذكارية فمال إلى مذهبهم وأخذ به، وتلقب بصاحب الحمار، وبشيخ المؤمنين. ينظر: ابن عذاري، البيان: 1 / 216، 217؛ ابن خلدون، العبر: 4 / 40، 41.

(18) المصدر نفسه: 4 / 39؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا: 1 / 72.

(19) صورة الأرض، ص 85؛ ويقارن: البكري، المغرب، ص 59؛ الاستبصار، ص 171، 172؛ أبي الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، تحقيق: إسماعيل العربي، (بيروت، المكتب التجاري للطباعة والنشر، 1970)، ص 126.

(20) الصنهاجي، أخبار ملوك بني عبيد، ص 24، 25؛ ابن خلدون، العبر: 4 / 39؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا: 1 / 72.

(21) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 85.

(22) البكري، المغرب، ص 95؛ ابن عذاري، البيان: 1 / 190.

(23) ينظر: محمد الصالح، السياسة الداخلية، ص 298، 299.

(24) الاستبصار، ص 172؛ ابن خلدون، العبر: 4 / 83.

(25) الصنهاجي، أخبار ملوك بني عبيد، هامش (4)، ص 24.

(26) ابن حيان، المقتبس، تحقيق: الحجي، ص 34، 35.

(27) ابن خلدون، العبر: 4 / 42.

=

(28) ابن حيان، المقتبس، تحقيق: الحجي، ص 34، 35؛ ابن خلدون، العبر: 4 / 82، 83؛ الصنهاجي، أخبار ملوك بني عبيد، ص 31.
(29) ابن خلدون، العبر: 4 / 83.
(30) الصنهاجي، أخبار ملوك بني عبيد، ص 38 - 45؛ ابن خلدون، العبر: 4 / 44، 82.
* بنو خزر: بطن من قبيلة مغراوة الزناتية إحدى قبائل البربر البتر، تركز سكنهم في المغرب الأوسط من شلف إلى تلمسان إلى جبل مديولة، كان جدهم الأعلى (صقلاب بن وزمار) كان أميراً على مغراوة وسائر زناتة قبل التحرير العربي الإسلامي للمغرب، أسلم على يدي الخليفة عثمان بن عفان (ﷺ)، وحسن إسلامه وأبقاه على ملكه في قومه، وبعد وفاته تولى حفيده الزعامة، ولمّا توفي، تولى ابنه خزر الزعامة، ومنذ ذلك الحين أعطى بنو خزر ولاءهم لبني أمية، وساندوا الخلافة الأموية في الأندلس.
ينظر: ابن حيان القرطبي، المقتبس في أخبار رجال الأندلس، نشر: ب شالميتا بالتعاون لضبطه وتحقيقه مع ف. كورينطي، و م. صبح وغيرهم (مدريد، المعهد الأسباني العربي للثقافة، كلية الآداب، الرباط، 1979): 5 / 257؛ ابن خلدون العبر: 7 / 224. وللمزيد ينظر: نهلة شهاب أحمد، " بنو خزر وعلاقتهم بالخلافتين الأموية والفاطمية خلال القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، مجلة كلية التربية والعلم، عدد 20، السنة 1997، ص 264 - 272.
(31) ابن حيان، المقتبس، تحقيق: شالميتا: 5 / 259.
(32) المصدر نفسه: 5 / 258، 259.
(33) ابن خلدون، العبر: 46/4، 47؛ وقارن: عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، (الأسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، د. ت)، ص 547.
(34) المقريزي، اتعاظ الحنفا: 1 / 99.
(35) المصدر نفسه: 1 / 99.
(36) المصدر نفسه: 1 / 99.
(37) المصدر نفسه: 1 / 98.
(38) المصدر نفسه: 1 / 98.
(39) المصدر نفسه: 1 / 98.
(40) المصدر نفسه: 1 / 98.
(41) المصدر نفسه: 1 / 98؛ وقارن: عبد العزيز فيلالي، العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب، (الجزائر، الشركة الوطنية، 1982)، ص 190، 191.
(42) المقريزي، اتعاظ الحنفا: 1 / 99.
(43) المصدر نفسه: 1 / 99.
(44) المصدر نفسه: 1 / 99، 100.
(45) ابن خلدون، العبر: 6 / 155؛ يقارن: الفيلالي، العلاقات السياسية، ص 192، 193.

=

=

(46) ابن حيان، تحقيق: الحجي، ص 37؛ عز الدين بن الأثير، الكامل في التاريخ، (بيروت، دار صادر، 1966): 8 / 625؛ مؤلف مجهول، مفاخر البربر، ص 6، 7؛ ابن خلدون، العبر: 6 / 154، 7 / 38.

(47) ابن حيان، تحقيق: الحجي، ص 35، 36.

(48) المصدر نفسه، تحقيق: الحجي، ص 35، 36.

(49) المصدر نفسه، تحقيق: الحجي، ص 35، 36.

(50) المصدر نفسه، تحقيق: الحجي، ص 35، 36؛ ابن الأثير، الكامل: 8 /625؛ مؤلف مجهول، مفاخر البربر، ص 7.

(51) ابن حيان، المقتبس، تحقيق: : الحجي، ص 37 - 41؛ ابن عذاري، البيان: 2 / 242 - 244؛ مؤلف مجهول، مفاخر البربر، ص 7؛ ابن خلدون، العبر: 6 / 155.

(52) ابن حيان، المقتبس، تحقيق: الحجي، ص 39 - 53، 82، 119؛ ابن الأثير، الكامل: 8 / 625؛ ابن عذاري، البيان: 2 / 243، 244؛ مؤلف مجهول، مفاخر البربر، ص 7، 8؛ ابن خلدون، العبر: 6 / 154، 155.

(53) المصدر نفسه: 4 / 83.

(54) ابن حيان، المقتبس، تحقيق: الحجي، ص 54.

(55) ابن عذاري، البيان: 244/2، 245؛ مؤلف مجهول، مفاخر البربر، ص 8، 9؛ ابن خلدون، العبر: 6 / 218؛ أحمد بن خالد الناصري السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري، ومحمد الناصر، (الدار البيضاء، 1954): 1 / 200.

(56) لمزيد من التفاصيل، ينظر: ابن حيان، المقتبس، تحقيق: الحجي، ص 130 - 150.

(57) المصدر نفسه، تحقيق: الحجي، ص 171 - 174؛ ابن خلدون، العبر: 4 / 83.

(58) ابن حيان، المقتبس، تحقيق: الحجي، ص 173، 174.

(59) مؤلف مجهول، مفاخر البربر، ص 13، 14؛ ابن خلدون، العبر: 4 / 83، 84.

(60) مؤلف مجهول، مفاخر البربر، ص 14؛ ابن خلدون، العبر: 4 / 84.

(61) ابن عذاري، البيان: 2 / 278.

* لقد استخدم الحاجب المنصور، سياسة الغاية تبرر الوسيلة في القضاء على جميع منافسيه الواحد تلو الآخر، يهدف الوصول إلى مبتغاه في السيطرة على مقاليد الحكم في الأندلس، والحجر على الخليفة هشام المؤيد. لمزيد من التفاصيل عن هذه السياسة وكيفية تنفيذها، ينظر: العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص 244 - 246.

(62) مؤلف مجهول، مفاخر البربر، ص 15.

(63) ابن عذاري، البيان: 2 / 278.

* إمارة برغواطة: قامت في النصف الأول من القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي بإقليم تامستا بالمغرب الأقصى في الأراضي الممتدة على طول ريف المحيط من سلا شمالاً إلى المدينة أسفي جنوباً، ويعود تأسيس هذه الإمارة إلى صالح بن طريف بن شمعون البرباطي

=

=

اليهودي، دخل الإسلام، ثم ارتد، وادعى النبوة، وأوجد ديانة جديدة للبرغواطيين، فكرههم المسلمون في المغرب والأندلس، لمروقهم عن الإسلام، وأوجبوا قتالهم، فكانت نهايتهم على يد المرابطين. ينظر: مؤلف مجهول، الاستبصار، ص 197 - 200؛ ابن خلدون، العبر: 2 / 207 - 210.

(64) مؤلف مجهول، مفاخر البربر، ص 15.

* بنو برزال: أحد بطون زناتة، كان سكناهم بأفريقية عند جبل سالات وما إليه من أعمال المسيلة، اتخذوا المذهب الخارجي الإباضي، وأيدوا ثورة أبو يزيد مخلد بن كيداد ضد الخلافة الفاطمية، ثم استقام أمرهم على طاعة الفاطميين وموالاة جعفر بن علي حتى صاروا له شيعاً، ولما انتفض جعفر بن علي ضد الفاطميين في عام 360 هـ / 970 م، وقفوا إلى جانبه، وعبروا معه المضيق إلى الأندلس أيام الخليفة الحكم المستنصر، فاستخدمهم ونظمهم في طبقات جنده لما اشتهروا به من شجاعة وبأس وحسن طاعة، ولما أراد المنصور الاستبداد على خليفته هشام المؤيد، وتوقع الأذى من رجالات الدولة وموالي الخليفة الحكم المستنصر، اعتمد عليهم واستكثر منهم، ونظمهم في طبقات جنده. ينظر: ابن خلدون، العبر: 7 / 52، 53.

(65) ابن عذاري، البيان: 2 / 278، 279؛ مؤلف مجهول، مفاخر البربر، ص 15؛ ابن خلدون، العبر: 7 / 53.

(66) مؤلف مجهول، مفاخر البربر، ص 17، 18؛ ابن خلدون، العبر: 6 / 156، 7 / 28، 29؛ السلاوي، الاستقصا: 1 / 208.

(67) مؤلف مجهول، مفاخر البربر، ص 18؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 101؛ ابن خلدون، العبر: 6 / 156، 7 / 29؛ السلاوي، الاستقصا: 1 / 208.

(68) ابن عذاري، البيان: 2 / 279، 280، 281.

(69) ابن خلدون، العبر: 7 / 54.

(70) المصدر نفسه: 7 / 41.

إمارة العزفيين في سبتة

647 - 728 هـ / 1239 - 1327 م

قيام الإمارة:

شكّلت حالة الضعف والوهن التي دبت في أوصال جسم دولة الموحدين، وبوجه خاص بعد موقعة العقاب سنة 609 هـ / 1212 م * دافعاً قوياً لتحويل بعض مدن المغرب العربي ومنها سبتة عن طاعتها وتقديم ولائها لقوة جديدة تمثلت بالدولة الحفصية التي قامت في أفريقية (تونس) سنة 625 هـ / 1227 م، إذ تقدم أهالي سبتة وأرسل حاكمها المعروف بـ (ابن خلاص البلنسي) سنة 643 هـ / 1245 م، وفداً برئاسة ابنه في أسطول يحمل هدية إلى الأمير أبي زكريا يحيى الحفصي، ولكن الأسطول غرق بما فيه وكان رد الأمير الحفصي ارسال (ابن أبي خالد البلنسي، وابن الشهيد الهنتاني) لحكم سبتة وذلك في سنة 644 هـ / 1246 م [1]، ولكن أبي خالد تمادى في ظلمه وطغيانه لأهل سبتة وهذا ما أثار الحقد والضغينة بينه وبين قائد الأسطول (أبي العباس أحمد الرانداحي) *، ولما توفي الأمير أبو زكريا الحفصي وبويع ابنه الملقب بالمستنصر وجد السبتيون الفرصة للتخلص من تبعيتهم للحفصيين بعد أن ضاقوا ذرعاً من ظلم وجور ابن أبي خالد، وتغافل ابن الشهيد، فاجتمع القائد الرانداحي مع الفقيه أبي القاسم العزفي * الذي ترجع إليه أصول الأسرة العزفية وحرّضه على التخلص من ابن أبي خالد وابن الشهيد وجعل رئاسة سبتة بيده، ووعده بأخذ الأمر على عاتقه وتحقيق هذه المهمة بنفسه ووافقه أبو القاسم العزفي وقام الرانداحي بوضع خطة تم بموجبها القبض على ابن أبي خالد وقتله وتعليقه على سور المدينة، ونفي ابن الشهيد إلى الأندلس [2]، وأعلن أبو القاسم العزفي إمارته على سبتة واستقلاله في سنة 647 هـ / 1248 م أيام الخليفة عمر المرتضى الموحدي (647 - 665 هـ / 1249 - 1266 م) [3]، ثم قام بضم طنجة، حيث تقدم أهلها بطاعتهم إليه وعندما رأوا ضعف وتدهور سلطة الموحدين وظهور قوة المرينيين، فقام بإرسال قوة من الرجال والرماة على رأسهم القائد أبو الفضل العباسي، وكان من كبار أعيان سبتة وبصحبته يوسف ابن محمد بن الأمير، وبعد توطيد الوضع في طنجة عاد القائد أبو الفضل إلى سبتة

وترك ابن الأمين والياً عليها [4]، وبعد مرور سنة استبد ابن الأمين بطنجة وانشق عن العزفي ودعا للحفصيين أصحاب أفريقية (تونس) ثم للخليفة العباسي في بغداد وأخيراً لنفسه [5]. ، ولكن سرعان ما عادت طنجة إلى طاعة العزفيين وذلك في سنة 665 هـ / 1266 م إذ بعد أن ملك بنو مرين المغرب العربي دخل طنجة ثلاثمائة فارس منهم واستوطنوا فيها وضيّقوا على أهلها وأمعنوا في إيذائهم، فطلب ابن الأمين منهم أن يكفوا أذاهم عن الأهالي مقابل دفع مبلغ من المال لهم، ولكنهم أضمروا الغدر لابن الأمين وقتلوه فثار عليهم عامة طنجة وقتلوهم واجتمعوا حول ابن (ابن الأمين)، ولكنهم خافوا من عقاب وقصاص بني مرين لهم، فخاطبوا أبا القاسم العزفي وطلبوا نجدته، فأرسل إليهم قواته براً وبحراً وأعاد طنجة إلى ملكه، وعيّن والياً عليها يعرف بابن حمدان يشاركه في حكمها وإدارتها الملأ من أشرافها [6].

وضمّ أبو القاسم العزفي إلى إمارته مدينة (أصيلا) حيث دخلتها قواته البحرية سنة 663 هـ / 1264 م، وقامت بهدم أسوارها وقصبتها لأنه خاف أن يسيطر عليها العدو ويتمنع فيها [7].

تطورات الأوضاع الداخلية في سبتة:

استمرت رئاسة مؤسس الإمارة أبي القاسم العزفي مدة ثلاثين سنة حتى وفاته سنة 677 هـ / 1278 [8]. ثم خلفه في الحكم ابنه أبو حاتم أحمد بن محمد بن أحمد العزفي الذي دام حكمه سنة واحدة، حيث تنازل عن الإمارة لأخيه أبي طالب عبد الله ابن محمد بن أحمد العزفي [9] الذي وصف بأنه كان من أهل الجلالة والصيانة، عظيم الهيئة والشأن، عالي الهمة وشديد البأس، معظماً عند الملوك، بعيد النظر، مطاع السلطان، حكم بلاده وأدارها إدارة جيدة، ولكن حدث أن ثار عليه بعض أهله وأحاطوا بمركز حكمه، ولكنه لم يتخذ أي إجراء ضدهم سوى أنه خرج إليهم وتحدث معهم وأنكر عليهم فعلتهم، وسلمهم لقضاء الله ﷻ، حيث قال لهم، قال رسول الله ﷺ: ((**كُنْ عَبْدَ اللهِ المَقْتولْ وَلا تَكُنْ عَبْدَ اللهِ القاتِلْ**)) [10].

واستمر حكم أبو طالب لسبتة مدة سبع وعشرون سنة حتى خلع سنة 705 هـ / 1350 م، وتوفي مخلوعاً في فاس سنة 713 هـ / 1313 م، وجاء خلعه بخيانة وغدر من الأمير محمد بن الأحمر المعروف بالمخلوع * حيث وجّه ابن عمه أبي

سعيد فرج بن إسماعيل بن يوسف بن الأحمر الذي داهم سبتة بأساطيله واحتلها وقبض على بني العزفي ونقلهم إلى الأندلس [11].

ولكن هذا الاحتلال لم يدم طويلاً إذ سرعان ما عاد العزفيون إلى بلدهم بعد أن استرد السلطان أبو الربيع سليمان (708 - 710 هـ / 1308 - 1310 م) سبتة وأخرج بني الأحمر منها فاستأذنه بنو العزفي بالسماح لهم بالعودة إلى المغرب والقدوم عليه فأذن لهم واستقروا بفاس [12]، ثم عادوا إلى حكم بلادهم في عهد السلطان أبي سعيد عثمان المريني (710 - 731 هـ / 1310 - 1331 م) حيث تولى رئاسة الإمارة أبو عمر يحيى بن أبي طالب سنة 710 هـ / 1310 م والذي كان على قدر كبير من الشجاعة، ولكن الظروف لم تكن تساعد على استرجاع بني العزفي لمجدهم الأول، ولهذا نجد بأن الأمير أبو عمر لا يمكث في الإمارة إلاّ سنة وستة أشهر ثم يخلع سنة 711 هـ / 1311 م، ويعود ثانية إلى حكم إمارته سنة 714 هـ / 1315 م، ويستمر في الحكم حتى وفاته سنة 719 هـ / 1319 م [13]، وتولى الإمارة من بعده ابنه أبو القاسم محمد بن يحيى، وكان آخر أمراء البيت العزفي، فقد خلع بعد ستة أشهر من حكمه في سنة 720 هـ / 1320 م، وغادر إلى غرناطة ثم انتقل إلى فاس وعمل كاتباً لبني مرين، وزهد في تولي المناصب الكبرى في الحكم، فقد أراد السلطان أبو عنان فارس المريني (752 - 759 هـ / 1352 - 1359 م) أن يستعمله على قسطنطينة لكنه اعتذر لبعد الشقة عن ولده وبلده، وبقي يعمل كاتباً بالحضرة المرينية حتى وفاته [14].

وتغلب على الإمارة من بعده ابن عمه (محمد بن علي بن الفقيه أبي القاسم) الذي كان يعمل قائداً للبحرية في سبتة مكان القائد يحيى الرانداحي الذي رحل إلى الأندلس، وقد اضطربت أحوال سبتة في عهده، واختلط الأمر على بني العزفي، فانتهز السلطان أبو سعيد المريني الفرصة وزحف بقواته إلى سبتة، وأسقط إمارة العزفيين وذلك في سنة 728 هـ / 1327 م [15].

العلاقة بين إمارة العزفيين ودولة الموحدين في المغرب:

اتسمت العلاقة بين إمارة العزفيين ودولة الموحدين في المغرب بكونها علاقة طيبة قائمة على أساس التعاون والاحترام المتبادل بينهما، فقد تمتع الأمراء العزفيين بحكمة وكياسة، فعلى الرغم من الاستقلال الشبه تام الذي كانوا يتمتعون

به في إمارتهم إلاّ انهم كانوا على اتصال بمن بقي من البيت الموحدي ومعترفين بسلطانهم، فنرى مؤسس الإمارة أبو القاسم يخاطب الخليفة المرتضى في كل الأوقات، ويطلعه على أحوال إمارته ففي بداية تأسيسه الإمارة أرسل بكتاب إليه يطلب منه ارسال مندوباً من الموحدين للإشراف على حكم الإمارة فبادر المرتضى بإرسال (أبي أشرقي) ولكن بعد اشهر أخرجه أبو القاسم من سبتة وكتب إلى المرتضى يشرح له أسباب ذلك، لما بدر من (أبي أشرقي) من أفعال مشينة، فصدق المرتضى بقول أبي القاسم [16].

وفي سنة 655 هـ / 1255 م غدر القطراني* بالموحديين وانحاز إلى المرينيين وساعد الأمير أبو يحيى بن عبد الحق المريني على دخول سجلماسة واحتلالها والقبض على واليها، مقابل تعيينه والياً عليها، وقد نفّذ الأمير أبو يحيى وعده وعيّنه والياً وجعل معه شخصاً من بني مرين مع جملة من الفرسان والرجال [17].

ولكن بعد أن تعاظم أمره وكثر أتباعه وازدادت قوته، وجاءه خبر موت الأمير أبي يحيى المريني سنة 656 هـ / 1256 م، ثار القطراني ضد الدولة المرينية واستبد بسجلماسة وفي الوقت نفسه، خاطب المرتضى الموحدي معتذراً له عن ما بدا منه من انحياز لبني مرين، ومتقدماً له بطاعته وولاءه لدولة الموحدين بشرط استقلاله في سجلماسة فوافقه المرتضى، وأرسل له الفقيه أبو عمر بن حجاج قاضياً، وجمعاً كبيراً من جنده، وسيداً من الموحدين يسكن في سلجماسة من غير استبداد، وقد استقبل القطراتي القاضي بن حجاج والجند، وصرف السيد ومن كان معه من الموحدين، وكان قد اتفق المرتضى مع القاضي بن حجاج وقائد الجند على قتل القطراني بالحيلة، وقد تمكن قائد الجند من قتله، وعندما هدأت واستقرت أوضاع سجلماسة، كتب المرتضى بخبر القضاء على القطراني إلى أبي القاسم العزفي [18].

وفي سنة 658هـ/1258م بعث أبو القاسم العزفي برسالة إلى المرتضي، وأهالي السواحل، يحذرهم فيها من الاستعدادات البحرية لنصارى قشتالة وملكهم في وادي أشبيلية بهدف احتلال مدينة سلا، فمن صدّق بتحذير العزفي خرج من المدينة، ومن تأخر ولم يصدق به قتل أو أسر، بعد أن تمكن نصارى قشتالة من مداهمة المدينة والاستيلاء عليها، واستباحتها، حيث قتلوا من وجدوا فيها من

الرجال، وأسروا النساء والأطفال، وضربوا المساجد والديار، وبعد أن وقع ما حذّر منه العزفي، وجّه الخليفة المرتضى كتاباً إليه يشكره فيه على تحذيره من أمر النصارى، ويسأله أن يكون متيقظاً من غدرهم [19]، وهذا بعض من فصول كتابه: " وإنا كتبناه إليكم كتب الله لكم أحمد عاقبة وأجملها وأكتف كلاءه وأكلأها وأن تعلموا أن نعتد بولائكم الخالص، ونحفظ مالكم ولسلفكم من السوابق والخصائص ونشكر نصائحكم التي ما زلتم إياها تبذلون وخدمتكم التي توالون وتصلون ...والله يتولاكم بحفظه وصونه ...وقد طرأ في مدينة سلا جبرها الله سبحانه واستنقذها ما قد اتصل بكم مما كنتم أبداً منه تحذرون به لعلكم بزيادة العدو تنذرون ... ووقع المحذور ... وهو سبحانه يكافئ سعيكم على ما عرفتم وحذرتم لأهل السواحل وخوفتم من فجأة العدو المخاتل ... وإنا لنشكر لكم ذلكم ... " [20].

وأرسل المرتضى كتاب شكر إلى أبي القاسم العزفي تثميناً لما أبداه من جهد في تقديم النصيحة والحذر والتيقظ من الأعداء، عندما كشف سنة 658 هـ / 1258 م، عن محاولة النصارى في إخراج المسلمين من مدينة شريش [21].

وأخذ الخليفة المرتضي برأي أبي القاسم العزفي بإقامة المولد النبوي والاحتفال به، وقبل هديته وهي عبارة عن كتابه الموسوم: (الدر المنظم في مولد النبي المعظم) [22].

العلاقة بين إمارة العزفيين ودولة المرينيين في المغرب:

بعد أن تمَّ للسلطان أبو يوسف بن عبد الحق المريني (656 - 685 هـ / 1258 - 1286 م) إخضاع معظم أجزاء المغرب العربي وأنهى دولة الموحدين بقيت سبتة وطنجة وسجلماسة خارجة عن حكمه وسلطته، فقرر إخضاعهم قبل أن يبدأ بمهمة الجهاد في الأندلس حتى لا تمتد الثورة من هذه المعاقل إلى باقي المغرب، فبعد أن عاد من حصار تلمسان، توجه لحصار طنجة التي كانت تحت حكم العزفيين وحاصرها مدة ثلاثة أشهر ثم ساعده على فتحها سهولة مسلكها ومساعدة بعض جنودها الذين رفعوا راية الاستسلام ونادوا بشعار بني مرين بسبب خلاف وقع بينهم فاستغل الجند المريني الفرصة، وسارعوا إليهم وتمكنوا من اقتحام طنجة عنوةً وإعطاء الأمان لأهلها وذلك في سنة 672 هـ / 1273 م [23].

ولمّا فرغ من أمر طنجة أرسل ولده الأمير يوسف إلى سبتة فحاصرها، ولكنها صمدت ثم وقّعت معاهدة صلح بين الأمير أبي العباس العزفي والسلطان أبي يوسف المريني بشرط أن يحتفظ الأول بحكم سبتة واستقلال بني العزفي فيها لقاء خراج سنوي يؤديه إلى السلطان المريني [24].

ثم وضع العزفيين يدهم بيد المرينيين في جهادهم ضد النصارى في الأندلس، مدفوعين بروح الغيرة الإسلامية لا بقصد التبعية للمرينيين [25]، ولكن بعدما تعرضت إمارتهم إلى الاحتلال من قبل بني الأحمر واستردادها من قبل بني مرين [26]، تحولت العلاقة من علاقة استقلال وتعاون إلى علاقة طاعة وتبعية، حيث قام المرينيين بعدة محاولات من أجل استرداد سبتة من أيدي بني الأحمر، فقد قام السلطان أبو يعقوب يوسف (685 - 706 هـ / 1286 - 1306 م) بإرسال جيش ابنه الأمير أبو سالم لكنه فشل [27]، ثم نهض السلطان أبو ثابت عامر (706 - 708 هـ /1306ـ 1308م) سنة 707 هـ / 1307 م، قاصداً سبتة التي كان عليها عثمان بن أبي العلاء المعين من قبل بني الأحمر حيث قام في محرم سنة 708 هـ / 1308 م بإرسال غارات على نواحي سبتة، ثم أمر باختطاط وبناء مدينة (تطاوين) * من أجل اتخاذها قاعدة لجيشه المعد لمهاجمة سبتة. . وفي الوقت نفسه أرسل كبير الفقهاء (أبا يحيى بن أبي الصبر) إلى ابن الأحمر يفاوضه في أمر التخلي عن سبتة، وبينما كان ينتظر الجواب مرض السلطان أبو ثابت، وتوفي في طنجة في شهر صفر 708هـ / 1308م، وتولى الحكم من بعده أخوه أبو الربيع الذي جهّز جيشاً كبيراً بقيادة تاشفين يعقوب الوطاسي، لاسترداد سبتة بعد أن ضاق أهلها ذرعاً من حكم بني الأحمر، منتهزاً فرصة غياب الوالي عثمان بن أبي العلاء وعبوره إلى الأندلس بقصد الجهاد، ولما أحسّ أهل سبتة بقدوم الجيش المريني، تنادوا بشعار بني مرين وثاروا على من كان بسبتة من حامية ابن الأحمر وأخرجوهم منها، وذلك في سنة 709 هـ / 1309 م وعندما وصل الخبر إلى ابن الأحمر (أبو الجيوش نصرين محمد) خشي من بني مرين وأرسل وفداً إلى السلطان أبي الربيع يطلب منه الصلح ويسترضيه بالتنازل له عن الجزيرة الخضراء ورندة وحصونها، وقد وافق أبو الربيع على الصلح ووطّد علاقته بابن الأحمر بزواجه من أخته، وإرسال المدد والمساعدة له بتجهيز جيش وإرساله إلى الأندلس [28].

أما بنو العزفي فقد استأذنوا السلطان أبي الربيع في الرجوع إلى المغرب فأذن لهم واستقروا في فاس، وكان أبو زكريا يحيى، وأبو زيد عبد الرحمن ابنا أبي طالب عبد الله بن أبي القاسم ...أحمد العزفي يرتادون مجالس العلم بمسجد القرويين في فاس، وهناك التقيا بالسلطان أبا سعيد أيام حكم أبيه من قبله، وتودد اليهما وربطتهم به علاقة صداقة قوية، ولما اعتلى كرسي الحكم، رعى لبني العزفي تلك الصداقة وعقد لأبي زكريا على سبتة وردهم إليها، فقدموها سنة 710 هـ / 1310 م وأقاموا فيها دعوة السلطان أبي سعيد والتزموا طاعته[29].

ولكن العزفيين أبعدوا عن إمارة سبتة سنة 713 هـ / 1313 م، عندما فوّض السلطان أبو سعيد جميع شؤون الدولة إلى ابنه الأمير (أبي علي) فقام بتعيين (ابن زكريا حيوة بن أبي العلاء القرشي) على سبتة وعزل أبا زكريا يحيى العزفي، وأبعده إلى فاس وبصحبته والده أبي طالب وعمه أبي حاتم، واستقروا هناك، ولكن بعد انتفاضة وتمرد الأمير أبي علي على أبيه في فاس، ترك كل من أبي زكريا يحيى بن أبي طالب العزفي وأخوه أو زيد، فاس والتحقا بالسلطان أبي سعيد الذي قام بإعادة أبي زكريا ثانيةً إلى إمارة سبتة في سنة 714 هـ / 1314 م[30]، بعد أن أخذ ولده (محمد بن أبي زكريا) رهينة عنده من أجل استمرار طاعة العزفيين لدولة بني مرين، ولكن أبا زكريا خلع طاعتهم في سنة 716 هـ / 1316م، وأعلن استقلاله بسبتة، فوجه السلطان أبو سعيد جيشاً بقيادة الوزير (إبراهيم بن عيسى البريناني) فحاصر سبتة[31].

وتقدم إليه أبو زكريا يعلل له سبب خلعه طاعة المرينيين بحبس ولده عنه ومفارقته له، وإنه إذا ما عاد إليه فإنه يعود إلى طاعة المرينيين، فأعلم الوزير إبراهيم البريناني السلطان بذلك، فأرسل إليه بالولد ليسلمه إلى أبيه[32]، وعاد أبو زكريا في نفس السنة إلى طاعة السلطان أبي سعيد، الذي قدم إلى طنجة لاختبار طاعة أبي زكريا فتبين له صدقه وأبقاه على إمارة سبتة، واشترط أبو زكريا على نفسه حمل الجباية والهدايا إلى السلطان في كل سنة، واستمر الحال على ذلك إلى أن توفي الأمير أبي زكريا سنة 720 هـ / 1320 م[33].

وتولى الحكم من بعده ابنه الأمير (محمد بن أبي زكريا)[34] الذي تغلب عليه ابن عمه (محمد بن علي ابن الفقيه أبي القاسم) قائد البحرية في سبتة، وفي عهده

اضطربت ظروف سبتة وأحوال بني العزفي، فاستغل السلطان الفرصة لضم سبتة وإنهاء حكم العزفيين وذلك سنة 728 هـ / 1327م [35].

العلاقة بين إمارة العزفيين ودولة بني الأحمر في غرناطة:

تعرضت سبتة في عهد العزفيين إلى خطر بني الأحمر، فقد كانت العلاقة بين الأمير أبي القاسم العزفي والأمير أبي عبد الله بن الأحمر علاقة فتنة وعداء، ففي سنة 662 هـ / 1263 م وجّه ابن الأحمر حملة بحرية بقيادة المدعو (ظافر) لمحاصرة سبتة والاستيلاء عليها، وتقدمت السفن البحرية ودخلت ميناء سبتة على شكل دفعات وأحكموا الحصار على سبتة وقطعوا الطرق الواصلة إليها فوجه أبو القاسم العزفي أمره إلى قائد البحرية أبا العباس الرنداحي بأخذ الاستعدادات وتعمير جميع سفن سبتة لمواجهة العدو، والتحم الفريقان وكان النصر للرنداحي حيث أسر وقتل عدداً كبيراً منهم من ضمنهم القائد (ظافر) حيث علقت جثته في البحر، وطيف برأسه في سبتة، وقد سمي هذا العام في سبتة (بعام ظافر) [36].

وعلى الرغم من علاقة العداء، لم يتوان العزفيون - بدافع الغيرة الإسلامية - من تقديم يد العون والمساعدة لبني الأحمر في ظروف المحن والشدة من ذلك مثلاً ما حصل في أواخر أيام الأمير أبي القاسم العزفي، حيث أرسل محمد الفقيه بن الشيخ محمد بن يوسف بن الأحمر وفداً إلى السلطان المريني (يعقوب بن عبد الحق) يشرح له مخاطر النصارى التي تحيط بالبقية الباقية من الأندلس، فسارع السلطان يعقوب لنصرته في سنة 673 هـ / 1274 م، وخرج من فاس إلى طنجة وطلب معونة أبي القاسم العزفي، فزوده بعشرين سفينة من الأسطول السبتي، وقد حقق الأندلسيون بهذا الأسطول النصر المؤزر [37].

وفي سنة 678 هـ / 1279م حوصرت الجزيرة الخضراء من قبل أساطيل ملك النصارى ألفونسو العاشر حاكم قشتالة، فأرسل ابن الأحمر يطلب النجدة من السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق الذي قام بتوجيه نداء إلى جميع الثغور يطلب منهم تزويده بالسفن الحربية، فكان أمير سبتة أبو حاتم العزفي أول من لبّى نداء السلطان وقام بتزويده بخمسة وأربعين سفينة، كما استنفر وحثّ جميع أهل سبتة على الجهاد، فركبوا البحر بأجمعهم ولم يبقَ بسبتة إلاّ النساء والأطفال والشيوخ [38].

وفي سنة 684 هـ / 1285 م عبر الفقيه قاسم ابن الأمير أبي القاسم العزفي على رأس خمسمئة رامٍ من أهل سبتة إلى الأندلس برسم الجهاد إلى جانب السلطان المريني يعقوب، وقد قاموا بالإغارة على حصن من حصون القشتاليين، وسبوا ثمانين شخصاً، وكرروا اغارتهم على حصون أخرى وغنموا وقتلوا عدداً كبيراً منهم [39].

وفي نفس السنة بعث السلطان حفيده الأمير أبا علي منصور بن عبد الواحد على رأس مجموعة من المجاهدين، كان من بينهم مئة من رماة سبتة، إلى حصن من حصون النصارى كان بينه وبين المحلة نحو الثمانية أميال، كان أهله يقومون بقطع الطريق على من خرج من المحلة منفرداً أو في قلّة، فزحف المجاهدون نحو الحصن وتمكنوا من اقتحامه عنوة، وقتلوا وأسروا عدداً كبيراً من الرجال وغنموا ما كان فيه، ثم قاموا بهدمه ونسفه [40].

ثم وصلت في نفس السنة أخبار تقدم الأسطول النصراني وحصاره لمضيق جبل طارق حتى يمنع عبور السلطان يعقوب وهو في طريقه إلى المغرب، فعاد مسرعاً إلى جزيرة طريف، واستنجد بأسطول المغرب، وكانت سبتة أولى من جهزته بالإمدادات إلى جانب طنجة ورباط الفتح وموانئ الريف، زيادة على إمدادات الجزيرة والمنكب وطريف، واستطاع هذا الأسطول الذي بلغ تعداده ستة وثلاثون سفينة من ردّ أساطيل العدو فانقلب على أعقابه مما مكّن السلطان من الرجوع إلى الجزيرة الخضراء ليستعرض أسطوله الذي قام بمناورات حربية أمامه [41].

وفي سنة 703 هـ / 1304 م تواطأ ابن الأحمر محمد بن الفقيه المعروف بالمخلوع مع ملك قشتالة فردينادوا الرابع ضد مسلمي أهل المغرب، وأوعز إلى ابن عمه أبا سعيد فرج بن إسماعيل صاحب مالقة بمداهمة سبتة بالحيلة، فاحتلها بغتةً وذلك سنة 705 هـ / 1305 م وقبض على بني العزفي وحاشيتهم ونقلهم إلى مالقة ثم غرناطة، واستبد أبو سعيد بأمر سبتة وأطرافها وسد جميع ثغورها، واستمر حكم بني الأحمر لسبتة حتى سنة 709 هـ / 1309 م [42] عندما استرجعت من قبل السلطان المريني أبي الربيع، وعودة بني العزفي لها [43].

الدور الحضاري لإمارة العزفيين:

احتلت أسرة العزفيين مكانة علمية مرموقة لما كان لأفرادها من اهتمامات

علمية متنوعة خاصة في المجال اللغوي والأدبي والديني، فقد ورثوا الفضل والعلم صغارهم عن كبارهم، لذا فقد تمتعت سبتة في عهدهم بنشاط علمي ملحوظ لحبهم ومراعاتهم للعلم والعلماء، فقد كان والد مؤسس الإمارة أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد العزفي المولود سنة 557 هـ / 1161 م عالماً وقاضياً ومحدثاً إذ قيل في حقّه: " برز علماً وعملاً ودرايةً وروايةً وجمع خصالاً من الفضل جمة، ولزم التدريس بجامع سبتة مدة عمره، ورحل الناس إلى الأخذ عنه والاستفادة منه " (44)، وقد نظّم شعراً في نصرة أهل الحديث حيث قال:

أهـــل الحـــديث عـــصابة الحـــق ... فـــازوا بدعـــوة ســـيد الخلـــق

فوجـــــوههم زهـــــر منـــــضرة ... لألأؤهـــــا كـــــتألق البـــــرق

يـــا ليتنـــي معهـــم فـــيدركن ... مـــا أدركـــوه بهـــا مـــن الـــسبق (45)

وكان أول من أحدث ودعا إلى الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في المغرب العربي، وقد ألّف كتاباً في هذا الموضوع بعنوان (الدر المنظم في المولد النبوي المعظم) ولكنه توفي سنة 636 هـ / 1238 م، قبل أن يكمله (46).

وقام ابنه مؤسس الإمارة أبو القاسم العزفي بإكمال الكتاب وإخراجه بنسختين صغرى وكبرى، وهو يميز في هذه الأخيرة كلام والده فيترجم عليه بـ (قال المؤلف) ثم يعنون زياداته بكلمة قلت (47)، وتدريسه بنفسه، وإعطاء الإجازة فيه، وكان من الذين أجازهم (الخطيب أبو علي ابن الخطيب أبي فارس بن غالب الجمحي) مع جماعة من أهل سبتة وأعيانها، حين قرأوه عليه بالجامع الأعظم في سبتة سنة657هـ/1258م (48).

وكان أبو القاسم يقيم احتفالاً كبيراً في يوم المولد النبوي الشريف حيث كانت تقرأ فيه القصائد التي تمتدح النبي ﷺ وآل البيت، وتقام الولائم الكبيرة لإطعام أهالي سبتة أطيب الطعام، كما كان يقوم بتوزيع الهدايا على الأطفال ليلة المولد من باب الإحسان (49).

وقد أصبح الاحتفال بالمولد النبوي تقليد سنوي ليس في سبتة فحسب، بل في أنحاء المغرب العربي، حيث كان الشعراء الشعبيين في دولة بني مرين يتبارون بينهم لإظهار براعتهم الشعرية في مناسبة ذكرى المولد النبوي، فقد كانوا يتجمهرون صباح يوم المولد في الميدان الرئيسي ويلقون أشعارهم واحداً تلو الآخر، والفائز

منهم يحضى بلقب أمير الشعراء، كذلك كان السلطان المريني يقيم احتفالاً بهذه المناسبة يستدعي له رجال العلم والأدب لإلقاء قصائدهم الشعرية، وكان يجزي العطاء للفائزين ولسائر الشعراء [50].

وقام أبو القاسم العزفي بإهداء كتاب الدر المنظم إلى الخليفة الموحدي المرتضى (646 - 668 هـ / 1248 - 1269 م) حيث كان أديباً وشاعراً ظريفاً فردد في شعره ما دعا إليه أبو العباس العزفي في سبتة من إقامة المولد النبوي والاحتفال به حيث قال:

وافى ربيع قد تعطر نفحه ... أزكى من المسك العتيق نسيما
بولادة المختار أحمد قد بدا ... يزهو به فخراً وحاز عظيما
بشرى بشهر فيه مولده الذي ... ملاء الزمان علاؤه تعظيما [51]

وكان لأبي القاسم العزفي اهتمامات علمية مختلفة، فقد كان فقيهاً أصولياً نحوياً، لغوياً، محدثاً، عارفاً بالرواية، وشاعراً مجيداً، وهذه أبيات من شعره في آل بيت المصطفى ﷺ:

ذرّية المصطفى انّي أحبكم ... وحبكم واجب في الدين مفترض
فليس يبغضكم، لا كان باغضكم ... إلاّ امرؤ مارق في قلبه مرض
وحسبكم شرفاً في الدهر انكم ... خير البرية هذا ليس يعترض
وليس أطلب من حبي لكم ثمناً ... إلاّ الشفاعة فهي السؤل والغرض [52]

وتتلمذ على يده العديد من الفقهاء والأدباء منهم (علي بن عبد الله بن محمد بن يوسف بن أحمد الأنصاري الملقب بابن قطر آل) [53].

وقد امتدح أبو القاسم العزفي من قبل الفقيه والأديب (إبراهيم بن أبي بكر بن عبد الله ... الأنصاري التلمساني) حيث قال فيه:

أرأيت من رحلوا ورزقوا العيا ... ولا نزلوا على الطلول حسيسا
أحسبت سوف يعود نسف ترابها ... يوماً بما يشفي لديك نسيسا
هل من مؤنس ناراً بجانب طورها ... لانيها أم هل تحس حسيسا [54]

وكان لابنه الأمير أبي حاتم العزفي اهتمامات فقهية، وكان شيخاً ومعلماً (لمحمد بن أحمد بن إبراهيم بن محمد التلمساني الأنصاري) [55]، وقد امتدحته الأستاذة الأديبة الشاعرة (سارة بنت أحمد بن عثمان ... الحلبية) لاهتمامه وحبه

للعلم والعلماء، إذ قدمت سبتة في أواخر القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، ومما خاطبت به أبا حاتم:

بشراك يا نفس نلت السؤل والأملا ... وعاد دهرك بعد الجور قد عدلا
ونلت ما كنت طول الدهر تأمله ... وعنك أضحى العناد والبؤس مرتحلا
وقد وصلت إلى بحر الندى علم الهدى ... أبي حاتم ابن السادة الفضلا
هو الذي صدره للعلم منشرح ... وأودع الله فيه علم ماجهلا[56]

أما أخوه الأمير أبو طالب بن أبي القاسم العزفي، فكان من أهل الجلالة والصيانة، حافظاً للقرآن والحديث، عالماً بالتاريخ، تتلمذ على يد الأستاذ أبي الحسين بن أبي ربيع [57].

وكان ابنه الأمير يحيى بن أبي طالب العزفي يجمع في شخصه اهتمامات علمية كثيرة، فقد كان فقيهاً، عارفاً بالأصول والفقه والحديث، واللغة والمنطق [58]، ومتتبعاً طريقة أصحاب الحديث روايةً وضبطاً وتقييداً وتخريجاً مع براعة في الخط، وكان شاعراً مجيداً ذو فكاهة، وقد تتلمذ على يد مشايخ في سبتة وخارجها قراءةً وسماعاً وإجازةً، فمن أخذ منهم من أهل سبتة (أبو إسحاق ... التلمساني)، ومن الجزيرة الخضراء أبو جعفر بن الخميس [59].

وسار ابنه الأمير أبو القاسم محمد بن يحيى ... العزفي على سيرة والده حيث كان فقيهاً وشاعراً مكثراً، مليح الفكاهات وشاحاً، وقد بزّ أهل زمانه في الموشحات، إذ روى عنه أنه أراق الدواة في محفل جليل فتدارك فعلته، حيث قال:

ألا يا كرام الناس غضوا جفونكم ... فإني من الفعل القبيح مريب
هرقت دواة وهي كالكأس بينكم ... وللرضى من كأس الكرام نصيب [60]

وقد درّس الطب ودوّن فيه، ووصف أنه كان من أهل الظرف والبراعة والطبع المعين، والذكاء المتوقد [61].

انتقل من سبتة إلى غرناطة بعد أن خلف عن حكمها سنة 720 هـ / 1320 م، وهناك اشتهر أدبه لكنه لم يطل المقام، حيث عاد إلى المغرب واستقر في فاس وعمل في الخطط الفقهية وكتب عن ملوك بني مرين [62].

ومن نظم شعره ما قاله في قاضي مدينة فاس (محمد بن عبد الرزاق الجزدلي):

وليت بفاس أمور القضا ... فأحدثت فيها أموراً شنيعة
فتحت لنفسك باب الفتوح ... وغلقت للناس باب الشريعة
فبادر مولى الورى فاس ... بعزلك عنها قبيل الذريعة

ومن شعره قصيدة على قافية لام الألف من سبعة وسبعين بيتاً وضعها للأمير المريني أبي سالم ومطلعها:

إذا لم أطق نحو نجد وصولا ... بعثت الفؤاد النهار سؤلا
وكم حلّ قلبي رهيناً بها ... غداة نوى الركب فيها النزولا [63]

أما ابنه الأمير محمد بن محمد بن عيسى ... العزفي المكنى بأبي يحيى فكان محباً لسماع الشعر ونظمه، وكان صحبته بفاس في حضرة ملوك بني مرين، ومن شعره قصيدة تائية في بحر الكامل في أربعين بيتاً رفعها لأبي فارس عبد العزيز بن أبي الحسن المريني، بمدينة تلمسان حيث دخلها وفرّ حاكمها أمامه ومطلعها:

حنّ المشوق إلى ديار أحبته ... فسقى الثرى شوقاً لذاك بدمعته
وامتازه وجداً هبوب نسيما ... لما سرى بيديه طيب تحيته [64]

وكان الأمير عبد الرحمن بن أبي طالب بن أبي القاسم العزفي المكنى بأبي القاسم فقيهاً ومحدثاً، روى عن أبي جعفر بن الزبير، والقاضي ابن عبد الملك، وابن خميس ... وغيرهم، وقد ألّف كتاباً بعنوان (**الإشادة بذكر المشتهرين من المتأخرين بالإفادة**) [65] لذي الوزارتين (أبي عبد الله محمد بن عبد الحكيم الغرناطي) *.

ولكن هذا الكتاب لم يصلنا وعدّ من الكتب المفقودة، ولو كان موجوداً لَقَدّم لنا ترجمة لجمهرة كبيرة من رجال القرن السابع، وأوائل القرن الثامن الهجري، مغاربة وأندلسيين، إذ لا يعرف من كتابه هذا إلاّ بعض التراجم التي نقلت عنه [66].

وممن ترجم له في كتابه هذا، الشاعر (ابن الخبازة الخطابي) الذي قدّم له ترجمة من أوفى التراجم [67]، وقدّم ترجمة لقاضي الموحدين (أبي حفص الأغماني) إذ أشاد بمكانته والثناء عليه، ووصفه بالعلم والفضل والعدل في القضاء إلى جانب براعته في نظمه للشعر والنثر، وتطرق إلى يائيته الشهيرة التي ذكر فيها مدحه للنبي ﷺ، وذكر شمائله الكريمة ومعجزاته الباهرة، بأبيات تربو على المئة وثلاثين بيتاً، وذكر أيضاً مرثيته لابن الوزيريين الجد، في خمسة وأربعين بيتاً وغير

ذلك كثير[68]، وترجم لأخيه أبا العباس أحمد ... العزفي فقال فيه: " هو أخي الذي بإخائه أزهى وانتخى، وكبيري، المعتمد بإجلالي وتوقيري ولولا خوفي من أن يلزمني مادح نفسه، لأطنبت في وصف ما له من المحاسن التي فاق بها أبناء جنسه ... " [69]. وأورد له أشعاره منها ما قاله في مدح الوزير ابن الحكيم:

ملكت رقّي بالجمال فاجعل ‏‏ وحكمت في قلبي بجورك فاعدل
أنت الأمير على الملاح ومن يجره ‏‏ في حكمة إلاّ جفونك يعزل
إن قيل أنت البدر فالفضل الذي ‏‏ لك بالكمال ونقصه لم يجهل [70]

كما أورد ابن القاضي أبيات شعر خاطب بها أبا العباس. . العزفي حاكم غرناطة عند تغريبهم من سبتة لها حيث قال:

لكم حمى في فؤاد غير مقروب ‏‏ فضائع في هواكم كل تأنيب
إن كان ما ساءني مما يسركم ‏‏ فعذبوا فقد استعذبت تعذيبي

وأورد شعراً في حنينه إلى وطنه حيث قال:

لي في سبتة سكن ‏‏ حبه أضغلي سكن
فهو يزداد جده ‏‏ مع إبلائه الزمن
أصبح القلب عنده ‏‏ وبغرناطة البدن [71]

وقد مدح العزفيين ممن حلَّ بسبتة منهم الشاعرة الأديبة (سارة بنت أحمد بن عثمان)، ومما خاطبت به الأمير أبا طالب عبد الله ... العزفي قولها:

مولاي بو طالب يا معدن الحكم ‏‏ وكعبة المجد والعلياء والكرم
ومن له شرف من تحته زحل ‏‏ أنوار سؤدده نار على علم
بأن الرشاد بكم في الخلق قاطبة ‏‏ ولم يكن قبلكم إلاّ أخا عدم [72]

ومن الشعراء الذين مدحوا العزفيين (ابن خميس التلمساني) حيث قال:

بنو العزفيين الا دلى من صدورهم ‏‏ وأيديهم تملأ القراطيس والطرخ
رياسة أخبار وملك أفاضل ‏‏ كرام لهم في كل صالحة رضح
إذا ما بدا منا جفاء تعطفوا ‏‏ علينا وإن حلت بنا شدة رخوا [73]

سقوط إمارة العزفيين:

بعد وفاة الأمير أبو زكريا يحيى بن أبي طالب ... العزفي سنة 719 هـ / 1319 م تولى الحكم ابنه الأمير أبو القاسم محمد بن أبي زكريا ... العزفي، لكنه

لم يدم طويلاً في حكمه إذ خلع سنة720 هـ / 1320 م، وانتقل إلى غرناطة [74]، وسيطر على الإمارة ابن عمه محمد بن علي بن الفقيه أبي القاسم الذي خلف يحيى الرنداحي في قيادة الأساطيل لسبتة، وقد عمت الفوضى واضطربت أحوال سبتة في عهده فانتهز السلطان المريني أبا سعيد الفرصة، وجهز جيشاً قاده بنفسه وتوجه نحو سبتة فتمكن من احتلالها وذلك في سنة 728 هـ / 1327 م، فبادر بنو العزفي وجموع أهالي سبتة بتقديم فروض الطاعة والولاء للسلطان أبي سعيد قام بتعيين كبار رجالاته وخواص مجلسه في إدارتها، إذ عيّن حاجبه عامر بن فتح مدين العثماني على جبايتها، والنظر في مبانيها وإخراج الأموال للنفقات فيها وكافأ الملأ من مشيختها بتقديم الهدايا والإقطاعات لهم، ثم عاد إلى عاصمته سنة 729 هـ / 1328 م [75].

وبذلك انتهى دور هذه الإمارة في سبتة التي استمرت ما يقارب قرن من الزمن، تناوب حكم العزفيين فيها ما بين القوة والضعف، مما أثّر على طبيعة العلاقة بينهم وبين الدولة المرينية، تلك العلاقة التي تناوبت هي الأخرى ما بين علاقة استقلال وتعاون إلى علاقة طاعة وتبعية.

وجمع العزفيين ما بين العلم والسياسة في حكمهم إمارة سبتة، وبرز العديد من المجالات اللغوية والأدبية والفقهية مما انعكس بدوره على مجمل النشاط العلمي فيها ورعايتهم المتميزة للعلم والعلماء.

هوامش البحث:

---

* معركة وقعت بين الموحدين والممالك النصرانية في أسبانيا جنوب الشارات (سيرامورينا). للمزيد عنها. ينظر: محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، بيروت / 1975.

(1) أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد أبي عذارى، البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، الناشر: أميروسي هوسي مرانده مع مساهمة محمد بن تاويت ومحمد إبراهيم الكتاني، تطوان، دار كريمادس للطباعة 1960: 3 / 379.

* أحمد الرنداحي، ويذكر باسم ججفون الرنداحي، تولى مهمة قيادة الأسطول منذ عهد عمر المرتضى الموحدي، واستمرت هذه الخطة بيد أسرة الرنداحي إلى نحو سنة 720 هـ / 1320 م. ينظر: محمد المنوني، ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين، الرباط، نشر: جامعة محمد الخامس، 1985، ص 79.

* هو أبو القاسم محمد بن القاضي المحدث أبي العباس أحمد بن محمد بن الحسين بن الفقيه الإمام علي بن محمد بن سليمان بن محمد الشهير بابن أبي عرفة اللخمي، ينتهي نسبهم إلى قابوس بن النعمان بن المنذر. ينظر: شهاب الدين أحمد بن محمد المقري، أزهار الرياض في أخبار عياض، الرباط، إحياء التراث الإسلامي، 1978، 2/ 374؛ لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، ط 2، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1973، 3 / 11، هامش (2).

(2) ابن عذاري، المصدر السابق: 3 / 400 - 401؛ عبد الرحمن بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، منشورات الأعلمي للمطبوعات، 1971: 1 / 186.

(3) ابن عذاري، المصدر السابق: 3 / 400؛ ابن الخطيب، المصدر السابق: 3 / 11، هامش (2)؛ المقري، أزهار الرياض: 2 / 374؛ محمد بن القاسم الأنصاري السبتي، اختصار الأخبار عمّا كان بثغر سبتة من سني الآثار، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، ط 2، الرباط، 1983، ص 30 هامش (50).

(4) ابن عذاري، المصدر السابق: 3 / 415.

(5) المصدر نفسه: 3 / 415؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 7 / 186؛ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري، محمد الناصري، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1954: 3 / 34؛ وانظر: إبراهيم، حركات المغرب عبر التاريخ، ط 1، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، 1978: 2 / 21.

(6) ابن عذاري، المصدر السابق: 3 / 415؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 7 /186 - 187؛ الناصري، المصدر السابق: 3 / 34 - 35.

(7) علي بن أبي زرع الفاسي، الأنيس والمطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972، ص 402؛ المقري، المصدر السابق: 2 / 374.

(8) ابن الخطيب، المصدر السابق: 3 / 11 هامش (2).

(9) أحمد ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ بمدينة فاس، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1974: 2 / 431؛ المقري، أزهار الرياض: 2 / 377؛ الأنصاري، المصدر السابق، ص 115 هامش (182).

=

=

(10) ابن القاضي، المصدر السابق: 3 / 433؛ الأنصاري، المصدر السابق، ص 54 هامش (112).

* هو محمد الثالث ثالث ملوك بني نصر (701 - 708 هـ / 1302 - 1309 م). ينظر: ابن خلدون، المصدر السابق: 7 / 328.

(11) المصدر نفسه: 7 / 228؛ ابن القاضي، المصدر السابق: 2 / 433؛ المقري، أزهار الرياض: 2 / 377؛ الأنصاري، المصدر السابق، ص 53 (هامش (112)؛ الناصري المصدر السابق: 3 / 82؛ وانظر: يوسف شكري فرحان، غرناطة في ظل بني الأحمر، ط 1، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 1982، ص 38.

(12) الناصري، المصدر السابق: 3 / 113.

(13) المقري، أزهار الرياض: 2 / 377، سوف نتناول هذه الأحداث مفصلاً عند الحديث عن (العلاقة بين إمارة العزفيين وبني مرين)، ص 5 - 9.

(14) ابن القاضي: 1 / 300؛ المقري، أزهار الرياض: 2 / 378؛ الناصري، المصدر السابق: 3 / 115؛ محمد بن تاويت، الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى، ط 1، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1983: 2 / 409 - 410.

(15) الناصري، المصدر السابق: 3 / 115.

(16) ابن عذاري، المصدر السابق: 3 / 414.

* **القطراني**: أبو يحيى محمد، لُقِبَ بالقطراني لأن والده كان يشتغل في شبابه وشيخوخته بالقطران، وقد وصف بأنه كان ذا نفس خبيثة وغدارة وذا أطماع سياسية. للمزيد، ينظر: المصدر نفسه: 3 / 416 - 417.

(17) المصدر نفسه: 3 /416 - 417؛ الاستقصا: 3 / 18 - 19.

(18) ابن عذاري، المصدر السابق: 3 / 417 - 419.

(19) المصدر نفسه: 3 / 423 - 424.

(20) المصدر نفسه: 3 / 425 - 426.

(21) المصدر نفسه: 3 / 430.

(22) المصدر نفسه: 3 / 430.

(23) ابن خلدون، المصدر السابق: 7 / 187؛ الناصري، المصدر السابق: 3 / 35.

(24) ابن خلدون، المصدر السابق: 7 / 187؛ الناصري، المصدر اسابق: 3 / 35.

(25) انظر: محمد بن تاويت، تاريخ سبتة، ط 1، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1982، ص 123.

(26) انظر تفاصيل احتلال سبتة: في مبحث (العلاقة بين إمارة العزفيين ودولة بني الأحمر في غرناطة)، ص 9 - 10.

(27) الناصري، المصدر السابق: 3 / 82.

(28) المصدر نفسه: 3 / 95 - 96، 97.

* **تطاوين**: هي مدينة تطوان القديمة بنيت سنة 685 هـ / 1286 م أيام دولة يوسف بن يعقوب بن عبد الحق، ثم بني عليها أبو ثابت هذه المدينة. انظر: المصدر نفسه: 3 / 96.

(29) ابن خلدون، المصدر السابق: 7 / 239؛ الناصري، المصدر السابق: 3 / 87 - 101.

(30) المصدر نفسه: 3 / 113.

=

(31) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 339 - 400.
(32) المصدر نفسه، ص 400؛ ابن خلدون، المصدر السابق: 246/7؛ الناصري، المصدر السابق: 3 / 114.
(33) ابن الخطيب، المصدر السابق: 4 / 341؛ الناصري، المصدر نفسه: 3 / 114.
(34) المصدر نفسه: 3 / 113 - 114.
(35) ابن القاضي، المصدر السابق: 1 / 300.
(36) الناصري، المصدر السابق: 3 / 113، 114، 115.
(37) ابن عذاري، المصدر السابق: 3 / 431.
(38) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 313 - 314؛ تاويت، تاريخ سبتة، ص 120 - 121.
(39) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 330 - 331.
(40) المصدر نفسه، ص 345 - 347؛ الناصري، المصدر السابق: 3 / 59؛ وينظر أيضاً: مزاحم علاوي، الدور السياسي والعسكري ليعقوب بن عبد الحق في بلاد الأندلس، المؤرخين العرب، العدد (18)، بغداد، 1989، ص 99.
(41) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 348 - 349؛ الناصري، المصدر السابق: 3 / 60.
(42) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 357 - 358؛ الناصري، المصدر السابق: 61/3 - 62؛ حركات، المرجع السابق، ص 27.
(43) ابن خلدون، المصدر السابق: 7 / 228؛ الناصري، المصدر السابق: 3 / 82.
(44) انظر فيما سبق، ص.
(45) الأنصاري، المصدر السابق، ص 13 هامش (5).
(46) تاويت، الوافي بالأدب العربي: 2 / 401.
(47) المقري، أزهار الرياض: 2 / 39، 243؛ عباس الجداري، الأدب المغربي، ط 2، الرباط، مكتبة المعارف، 1979: 1 / 145؛ المنوني، المرجع السابق، ص 266 - 267.
(48) المقري، أزهار الرياض: 2 / 376؛ تاويت، تاريخ سبتة، ص 117.
(49) ابن عذاري، المصدر السابق: 3 / 401، 402.
(50) الحسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة: عبد الرحمن حميدة، الرياض، 1399 هـ، ص 263.
(51) ابن عذاري، المصدر السابق: 3 / 452.
(52) المقري، أزهار الرياض: 2 / 377؛ الأنصاري، المصدر السابق، ص 30 هامش (50).
(53) ابن الخطيب، المصدر السابق: 4 / 190 - 191.
(54) المصدر نفسه: 1 / 326 - 328.
(55) المصدر نفسه: 3 / 200 - 201.
(56) ابن القاضي، المصدر السابق: 2 / 522 - 525.
(57) ابن القاضي، المصدر السابق: 2 / 433؛ الأنصاري، المصدر السابق، ص 54 هامش (112).
(58) المقري، أزهار الرياض: 2 / 377 - 378.
(59) ابن الخطيب، المصدر السابق: 4 / 341.

=

(60) المقري، أزهار الرياض: 2 / 378؛ تاويت، الوافي بالأدب العربي: 2 / 409.

(61) ابن الخطيب، المصدر السابق: 3 / 11 - 12؛ ابن القاضي، المصدر السابق: 1 / 300.

(62) ابن الخطيب، المصدر السابق: 3 / 11 - 12؛ ابن القاضي، المصدر السابق: 1 / 300؛ المقري، أزهار الرياض: 2 / 278.

(63) ابن الخطيب، المصدر السابق: 3 / 12 - 14؛ ابن القاضي، المصدر السابق: 1 / 300؛ المنوني، المرجع السابق، ص 273.

(64) ابن القاضي، المصدر السابق: 1 / 307؛ المنوني، المرجع السابق، ص 274.

(65) ابن القاضي، المصدر السابق: 2 /398؛ المقري، أزهار الرياض: 2 / 359؛ وانظر: تاويت، الوافي بالأدب العربي: 2 / 402.

* أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى بن محمد بن سعيد بن محمد بن فتوح بن محمد بن أيوب بن محمد اللخمي، من أهل رندة، عرف بابن الحكيم لأن جدّ والده كان علاّماً بالطب، وكان ابن الحكيم على قدر كبير من الفضيلة ومكارم الأخلاق، محباً للعلم والعلماء، حيث كان كاتباً بليغاً، أديباً، شاعراً، خطاطاً، خطيباً. انظر: المقري، أزهار الرياض: 2 / 340 - 341.

(66) المقري، أزهار الرياض: 2 / 378.

(67) المصدر نفسه: 2 / 378 - 379.

(68) المصدر نفسه: 2 / 379؛ تاويت: الوافي بالأدب العربي: 2 / 402.

(69) ابن القاضي، المصدر السابق: 2 / 398.

(70) المقري، أزهار الرياض: 2 / 357.

(71) جذوة الاقتباس: 2 / 399.

(72) المصدر نفسه: 2 / 525 - 527.

(73) الأنصاري، المصدر السابق، ص 114.

(74) ابن الخطيب، المصدر السابق: 11/3 - 12 هامش (2)؛ ابن الخطيب، المصدر السابق: 378/2.

(75) الناصري، المصدر السابق: 3 / 115.

محنة ابن رشد بين الفلسفة والسياسة

المقدمة:

تناول المؤرخون قدامى ومحدثون ابن رشد بالدراسة، سيرةً وفكراً ونهايةً، والتي يبدو وعلى ظواهرها الشمول الذي لم يستثن جانباً إلاّ تقصاه، ولا زاوية إلاّ أشبعها بحثاً، نسباً وعائلة ومكانة سياسية وفكرية، ولعله من أكثر من حظي بهذا الاهتمام، فهو واحد من أكبر علماء الأمة ترك بصماته الواضحة على مسارها الفكري والعقلي.

ونظراً لهذه المكانة التي أهلته للإنفراد بحظوة حكام عصره من الأمراء الموحدين وخلفائهم، فقد أثارت نهايته صدمة لم يتمكن من استيعابها المعاصرون له واللاحقون ومن تبعهم بالاهتمام بالمنحى الذي بدى إلى هذا المصير لذلك جالوا في ثنايا سيرته الواسعة وفكره اللامحدود بحثاً عن ما يقنعهم ويجد أجوبة لتساؤلاتهم بعد أن فقدوا القدرة في نفي ما نسب إلى ابن رشد جملةً وتفصيلاً لأسباب معروفة، فتصدوا لتبرير من يوجب عليهم تبرير أفعاله.

فثبتوا عواملاً مختلفة جمعت بين الذاتية والفكرية والسياسية، ظنوا أنها كافية لإقناع من عليهم إقناعه وأنفسهم أولاً، بأن ما آل إليه مصير ابن رشد، هذه جرائره ومسبباته، وتناقل ذلك اللاحقون دون الوقوف على مصداقية ما ورثوه، ومنطقيته وانسجامه ودوافعه ومبرراته.

وأقر بذلك المحدثون الذين لم يألوا جهداً للنفاذ من الدائرة التي أحيط بها ابن رشد فلم يكن أمامهم سوى أن يدوروا في فلكها.

ولكل هذه التراكمات يجد المطلع أن الباب قد اقفل على هذه الحقيقة، إلاّ أن ما يستفز الباحث أن هناك الكثير من ملامح الصورة غير الواضحة وفجوات وتساؤلات تحتاج إلى من يتصدى للبحث عن أجوبة لها، فكان مبرراً محفزاً لهذه الدراسة لفتح الباب من جديد لتقصي طبيعة هذه الحقيقة وما يختفي ورائها من مقاصد كان التعمد واضحاً في التحويد عليها، أم الجهل بخفايا ما كان يدور في الكواليس وراء تشكلها.

فلعلَ هذه الدراسة التي عادت لتناول الموضوع تلقي شعاعاً من الضوء على الحقيقة من خلال رؤية تنهج نحو إعادة تقييم ما ورد من روايات من خلال تحليلها

ومعارضتها مع الواقع ونقدها الموضوعي، بما يفرضه التجرد في البحث العلمي.

أولاً - نسبه:

لم تقدم مصادرنا التاريخية معلومات كاملة عن أصل ونسب ابن رشد، بل تكتفي بذكر اسمه وأسماء عدد من أسلافه دون الإشارة إلى العشيرة أو القبيلة التي ينتمي إليها، فهو محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن أحمد بن محمد أحمد بن عبد الله ابن رشد [1]. ويكنى بأبي الوليد [2]، ويلقب بابن رشد الحفيد تمييزاً له عن جده الأعلى ابن رشد [3]. ويبدو أن شهرة عائلته كان السبب في عدم تدوين نسبه الكامل [4].

ثانيا - نشأته وثقافته:

ولد بمدينة قرطبة حاضرة الأندلس سنة 520 هـ / 1126 م [5]، ونشأ في بيت عريق في العلم والشرف، فقد كان أباه وجده من رجال العلم والسياسة المرموقين، وكانا على صلة بالدولة ورجالها.

إذ كان جده محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد المالكي (450 - 520 هـ / 1058 - 1126 م) قد جمع بين العلم وحسن الأخلاق والفضيلة، فقد كان من أكبر علماء المغرب والأندلس، بارعاً في علم الفقه، بصيراً بالأصول والفروع والفرائض، قال عنه ابن بشكوال: " وكان فقيهاً حافظاً للفقه مقدماً فيه على جميع أهل عصره ... ناقداً في علم الفرائض والأصول من أهل الرياسة في العلم والبراعة والفهم مع الدين والفضل، والوقار، والحلم، والسمت، والهدي الصالح " [6]. أما الضبي فوصفه بقوله: " وكأن أوحد زمانه في طريقة الفقه " [7].

تولى سنة 511 هـ / 1117 م، منصب قاضي القضاة في قرطبة، وصاحب الصلاة بمسجدها الجامع [8] في عهد علي بن يوسف بن تاشفين (500 - 537 هـ / 1106 - 1142 م) أمير المرابطين، وقد كان عادلاً في قضائه حيث ذكر بأنه: " سار فيه [القضاء] بأحسن سيرة، وأقوم طريقةً " [9]، ولكنه لم يدم في وظيفته حيث تقدم بطلب لإعفائه فأعفي، ثم كرّس كل وقته وجهده لاهتماماته العلمية ونشر مؤلفاته [10] ومنها كتاب المقدمات لأوائل كتاب المدونة، وكتاب البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل، وكتاب اختصار المبسوطة، وكتاب

اختصار مشكل الآثار للطحاوي [11].

أما من الناحية السياسية فقد حظي ابن رشد الجد بتقدير كبير من قبل البلاط المرابطي، فقد كان مقرباً إلى أمير المرابطين علي بن يوسف، ومعتمداً عليه في الشدائد [12]، حيث ضمت مصادرنا التاريخية إشارات إلى قيامه ببعض المهام السياسية ففي سنة 519هـ / 1225 م عبر من الأندلس إلى المغرب، والتقى بأمير المرابطين علي بن يوسف في مراكش حيث تلقاه بالحفاوة والتكريم، واستمع إلى شرحه عن معاناة أهل الأندلس بسبب نقض المعاهدين النصارى لعهدهم واستدعائهم لابن رذمير وطلب منه إنزال العقوبة بهم بإجلائهم عن الأندلس، وقد تلقى الأمير علي طلبه بالقبول وأصدر أمره إلى جميع بلاد الأندلس بنفي المعاهدين النصارى إلى المغرب [13]، وتقدم بطلب آخر إلى الأمير علي بعزل أخيه الأمير أبي طاهر تميم عن الأندلس وتعيين والٍ آخر بدله [14]. ويبدو أن السبب الذي دعا ابن رشد لهذا المطلب هو سوء سياسة الوالي أبي طاهر، كما نبّه ابن رشد الأمير علي بضرورة إحاطة مدينة مراكش بسور حصين، وقد أخذ الأمير علي برأيه وشرع في نفس السنة 519 هـ / 1225 م ببناء سور حول مراكش، كما أصدر أمره إلى الأندلس بالنظر في الأسوار في جميع البلاد [15].

توفي ابن رشد الجد بقرطبة بعد حياة حافلة بالاهتمامات العلمية والمهام الإدارية والسياسية في سنة 520 هـ / 1126 م ودفن بمقبرة العباس [16].

أما والد ابن رشد الحفيد أبو القاسم أحمد بن محمد الذي عاش ما بين 487 - 563 هـ / 1094 - 1167 م) [17]، فمكانته لم تكن أثقل شأناً من مكانة جده، فكان فقيهاً، وله مؤلفات في الفقه والحديث [18]، تولى قضاء قرطبة سنة 532 هـ / 1137م واستعفي منه وتفرغ لمهامه العلمية [19] إلى أنه توفي سنة 563 هـ / 1167 م ودفن بمقبرة العباس [20].

ويقيناً أن فيلسوفنا ابن رشد الحفيد الذي ترعرع وشبّ في هذه البيئة قد تشرب منها، واتخذ من جده ووالده قدوة حسنة له، مستفيداً من آرائهما ومما خلفاه له من مؤلفات في مختلف العلوم إذ نشأ منذ نعومة أظفاره على العلم والتعلم، ودرس على يد والده، وشيوخ عصره، قال عنه عبد الملك المراكشي " لقي جماعة وافرة من أهل العلم أخذ عنهم " [21]، وصارت له معرفة جيدة في علوم مختلفة،

وألّف في معظمها فبرع في علم الفقه وأصبح إماماً فيه [22]، وعلم الحديث [23]، واللغــة والآداب [24]، كمــا درس الطــب والرياضــيات [25]، ثــم علــم الكــلام والفلسفة [26]. وقد قال عنه ابن الأبار: " ولم ينشأ في الأندلس مثله كمالاً وفضلاً، وكان على شرفه أشد الناس تواضعاً وأخفضهم جناحاً، عني بالعلم من صغره إلى كبره حتى حكي عنه أنه لم يدع النظر ولا القراءة منذ عقل إلاّ ليلة وفاة أبيه وليلة بنائه على أهله، وأنه سوّد فيها وصنّف، وقيّد، وألّف، وهذّب واختصر نحو عشرة آلاف ورقة " [27].

هذه المكانة العلمية التي تبوأها، وما امتلكه من سيرة، وشرف عائلته، أهلته لأن ينال مكانته السياسية عند الحكام الموحدين، وقد منعته أخلاقه أن يستغل يوماً هذه المكانة لتحقيق منفعة شخصية، بل كرّس جهوده لخدمة أهل الأندلس، وقد أشار مؤرخونا إلى ذلك بالقول عنه: " تأثلت له عند الملوك وجاهة عظيمة لم يصرفها في ترفيع حال ولا جمع مال إنما قصرها على مصالح أهل بلده خاصة ومنافع أهل الأندلس عامةً " [28].

ثالثاً - عصره:

شهد ابن رشد السنوات الأخيرة من حكم دولة المرابطين للأندلس، وعاش في ظل قوة حكم دولة الموحدين لها حيث تمكنوا من دخولها وبدعوة من أهل الأندلس سنة 540 هـ / 1146 م [29]، وأسقطوا مدنها الواحدة تلو الأخرى، وبقيت مدينة غرناطة آخر معاقل المرابطين في الأندلس أسقطت سنة 551 هـ / 1156 م [30].

اتسم عصر دولة الموحدين بحرية الفكر لأن أساس قيام هذه الدولة كان على أساس دعوة فكرية إصلاحية، وأن خلفائها الذين عاصرهم ابن رشد ابتداءاً من خليفتهم الأول عبد المؤمن بن علي (524 - 558 هـ / 1129 - 1162 م) ومن بعده ولده أبو يعقوب يوسف (558 - 580 هـ / 1162 - 1184 م) وحفيده يعقوب المنصور (580 - 595 هـ / 1184 - 1198 م) وجهوا اهتماماً كبيراً للعلم والثقافة، فقد كان الخليفة عبد المؤمن محباً لأهل العلم مقدراً مكانتهم حريصاً على جمعهم في بلاطه، وإكرامهم حيث كان يجري لهم العطايا والأموال الجزيلة [31]، ذلك أن الخليفة كان: " عالماً بالجدل فقيهاً في علم الأصول، حافظاً لحديث النبي

ﷺ، متقن الرواية، مشاركاً في كثير من العلوم الدينية والدنيوية، إماماً في النحو واللغة والأدب والقراءات ذاكراً للتاريخ " [32].

فلا عجب أن يكون الخليفة عبد المؤمن حريصاً على خلق جيل من المثقفين أطلق عليهم اسم الطلبة وقسّمهم إلى قسمين " طلبة الموحدين " وهم من المصامدة قبيلة المهدي بن تومرت وأهل الدولة وكانوا متخصصين في فكر المهدي، وفي علم الأصول، أما الصنف الثاني فهم طلبة الحضر [33]، كما جمع في العاصمة مراكش ما يقارب الثلاثة آلاف صبي من المصامدة وغيرهم متقاربين في السن بهدف تنشأتهم نشأة علمية وعسكرية تحت إشرافه المباشر، وسمّاهم فئة الحفاظ لتعليمهم وتحفيظهم مؤلفات المهدي ابن تومرت ككتاب " موطأ المهدي " وكتاب " أعز ما يطلب " وغير ذلك، بالإضافة إلى تدريبهم عسكرياً حول كيفية ركوب الخيل، والرماية، والسباحة، وكانت نفقتهم ومؤنهم وخيلهم وعدتهم على حسابه. ولما تمت تنشئتهم وحقق هدفه قام بتعيينهم في الأجهزة الإدارية العليا للدولة بدل شيوخ الموحدين الذين أعفاهم من تلك المناصب وجعلهم مستشارين لهم، وكان من بين هؤلاء الحفاظ الثلاثة عشر من أبنائه عيّنهم في تلك المناصب، وبعد إلحاح من شيوخ الموحدين [34].

كما اهتم الخليفة عبد المؤمن بوضع نظام التعليم للمدارس التي قام بتأسيسها في مراكش مستعيناً بآراء ومشورة نخبة من علماء المغرب والأندلس، وكان من بين العلماء ابن رشد الذي تلقى دعوة الخليفة عام 548 هـ / 1153 م [35]، وهذه الدعوة كانت بداية اتصال فيلسوفنا ابن رشد بالبلاط الموحدي.

تولى حكم دولة الموحدين بعد الخليفة عبد المؤمن ابنه أبو يعقوب يوسف، وقد سار على خطى والده في تدبير جميع شؤون الدولة حيث قال عنه ابن أبي زرع " لمّا ولي أخذ بنهج أبيه وسلك سبيله واهتدى بهديه، وسار بسيرته واقتدى بأفعاله :.. ومهّد البلاد وأطاعه من بالعدوتين من العباد وضخّم ملكه ... وكثرت الأموال في أيامه وتمهدت البلاد ... وصلح أمر الناس ... وذلك لحسن سيرته الجميلة وعدله الشامل لرعيته وتفقده لأحوال بلاده القريبة والبعيدة ومباشرة أمور مملكته بنفسه حتى لا يغيب عنه منها شيء " [36].

دعم الخليفة أبا يعقوب العلم والعلماء، فقد كان نفسه عالماً وقد وصفه عبد الواحد المراكشي بقوله: " كان ذا إيثار للعلم شديد وتعطشى إليه مفرط ... وكان له مشاركة في علم الأدب، واتساع في حفظ اللغة، وتبحر في علم النحو ... ثم طمح به شرف نفسه وعلو همته إلى تعلم الفلسفة ... وبدأ من ذلك بعلم الطب ... ثم تخطى ذلك إلى ما هو أشرف منه من أنواع الفلسفة، وأمر بجمع كتبها فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموي " (37).

وقد أحاط نفسه بالعلماء مذ كان والياً على أشبيلية في عهد والده الخليفة عبد المؤمن (38)، وازدادت أعداد هؤلاء العلماء بعد أن أصبح خليفة إذ بلغ ما اجتمع له منهم ما لم يجتمع لحاكم من قبله ممن ملك المغرب (39)، وكان على رأس هؤلاء العلماء المقربين إليه ابن طفيل (ت 587هـ / 1191م) الفيلسوف الذي كان يقوم بمهمة جلب العلماء من جميع الأقطار ويقدمهم للخليفة ويبين له مؤهلاتهم، ويحضه على إكرامهم(40).

بدأت علاقة ابن رشد بالخليفة أبي يعقوب مبكراً مذ كان والياً على أشبيلية، فقد علّق الأستاذ الجابري على هذه العلاقة المبكرة تعليقاً موفقاً (41). ويذكر بأن ابن طفيل هو من قدّم ابن رشد إلى أبي يعقوب سنة 548 هـ / 1153 م، فقد روى عبد الواحد المراكشي على لسان أحد تلامذة ابن رشد ما نصه: " سمعت الحكيم أبا الوليد يقول غير مرة لمّا دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب وجدته هو وأبو بكر طفيل ليس معهما غيرهما، فأخذ أبو بكر [ابن طفيل] يثني عليّ ويذكر بيتي وسلفي، ويضم بفضله إلى ذلك أشياء لا يبلغها قدري، فكان أول ما فاتحني به أمير المؤمنين بعد أن سألني عن اسمي واسم أبي ونسبي أن قال لي: ما رأيهم في السماء - يعني الفلاسفة - أقديمة هي أم حادثة فأدركني الحياء والخوف، فأخذت أتعلل وأنكر اشتغالي بعلم الفلسفة ولم أكن أدري ما قرر معه ابن طفيل ففهم أمير المؤمنين مني الروع والحياء فالتفت إلى ابن طفيل وجعل يتكلم على المسألة التي سألني عنها، ويذكر ما قاله أرسطو طاليس وأفلاطون وجميع الفلاسفة ويورد مع ذلك احتجاج أهل الإسلام عليه، فرأيت منه غزارة حفظ لم أظنها في أحد من المشتغلين بهذا الشأن المتفرعين له، ولم يزل يبسطني حتى تكلمت، فعرف ما عندي من ذلك فلمّا انصرفت أمر بمال وخلعة سنية ومركب " (42)، وكان من نتائج

هذا اللقاء تكريم ابن رشد بعد أن اطلع الأمير أبو يعقوب على سعة ثقافته وعلمه وكلّفه بتلخيص كتب أرسطو طاليس، وتقريب أغراضها [43]، وعندما تولى الخلافة ولى ابن رشد قضاء أشبيلية سنة 565 هـ / 1169 م، ثم قضاء قرطبة سنة 576 هـ / 1180 م، وأصبح طبيبه الخاص بعد وفاة ابن طفيل [44].

حافظ ابن رشد على مكانته الرفيعة في بلاط الموحدين بعد وفاة الخليفة أبو يعقوب 580 هـ / 12184 م، ومجيء ابنه يعقوب المنصور الذي لم يقل أهمية عن والده فما حققه من إنجازات متعددة الجوانب منها العسكرية والعمرانية والثقافية، على الرغم من المشاكل التي واجهت خلافته ولا سيما تآمر بعض أفراد أسرته للإطاحة به عن كرسي الخلافة، وكان عمه السيد أبو إسحاق إبراهيم بن عبد المؤمن أول المتآمرين عليه، لكنه تمكن من قتله [45]، وانتفض عمه أبو الربيع سليمان بن عبد المؤمن في تادلا من بلاد صنهاجة، وأخوه أبو حفص عمر الملقب بالرشيد في مرسية شرق الأندلس، واللذين كانا يرا أنهما أحق بالخلافة من يعقوب المنصور مستغلان الظروف التي كان يمر بها الخليفة في حربه ضد بني غانيه فقام عمه أبو الربيع بالاتصال ببعض شيوخ صنهاجة وعرض عليهم مساندته، لكنهم لم يؤيدوه وأوصلوا خبر تآمره إلى الخليفة، وأما أخوه أبو حفص فبدأ مؤامرته بالتحدث علناً بالسوء على الخليفة يعقوب، وقيامه بقتل والي مرسيه وخطيبها المعروف بابن أبي جمرة، ووصلت أخبار تمرده إلى أخيه الخليفة الذي انزعج من أمر تمرده وتمرد عمه أبو الربيع وأصدر أمره بالقبض عليهما وقتلهما [46]. وفي سنة 585 هـ / 1189 م ظهر طامع آخر في خلافة يعقوب المنصور هو أخوه أبا يحيى، ذلك أن الخليفة يعقوب بعد أن رجع من الأندلس سنة 585 هـ / 1189 م، أصيب بمرض شديد خيف عليه منه، وكان أخوه أبو يحيى آنذاك والياً على الأندلس فطمع بالخلافة لنفسه، وأظهر أطماعه وأعلن على مشايخ ورؤساء الأندلس قرب وفاة الخليفة ودعاهم لبيعته لكنهم خافوا من مغبة الأمر فلم يعطوه البيعة، وكتبوا بأمره إلى الخليفة الذي سرعان ما تعافى من مرضه، ولمّا سمع أبو يحيى بشفاء الخليفة حاول تدارك أمره وسارع للعبور إلى المغرب للقاء الخليفة وتقديم الاعتذار له، ولكن كان رد الخليفة هو القبض عليه وإصدار حكم الإعدام فيه وقال له: " إنما أقتلك بقوله ﷺ إذا بويع خليفتان بأرض فاقتلوا الأخير منهما " [47]، وعلى أثر ذلك اتبع الخليفة

يعقوب المنصور مع بقية قرابته سياسة الشدة بحيث كل واحد منهم بات لا يشك أنه مقتولاً إذا ما سولت له نفسه القيام بأي عمل ضد الخليفة [48].

وعلى الرغم من التهديدات والمخاطر التي أحاطت بخلافته لكنه لم يهمل شؤون بلده ورعيته، وحقق العديد من المنجزات العسكرية والعمرانية والثقافية، ففي المجال العسكري أشارت المصادر إلى حبه للجهاد، واهتمامه الكبير بالجيش، فقد حرص على ضبط الثغور وشحنها بالجند [49]، وتمكن من تحقيق العديد من الانتصارات في جهاده ضد الممالك الأسبانية، ولا سيما في معركة الأرك الشهيرة سنة 591هـ /1194م [50].

أما في مجال البناء والعمران فقد عرف عنه أنه كان شغوفاً بالبناء، فقد قيل ما نصه: " وفي طول أيامه لم يخل من مصر يستجده أو مدينة يعمرها " [51]، حيث قام بإكمال مدينة الرباط التي بدأ بناءها والده أبو يعقوب [52]، وأحدث زيادات كثيرة في بناء مدينة مراكش لا سيما بنائه للمارستان فيها [53]، كما بنى الصوامع والقناطر [54].

وفي المجال العلمي والثقافي لم يكن الخليفة يعقوب المنصور أقل قدراً في هذا المجال من والده وحده، وسار على خطاهما حيث أولى اهتماماً كبيراً ببناء دور العلم منها للمساجد والمدارس [55]، وأكرم الفقهاء وراعى الصلحاء والفضلاء، وأجرى للطلبة والفقهاء مرتبات على قدر مراتبهم وطبقاتهم [56]، وكان كوالده عالماً متمكناً يجمع حوله العلماء، ويعشق الجدل والمناقشات الفلسفية، وفي ظل هذا الجو العلمي والثقافي، حافظ فيلسوفنا ابن رشد على مكانته في البلاط الموحدي، وصار ملازماً للخليفة يعقوب مكيناً عنه وجيهاً في دولته، مقدماً في مجالسه [57]. وقد أشار مؤرخنا عبد الواحد المراكشي إلى ذلك بقوله: " وفي أيامه [الخليفة يعقوب] انقطع علم الفروع ... وأمر بإحراق كتب المذهب [المالكي] بعد أن يجرد ما فيها من حديث رسول ﷺ والقرآن ... وكان قصده في الجملة هو مذهب مالك في المغرب مرة واحدة، وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث، وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجده، إلاّ أنهما لم يظهراه وأظهره يعقوب [58].

ولكن على الرغم من الحظوة الكبيرة التي لقيها فيلسوفنا ابن رشد في البلاط الموحدي لكنه نكب في آخر عمره وعلى يد الخليفة يعقوب المنصور سنة 593 هـ / 1196م، ووصفت هذه النكبة في مصادرنا التاريخية أنها " محنة

شديدة "[59] و" نكبة شنعاء "[60].

محنة ابن رشد:

سنة 593 هـ / 1196 م عاد الخليفة يعقوب المنصور إلى قرطبة بعد تحقيقه نصراً مؤزراً في معركة الأراك الشهيرة 591 هـ / 1194م[61]، وفي إحدى مجالسه العلمية التي تجمع كبار رجال دولته وطلبته وأهل العلم والفقهاء، استمع إلى ما اعتبره المؤرخون ملفاً، قد أعد بحق ابن رشد ومجموعة من العلماء احتوى على " أدلة اثبات تدين هذه المجموعة، لخروجها على الشرع ومروقها عن الدين. ولما كان الخليفة ممثلاً للشرع الزائد عنه، فلم يكن أمامه سوى الدعوة لجلسة عامة يعلن فيها أمام الملأ تكفير هذه المجموعة [62].

وفي المسجد الجامع بقرطبة التقى جمع من الفقهاء والطلبة وأهل الحديث، لمحاكمة ابن رشد ومن معه وعرضت أدلة الإدعاء على ابن رشد فأنكر أن يكون له صلة بها، إلاّ أن إنكاره لم يجدِ نفعاً، كما لم تغير حجج من تصدى للدفاع عنه قناعات قضاته، فأدين بما نسب إليه، وتقرر نفيه ومن معه، فأبعد إلى قرية اليسانة، وفرض عليه الإقامة الإجبارية وأمر بلعن مبادئه، وتعميم منشور على جميع نواحي الخلافة، يتضمن التعريض بهؤلاء المارقين، ومبررات معاقبتهم، تحذر عامة الناس من مغبة الانخداع بأفكارهم ثم تدعوهم إلى إحراق كتبهم باستثناء علوم الطب والحساب والفلك [63].

ويبدو أن مؤرخينا المعاصرين للأحداث واللاحقين لها، قد فوجئوا بالمصير الذي آلت إليه حياة ابن رشد، وعلى الرغم من أن بعضهم قد ضمن مصنفاته منشور الإدانة [64] الذي صدر بحق ابن رشد، إلاّ أنهم لم يكونوا مقتنعين بما تضمنه من مبررات استوجبت اتهامه ومحاكمته، ويؤكد ذلك ما ذكروه من عوامل اعتقدوا أنها كانت مسببات لمحنته، محاولة لإقناع أنفسهم وجمهورهم - أو تبريراً لفعل من يعتقدون بوجوب طاعته والقبول بارادته.

و من هذا المنطلق احتوت مصادرنا عدة أسباب اجتمعت على ابن رشد وقررت مصيره.

من ذلك ما يذكره عبد الواحد المراكشي عن سبب النكبة إذ يذهب إلى أن العلاقة بين المنصور الموحدي وابن رشد لم تكن طيبة، ويرجع ذلك إلى طريقة

تعامل ابن رشد مع الخليفة الذي أشر عليه استهانة به، وتجاهله بما يوجب عليه من حق التبجيل والتعظيم، إذ يقول عن طريقته في الكتابة جارياً في ذلك على طريقة العلماء في الإخبار عن ملوك الأمم وأسماء الأقاليم غير ملتفت إلى ما يتعاطاه خدمة الملوك ومتحيلو الكتاب من الإطراء والتقريظ وما جانس هذه الطرق، فكان مما احنقهم عليه، غير أنهم لم يظهروا ذلك "[65].

وما يؤشر هذه الغفلة أو التغافل الذي وسم سلوك ابن رشد في التعامل مع أولي الأمر، ما ذكره في شرح كتاب الحيوان لأرسطو، إذ أشار عند ذكر الزرافة، بقوله: " وقد رأيتها عند ملك البربر "[66] مما أثار نقمة المنصور عليه.

فضلاً عن ذلك أن تجاهل في حديثه مع المنصور ما يوجب التوقير والتبجيل له فيذكر في ذلك: " ومما كان في قلب المنصور من ابن رشد متى حضر مجلس المنصور وتكلم معه أو بحث عنده في شيء من العلم يخاطب المنصور بأن يقول: " تسمع يا أخي "[67].

ومن جهة أخرى عد البعض من المؤرخين، أن اشتغال ابن رشد بالفلسفة سبباً من أسباب محنته ومن معه في هذا المضمار إذ يذكر، أنه فعل بهم الخليفة يعقوب المنصور ذلك بسبب ما يدعي فيهم أنهم مشتغلون بالحكمة وعلوم الأوائل، ويبدو أن هذا الاتجاه كان منسجماً مع ما تضمنه منشور الخلافة في مبررات المحاكمة التي أدانت ابن رشد ومجموعته لتعاطيهم الفلسفة وخروجهم على الشريعة ومروقهم عن الدين، ما استوجب إدانتهم، والنهي عن العمل بالفلسفة وإحراق كتبها[68].

وهناك من يذكر سبباً لا علاقة لابن رشد به، وإنما كان ضحية لمجموعة من الحانقين والحاسدين من فقهاء الناقمين عليه لمكانته وحظوته لدى البلاط الموحدي، وهذا ما حركهم للإيقاع به من خلال تأويل كل ما ورد في مصنفاته، عدوه خروجاً على الشريعة بإيثاره لحكم الطبيعة، ولم يتوقفوا عن ذلك، بل ادعوا ألفاظاً عديدة وفصولاً ربما كانت غير سديدة وجمعت في أوراق وقيل أن بعضها ألف بخطه "[69].

وبعد أن استكملوا ملفهم رحلوا من قرطبة إلى مراكش سنة 590 هـ / 1193 م لعرضها على الخليفة يعقوب المنصور، إلاّ أن هذا الجمع المغرض لم يتمكن من

مقابلته لانشغاله بالاستعداد للجهاد فعادوا أدراجهم [70]. إلاّ أن المحاولة تجددت إثر استقرار المنصور في قرطبة بعد عودته منتصراً في معركة الأراك الشهيرة ضد قشتالة سنة 591 هـ / 1194م، وفي مجالس المذاكرة التي أقامها، تهيأ لهم عرض ما جمعوه من ادعاءات أمام الخليفة يعقوب، مما عدّ خروجاً عن الشريعة، ولم يكن أمام الخليفة سوى الرضوخ لتوجهاتهم، والأمر بمحاكمة ابن رشد ومن معه [71].

ويذكر عبد الملك المراكشي، سبباً آخر لمحنة ابن رشد، وهو اختصاصه بأبي يحيى أخي المنصور والي قرطبة، وكان المنصور قد ولاّه أمر الأندلس، فسعى إلى الخلافة وتطلع إليها مستغلاً مرض أخيه فطلب من مشايخ الأندلس ووجهائها مبايعته، لكنهم امتنعوا خوفاً من عاقبة الأمور وبعد أن شفي المنصور من مرضه، اطلع على فعل أخيه فأمر بقتله [72].

من خلال هذا الاستعراض لمجمل أسباب المحنة التى أوردها المؤرخون يمكن ابتداءاً تأشير جملة ملاحظات قبل البدء بمناقشتها:

1 - أن تعدد أسباب المحنة يشير إلى أن المؤرخين الذين تصدوا لها لم يتفقوا على سبب بذاته عدّ مبرراً منطقياً لها.

2 - على الرغم من صدور منشور رسمي، يوضح أسباب المحنة ومبرراتها، إلاّ أن مؤرخينا على ما يبدو لم يكونوا مقتنعين بها.

3 - استناداً إلى ما سبق، لجأ المؤرخون للبحث في سيرة ابن رشد ومصنفاته العلمية عن ما يمكن أن يكون مبرراً لهذه المحنة، وفق تصوراتهم وتقديراتهم، فطغى عليها الظن والتخمين، ولم يرقَ أي ما ذكر منها إلى مستوى اليقين، فضلاً عن ذلك، فإن المؤرخين المتأخرين تناقلوا هذه الروايات دون نقدها للوقوف على مصداقيتها.

4 - أهمل المؤرخون التحديد التاريخي لما ذكروه من أسباب، بحيث يجد الباحث صعوبة في تقرير التسلسل الزمني للأحداث، ومعرفة هل أنها اجتمعت على ابن رشد خلال حكم المنصور، أم كانت سابقة له.

5 - إن بحث المؤرخين عن مبررات للمحنة، يؤكد إيمانهم بحقيقة ما نسب إلى ابن رشد كمبدأ، أو ما نسبوه هم إليه، إذ لم نجد من المعاصرين واللاحقين من ينفي هذه التهم جملةً وتفصيلاً، وهذا يعود إلى أنهم لم يسعوا للتشكيك في أهداف

السلطة أو الطعن في مصداقيتها.

لهذه الاعتبارات يجد الباحث أن المنهج العلمي يلزم مناقشة هذه الروايات للوقوف على ما يمكن أن يتقبله العقل والمنطق لما حصل.

نبدأ أولاً بمناقشة ما قيل عن طبيعة العلاقة بين الخليفة يعقوب المنصور وابن رشد، والتي أشرت سبب الجفاء والنكبة، لحنق المنصور عليه، وجفوته له، لجهل ابن رشد بمراسيم البلاط وأسلوب التعامل مع أولي الأمر.

بالاستناد إلى ذات المصادر إلى أرخت لسيرة ابن رشد، نسباً وعائلةً ونشاةً، نجد مؤشرات كافية لرصانة المكانة العلمية والاعتبارية لهذه الأسرة، وعلاقتها الوطيدة بالبلاطات الحاكمة (مرابطبن وموحدين)، وقد ورث ابن رشد تراث عائلته وتمثله في كل اتجاهاته العلمية والسياسية، فعلى المستوى السياسي، بدأ اتصال ابن رشد بالبلاط الموحدي منذ سنة 548 هـ / 1153 م، بعد أن استدعاه الخليفة عبد المؤمن، وابن رشد في مقتبل العمر (73)، وتعززت هذه العلاقة وتوطدت من خلال علاقته بابن يعقوب يوسف، أميراً وخليفةً، وأصبح من خاصة مقربيه وموظفي بلاطه (74)، وعلى المستوى الشخصي، عرف ابن رشد بأنه " كان على شرفه أشد الناس تواضعاً وأخفضهم جناحاً " (75)، وصف بالورع، والحياء، والحلم، وحسن السيرة (76).

وبعد كل هذا هل يمكن أن يوصف ابن رشد بالجهل في مراسيم البلاط، وأسلوب التعامل مع أولي الأمر. بلا شك أمر كهذا لا يمكن التسليم به، وإلاّ لكان قد أشر عليه منذ فترة مبكرة، ولم يرد ما يؤكد ذلك، وإذا لم يكن هذا الأسلوب قد درج عليه في التعامل مع الخلافة بل خص بها الخليفة يعقوب المنصور، فليس هناك ما يشير إلى أن ابن رشد كان له موقفاً معارضاً لولايته وشخصه، وهذا ما أدام علاقته الوطيدة بالبلاط الموحدي، فعلى الرغم من ندرة المعلومات التي تحدد حيثيات هذه العلاقة، إلاّ أن ابن رشد " كان مكيناً عند المنصور وجيهاً في دولته " (77)، إذ اختصه بحظوته وقربه في مجالسه حافظاً له مكانته، فعند نزول الخليفة يعقوب بمدينة قرطبة سنة 591 هـ / 1194 م، وهو في طريقه لخوض معركة الأرك، استدعى ابن رشد وقرّبه حتى تعدى بموضعه كبار رجال الدولة، وأجلسه إلى جانبه، وحادثه ومن معه من الطلبة، وهذه المنزلة استدعت تهنئته من قبل

أصحابه، إلاّ أنه توجس خيفة من أن هذه الحظوة لابد أن تثير حنق حسّاده وأعدائه، فأجاب مهنئيه بقوله: " والله أن هذا ليس مما يستوجب الهناء فإن أمير المؤمنين قربني دفعة أكثر مما كنت آمل فيه أو يصل رجائي إليه "[(78)].

وهذا الكلام وإن يشير إلى علاقة غير مستديمة مع الحاكم المنصور بحيث فوجئ ابن رشد نفسه من تقريبه دفعة بشكل لم يتوقعه، إلاّ أن إطلاقه يؤكد حميمية العلاقة ووثوقها على الأقل في ظواهرها.

ما ينبغي قوله لا يوجد مسوغ على صعيد الموقف والعلاقة يبرر لابن رشد موقفه السلبي من الخليفة يعقوب، ويستهين به ولا يؤدي حقوقه، وإذا ما حادثه يخاطبه بقوله: " تسمع يا أخي " وإذا ما أشار إليه لقبه " بملك البربر " [(79)]، ويضفي المؤرخون على الرواية ما يشير إلى تنازل ابن رشد عن كلامه معتبراً ذلك من خطأ النساخ، وأنه قال: " ملك البرين " المغرب والأندلس [(80)].

ويؤكد الدارسون هذه التهمة، ويردون ذلك إلى " الثقة والكبرياء " [(81)] وتضايق ابن رشد من الخليفة يعقوب لجهله، وافتقاره للمعرفة والعلوم [(82)].

إنّ المنطق يرفض أن تصدر هكذا افتراضات، انساقت وراء ما ذكر روايات وتصدت لتبريرها، فابن رشد بتكوينه الشخصي والفكري والعلمي، وعلاقته الطويلة بالبلاط الحاكم، يجنبه هكذا استهانة في التعامل مع أولي الأمر، إذ يدرك أكثر من غيره، أن هكذا تجاهل لم يكن لخليفة مثل يعقوب، أن يطيقه ويصبر على مثله ويكتمه وهو لم يغفر لأكثر الناس قرباً منه [(83)].

فضلاً عن ذلك أن " كتاب الحيوان لأرسطو " الذي أشير فيه إلى حديث الزرافة، قد تمّ الفراغ من شرحه سنة 565 هـ / 1169 م، أي في عهد الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، فإذا افترضنا صحة الرواية فإن الإشارة تعنيه. وهذا أمر لايمكن أن يقصده ابن رشد.

أما ما يتعلق باشتغاله بالفلسفة وعلم الأوائل، التي أدين بها بشكل رسمي، وصدر منشور بذلك يوضح موقف السلطة الموحدية من أولئك الذين أدينوا بهذه التهمة وما شكّله تعاطيهم لها من أخطار على الشرع والدين وحذر العامة من الانسياق وراء أفكارهم، ودعى إلى حرق كتب الفلسفة وغيرها من علوم الأوائل، وهذا يؤكد أن التهمة التي ألتزمتها السلطة وأكدها المؤرخون هو تعاطي الفلسفة.

إلاّ أن ما يمكن تأشيره هنا، أن تعاطي الفلسفة لم يكن عملاً طارئاً استجد خلال مدة حكم الخليفة يعقوب المنصور، ولا هو اجتهاد التزمه ابن رشد ومن تبعه من العلماء، بل هو نهج فكري وثقافة كرسته الدولة الموحدية منذ قيامها، والتزم حكامها العلماء مستهدفين بعث نهضة علمية قائمة على الحرية والفكرية، وقد حظيت علوم الأوائل من طب وفلسفة وحكمة باهتمام واسع من قبلهم [84]. ولا أدل على هذا من منشأ علاقة ابن رشد بالسلطة الموحدية، يعود إلى حرص هذه السلطة لتسخير إمكاناته العلمية في ترسيخ الاتجاهات الفكرية الجديدة، إذ تمَّ إنجاز معظم شروحه ومصنفاته في علوم الأوائل بإيعاز وإشراف أمير المؤمنين أبو يعقوب يوسف، الذي اشتهر بولعه في الفلسفة وجمع كتبها [85]، وانتهج يعقوب المنصور سياسة أبيه من خلال عشقه للجدل والمناظرات الفلسفية [86].

لقد كان ابن رشد منسجماً مع التوجهات الفكرية الرسمية والواقع العلمي في عصره في دولة الموحدين، فما الذي حصل لتغيير القناعات وتنحو الدولة إلى محاربة الفلسفة وإدانة من يتعاطاها.

يذهب بعض الدارسين، إلى أن تياراً بدأ يتبلور في مستهل خلافة يعقوب المنصور، مثّله أهل الحديث ومن الصالحين والمتبتلين، الذين حظوا باهتمام المنصور ودعمه، واتخذ منهم عدة له وطلبة، فقامت لهم سوق وعظمت مكانتهم منه ومن الناس، فكان ذلك تمهيداً لإحداث تغييراً في السياسة الثقافية للدولة التي نزعت إلى ترك الاشتغال بعلم الفلسفة والخوض فيه [87].

وإذا صحَّ هذا الافتراض، فإن هذا لا يستدعي إدانة ومحاكمة، ولمجموعة صغيرة بذاتها، تتحمل لوحدها ما اعتبر جريرة يعاقب عليها، إذ أنها امتثلت لنهج أقرته سياسة الدولة في فترة سابقة، ولم تخرج في نشاطاتها الفكرية على ما قرره الشرع والمعتقد، أو ما يعد خروجاً على أوامر سابقة تحرم الاشتغال بعلوم الأوائل، إذ نستشف من خلال حديث لابن رشد، أن الكثيرين كانوا يتعاطون الفلسفة، وإن كان يعرض بمصداقيتهم وجديتهم وصفاتهم، بما يمثل عاراً على الفلسفة، فيقول: " وأما من يتعاطون الفلسفة ممن لم تكتمل فيهم هذه الصفات ... فإنهم مع ذلك أكثر الناس إضراراً بالفلسفة، وذلك لأنهم على الأكثر يميلون إلى الشهوات وإلى جميع الأفعال القبيحة كالجور والظلم ... ولا يصدقون أيضاً في أقوالهم التي

يرهبون بها أهل المدينة فيما يأتون من تلك الأمور، ويكونون عاراً على الفلسفة وسبباً في إيذاء كثير ممن هم أولى منهم بها، كما هو عليه الحال في زماننا هنا "[88].

هذا يوضح أن الفلسفة قد بلغت غايتها وأصبحت علماً مشاعاً، اقتحم مضماره حتى أولئك الذين لم تتوفر فيهم صفات الفيلسوف كما يقررها ابن رشد[89]، ولذلك يجد الفيلسوف الحقيقي نفسه بين تيارين، أولهما: يعرض عن الفلسفة ويحاربها، وثانيهما: يدعي الفلسفة ويتطفل عليها فيسيء لها، فيصبح الفيلسوف الحقيقي بمنزلة الإنسان الذي وقع بين وحوش ضارية، فلا هو قادر على أن يشاركها فسادها، وزلا هو يأمن على نفسه منها، ولذلك يفضل التوحد ويعيش عيشة المنعزل[90].

هذه الحرية الفكرية التي أتاحت الفرصة للمبدعين والمتطفلين لأن يلبسوا لبوس الفلسفة، بلا شك بلورت تياراً مناهضاً لهم، مما أدى إلى ضياع الفلسفة وانطفاء نورها "[91].

إذ واقع الحال كما يصفه ابن رشد بمرارة، يؤشر أن تعاطي الفلسفة لم يكن قاصراً على فئة معينة تتحمل لوحدها وزر التغيير في سياسة الدولة.

وإذا افترضنا أن الخوض في بحور الأوهام والإضرار بالشريعة، كان سبباً لمحنة رشد وصحبه، من شياطين الإنس الذين ضللوا المؤمنين، كما وصفهم منشور الإدانة فما الذي حصل ليعود الخليفة المنصور عن قراره وموقفه فيعفو عن المجموعة ويكرمها، ويتبنى الفلسفة ودراستها، وكل ذلك في غضون عامين، هل كان فعلاً بتأثير شهادة مجموعة من الأعيان بحق ابن رشد، أحدثت هذا التغيير في سياسته[92]، وقد احتاج لتقريرها ما ينيف على العقد من الزمن، ثم ما هو مصير وموقف طلبته من الصالحين والمتبتلين وأهل الحديث، الذين مثّلوا تياراً ضاغطاً ورافضاً للتوجهات الفكرية السابقة كما افترضنا.

وإذا كان هذا التغيير يستدعي إشعار المتعاطين لعلوم الأوائل، وليس محاكمتهم فأين هو الإشعار الذي أشير إليه في منشور الإدانة، ولماذا لم يرد له ذكر، إذ لم يذكر أن المتهمين تجوزوا على أوامر سابقة، ثم أين أدلة الإدانة، ولماذا لم يتم الإعلان عنها، وما هي الكتب المسطورة التي فضحتهم وكشفت غوايتهم.

أسئلة لا نجد لها أجوبة مقنعة، سوى أن كل ما ورد في منشور الإدانة إنما جاء للتغطية على موقف غير مبرر ما يخفي ورائه أسباباً أكثر مصداقية ومنطقية تفسر ما حدث.

مما لاشك فيه أن مكانة ابن رشد الاعتبارية، بكونه ينحدر من أسرة عريقة لها مكانتها العلمية والسياسية، ثم شهرته العلمية وتفوقه على أقرانه من علماء وفقهاء عصره، وذياع صيته، فضلاً عن هذا، قربه من البلاط الموحدي، وما ناله من حظوة لدى حكام الموحدين كلها عوامل ساعدت على خلق فئة، مناوئة له، من المنافسين والحاسدين والحانقين، وهو أمر مبرر في كل زمان ومكان. ولا شك أن هؤلاء الذين وضعوا أنفسهم في موازاته علماً وشرفاً، سعوا للإيقاع به، وزعزعة مكانته لدى البلاط، من خلال ما يمكن أن يدينه ويشوه صورته، وتفكيره الحر المنفتح واستناداً إلى ما ذكر من روايات فقد بحثوا عن ما يحقق مقاصدهم في مؤلفاته وشروحه، وحشروا منها ألفاظاً عديدة وفصولاً كانت غير سديدة " [93].

وتأولوا عليه عبارات، عدوها خروجاً على الشريعة، فضلاً عن استهانته بشخص الخليفة، وأعدوا من ذلك ملفاً، اعتقدوا أنه كان كافياً لإدانته أمام الخليفة يعقوب المنصور الذي وفقوا في مقابلته وفق ما تقدم سابقاً سنة 593 هـ / 1196 م، وأطلعوه على ما أقنعه بإدانة ابن رشد ومحاكمته في جلسة علنية.

هذا ما يتردد في المصادر عن الدور الذي قام به أعداء ابن رشد من علماء وفقهاء قرطبة، فكانوا سبباً في نكبته ومحنته.

إنّ ما يثير الانتباه عند التمعن في هذه الرواية، أنها تغفل أو تتجاهل ذكر وتحديد طبيعة التهم التي أُدين بسببها ابن رشد، ولا يذكر من مجمل الملف الذي جمعه المدعون المغرضون، سوى ما قيل أنهم وجدوا في شروحه عبارة منقولة عن بعض فلاسفة اليونان يعدون " الزهرة أحد الآلهة " [94]، وقد ذكروها من باب الظن والتخمين لأن أحداً لم يطلع على هذا الملف.

وهؤلاء يعلمون أن الخليفة يعقوب المنصور يعلم أن شروح ابن رشد لكتب أرسطو، كانت بإيعاز من والده الخليفة السابق أبو يعقوب، أي قبل فترة ليست بالقصيرة في عهد يعقوب المنصور، فإذا كان ابن رشد قد خرج فيها، لما يدينه في عقيدته لكان الأولى أن يكون الخليفة أول من ينتبه لهذا الأمر بفرض اطلاعه عليها،

كما كان على المخالفين له أن يدينوه بها لدى الخليفة، إلاّ في حالة عدم اطلاعهم على هذه الشروح طيلة هذه السنين، وهذا أمر لا يمكن التسليم به، فضلاً عن ذلك، فإن ما نسب إلى ابن رشد بهذا الخصوص ليس من آرائه بل ما نقل عن فلاسفة اليونان [95]، وهذا أمر لا يدان به لأن مضمون مهمته الشرح والتلخيص وليس الاحتجاج والنقد.

وكيف يمكن لأن نوافق على من يقول خروجاً من المأزق أنهم حشروا ألفاظاً عديدة وفصولاً ربما كانت غير سديدة في مصنفات يفترض لأنها مخطوطة ومدونة ومحفوظة على أضعف احتمال لدى خزانة الخلافة بما يجعل من اليسير اكتشاف زيفها ومواطن الوضع فيها، وهل بلغت هذه التهم من الخطورة بما يولد رأياً ضاغطاً ويجتمع من أجلها وفد رفيعاً وينتقل من قرطبة إلى مراكش ومنها إلى قرطبة ثانية، ولم تثنه سنيناً ثلاث عن عزمه في مواجهة الخليفة ليعرضوا عليه هكذا اتهامات.

وإذا افترضنا جدلاً صحة ما ذكر بحق ابن رشد على الرغم مما ثبت عليها من اعتراضات واستفهامات فما هي التهم التي أدينت بها المجموعة التي حوكمت معه ونالت نفس عقابه.

يبقى أخيراً أن نقول إذا كان الخليفة المنصور ومن حوله قد أيقن بصحة ما نسب إلى ابن رشد ومن معه؛ بالخروج على الشريعة والمروق عن الدين، لماذا لم يطبق فيهم حدود الشرع، طالما أنه امتثل لإجماع الفقهاء بعد أن اتضحت البينة، إذ لا يمكن القبول بتبرير عبد الملك المراكشي لهذه الثغرة، من أن الخليفة اكتفى بتعريف " الملأ بأنه مرق من الدين، وأنه استوجب لعنة الضالين " [96] فأبقى عليه التماس بجميل الجزاء.

هذه التساؤلات وأخرى يمكن تأشيرها، كافية للتشكيك بصحة ما أوردته المصادر أسباباً بهذه المحنة، وإن ركونها إلى الظن والتخمين بحثاً عن ما يمكن أن يبررها، أوقعهم في الغموض وعدم الوضوح.

وثمة سبب آخر يورده المؤرخون، دون أن يقفوا على طبيعته ومقاصده، إذ يذكر ضمن أسباب نكبة ابن رشد " اختصاصه بأبي يحيى أخي المنصور " [97].

وأبو يحيى هذا كان والياً على قرطبة، كما ذكرنا سابقاً، وطمع في الخلافة بعد أن وقع أخيه الخليفة يعقوب المنصور سنة 587 هـ / 1191 م في مرض شديد

خيف عليه منه فلازمه أبو يحيى بالعودة إلى مراكش، وبقي فيها منتظراً وفاة أخيه، أملاً في أن يليه في الخلافة، إلاّ أنه اضطر للعودة إلى قرطبة أمام إلحاح الخليفة، انتظاراً لأن يأتيه خبر وفاته [98].

كان الخليفة يعقوب المنصور، قد عهد بولاية العهد إلى ابنه الصغير محمد، بينما كان أبو يحيى يرى أنه أحق بالخلافة، لذلك طلب من مشايخ الأندلس مبايعته فامتنعوا خوفاً من عاقبة الأمر، وكتبوا بذلك إلى الخليفة المنصور الذي ما أن تعافى من مرضه، حتى بدأ يعد قواته للعبور مجدداً إلى الأندلس، فلما سمع أبو يحيى بذلك، بادر سنة 590هـ بالعبور إلى مراكش للاعتذار من أخيه عسى أن يعفوا عنه، فالتقيا بـ " أسلا " وفيها جرت إدانة أبو يحيى بعد أن شهد عليه مشايخ الأندلس، وحين أمر المنصور بقتله قال له: " إنما أقتلك بقوله (ﷺ): ((**إذا بويع خليفتان بأرض فاقتلوا الآخر منهما**)) وأمر فضربت عنقه " [99].

إذا كان أبو يحيى يسعى للخلافة منطلق من إيمانه بأحقيته بها فما علاقة ابن رشد بالأمر، وما مظاهر ومديات اختصاصه بأبي يحيى.

إنّ هذا الاختصاص غير الموضح، لا يأخذ ابن رشد بجريرة أبو يحيى، إلاّ في حالة الافتراض، أنّ لابن رشد دور ملموس في حث الأمير وتحريضه للمطالبة بالخلافة، أو أنه عضد رأيه ودعم هواجسه وتطلعاته، وبايعه على ما هم به، وشارك في أخذ البيعة له من العلماء والفقهاء المقربين إليه، مما يجعله من جملة المتواطئين للخروج على الخليفة.

ويذهب أحد الباحثين [100] أن مظاهر هذا الاختصاص " كتاب السياسة لأفلاطون " الذي أعدّه ابن رشد بطلب وتوجيه من أبي يحيى، ضمنه ابن رشد وجهة نظر سياسية كما يجب أن تكون عليه الدولة، اشتمل على نقد صريح ومباشر للأوضاع في الأندلس، وقد ترك ابن رشد عدة إشارات تؤكد طبيعة هذا الاختصاص، إذ يوجه علامة في خاتمة الكتاب إلى من أوعز إليه بشرحه فيقول: " فهذا أدام الله عزكم وأطال بقاءكم، جملة الأقاويل العلمية الضرورية هذا الجزء من العلم (المدني) الذي تشتمل عليه الأقاويل المنسوبة إلى أفلاطون قد بيّناها بأوجز ما أمكن، مع اضطراب الوقت، وهذا إنما تأتي لنا بما آزرتمونا به لفهمها ...وبعونكم لنا عليها في جميع وجوهها أحسن العون وأكمله ... أعانكم الله

على ما أنتم بصدده، وأبعد عنكم كل مثبط بمشيئته وفضله "[101].

يتضح من هذا النص، أن صيغة الخطاب تؤشر، أن الكتاب قد أوعز بشرحه رجل من أهل الدولة، وإذا ما استبعد الخليفة من أن يكون الكتاب موجه إليه، لما تضمنه الكتاب من نقد قاسي ومباشر لأساليب الحكم في الأندلس فمن المرجح أن يكون الأمير أبو يحيى لعدة معطيات.

أولها: اختصاص ابن رشد به.

وثانيهما: تزامن تأليف الكتاب مع مرض الخليفة المنصور، وسعي أخيه لتولي الخلافة (أي بين عامي 587 - 590هـ / 1191 - 1193م).

وثالثهما: أن أعداء ابن رشد بدأوا يتحركون للإيقاع به خلال هذه المدة[102].

فضلاً عن ذلك، فإن سياق الكلام يظهر أن المخاطب كان مقدماً على أمر كبير وخطير، تطلب من ابن رشد لأن يدعوا إليه بالعون، ويبعد عنه كل مثبط، ولم يكن ذلك سوى أبو يحيى وفق ما ذكرناه أعلاه.

ويبدو أن أبا يحيى كان يستهدف من الاطلاع على كتاب السياسة لأفلاطون، التعرف على أشكال الحكم وصوره ومادته، وما يستلزم ذلك من مقومات، بما يعينه على تمثلها أو الاستعانة بها، وهو يتهيأ لتولي الخلافة، وهذا ما دفعه للطلب من ابن رشد لشرحه، بذات المنهج الذي استخدمه في شرح كتب الفلسفة لأرسطو. إلاّ أن ابن رشد أباح لنفسه لأن يذهب أبعد من حدود ما كلّف به، إذ عدها فرصة للتعبير عن منظوره السياسي مستعيناً ومستلهماً للصورة المثالية للحكم ومادته وصوره وغاياته التي تناولها أفلاطون، للتعبير عن رؤاه للتجربة الحضارية العربية بشكل عام، وتقييم شامل للواقع السياسي في الأندلس، بشكل خاص، مشخصاً مواطن التحول والخلل والضعف في الأشكال السياسية التي عاصرها وصولاً إلى بعث المدينة الفاضلة التي يعتقد بإمكانية وجودها في عصره عن طريق إصلاح نظم الحكم والسياسة، وهذا ما جرّه إلى توجيه نقد مباشر للدولة الموحدية من خلال تناوله لأساليب الحكم وغاياته، متهماً الحكام الموحدين بالتحول عن الأسس والأهداف التي أقاموا عليها دولتهم.

يقرر ابن رشد منذ البداية أن المدينة الفاضلة انتهت بالخلافة الراشدة، وتحولت منذ عهد الأمويين إلى الكرامية * كما هو حال المدن في عصره، وهذا

يعني أن سياسة الموحدين في نشأتها سياسية كرامية، لكنها أقرب إلى الفاضلة، ، بقصد أهلها للفضائل والأفعال الحميدة التي ينشدون منها الصيت الحسن في حياتهم ومماتهم[103].

ويذهب ابن رشد، أن هذه الموجبات كانت وراء دعم الجماعة لهم ومساندتهم وتسليمهم الرياسة بقصد حمايتهم، إلاّ أن الجماعة أصيبت بخيبة أمل، لتحول الحكام المتعاقبين عن الأسس والمنطلقات، فيؤول حالها من سيء إلى أسوأ، فيصف هذا التحول بقوله: " ويفتك بأولئك الأوائل الذين نصبوه سيداً على الجماعة...ولهذا يعظم هذا الفعل فيه على الجماعة، فيرون أن فعله هو عكس ما قصدوه من تسليمه الرئاسة، لأنهم إنما قصدوا بذلك أن يحميهم من ذوي اليسار ويقربهم من ذوي الفضائل والخير وأمثالهم من أهل المدينة "[104].

ويتطور هذا التناقض بين طموحات الرعية وأهداف السادة إلى نفور الرعية وسعيها للخلاص، فيواجهها السادة بمزيد من القهر والتسلط " وذلك تسعى الجماعة الغاضبة عندها إلى إخراجه من مدينتهم فيضطر هو إلى استعبادهم والاستيلاء على عتادهم وآلة أسلحتهم، فيصير حال الجماعة معه كما يقول المثل، كالمستجير من الرمضاء بالنار، وذلك أن الجماعة إنما وفرت من الاستعباد بتسليمها الرئاسة، فإذا هي تقع في استعباد أكثر قسوةً "[105].

ثم ينتاب العلاقة بين السيد ورعيته التوجس وعدم الثقة، فيلجأ السيد إلى إحاطة نفسه بمن يقوم بحراسته ويقاتل من أجله، مما يستدعي توفير الأموال التي توفر لهم الحماية، فيلجأ إلى فرض المكوس والغرامات على الرعية فيسلب سادتهم عامتهم "ويمعن السادة في الاستيلاء على أموال العامة إلى أن يؤدي بهم الأمر أحياناً إلى التسلط، كما يعرض هذا في زماننا وفي مدننا هذه "[106].

وهكذا يتحول السيد إلى حاكم مستبد متغلب، يسعى لتحقيق مصالحه وشهواته الخاصة على حساب مصالح وآمال الرعية، وهذه الأعمال هي جميعاً من أعمال رئاسة وحدانية التسلط، هي شيء بين أهل زماننا هذا أليس بالقول فحسب، ولكن أيضاً بالحس والمشاهدة "[107].

إنّ هذا التسلط المطلق الذي تحولت إليه سلطة الخلافة مبتعدة عن مقصدها، كما شخّصه ابن رشد، إنما أسبابه تعود حسب رأيه إلى طبيعة وصفات الحاكم قبل

توليه المسؤولية وبعدها، وهي المحرك لاستبداده وتسلطه، إذ يصفه بقوله: " فوجداني التسلط أشد الناس عبودية، وليس له حيلة في إشباع شهواته، بل هو أبداً في حزن وأسى دائمين، ومن هذه صفته فهو ضعف النفس، وهو حسود وظالم لايحب أحد من الناس، وذلك أن هذه الصفات إما كانت موجودة فيه قبل الرئاسية فهي ألزم به بعدها، وبالضرورة أن يكون اليوم الذي يواجه فيه مآله ومصيره يوماً عسيراً، لأن من يركب البخت والاتفاق، كثيراً من يستخف به، وهذا كله بيّن وجلي من هؤلاء كما قلنا مراراً، لا بالقول حسب ولكن بالمشاهدة أيضاً " [108].

لقد أحكم ابن رشد المعطيات السياسية في بلده وفي عصره للنقد الصريح والمباشر متتبعاً مراحل التطور التي طرأت على مقاصدها التي استندت إلى الشرع مستهدفة تحقيق العدالة ورفع الظلم عن الرعية لها، إلاّ أنها ما لبثت أن انحازت عن هذه المقاصد نحو التسلط والاستعباد والقهر الفكري تحقيقاً لرغباتها ونزواتها، مما أوجب التغيير وفق سياسة إصلاحية تعود بالدولة إلى جذورها التي استقت منها منطلقاتها السياسية والفكرية.

لقد عاصر ابن رشد قيام الدولة الموحدية، وكان أكثر من غيره التصاقاً بمصدر القرار، من خلال تسلمه مناصبها الإدارية، وحظوته لدى حكامها، وبهذا كان في تماس مباشر مع توجهاتها، إن لم يكن أحد الذين ساهموا في صياغتها وتنفيذها لهذا، كان أكثر استشعاراً من غيره بمديات الإنحراف في هذه التوجهات التي أخرجتهم عن ما حددوه من مسار، وإحساسه بنبض الرعية التي عانت من غربتها وخيبة أملها لغياب طموحاتها عن وعي السلطة وسياستها.

ولكن على الرغم من هذا الواقع القاتم، إلاّ أن ابن رشد لم يفقد الأمل في الإصلاح والعودة إلى مثل وقيم ومقاصد المدينة الفاضلة التي أمن بإمكانية قيامها في بلده وفي عصره، من خلال تهيئة ساسة يتمثلون أخلاق الفلاسفة وصفاتهم، ويبدو أنه وجد ذلك في شخصية أبو يحيى (والي قرطبة) وفي تكوينه الفكري، وهو يعد نفسه لتولي الأمر بعد وفاة أخيه المنصور، فرأى ابن رشد أن من واجبه طالما أن الفرصة مؤاتية لأن يقدم له الصورة المثالية للبرنامج السياسي الذي من خلاله يحقق المدينة الفاضلة.

ويسهل على الباحث من خلال استقرائه لمفردات السياق التاريخي لهذه

الدولة أن ابن رشد يحمل مسؤولية ما آل إليه مصيرها إلى الخليفة يعقوب المنصور، لذا لم يتردد في توجيه انتقاد قاسي ولاذع بشخصه وسياسته وموقفه من أفراد عائلته وانحرافه بمقاصد أسلافه نحو التسلط والقهر واستعباد الرعية واستغلالها.

مما سبق يعتقد أن الناقمين على ابن رشد والحاسدين له، وجدوا في هذا الكتاب من الآراء السياسية المنسوبة لابن رشد، أدلة كافية اغتنموها لإدانته أمام الخليفة، ومنها أعد الملف الذي رحلوا به إلى الخليفة في مراكش سنة 590 هـ / 1193 م، وهذا ما أثار حنق الخليفة وغضبه على ابن رشد، وتقرير محاكمته ومن ثم إدانته بعد أن سنحت له الفرصة للاطلاع على الملف سنة 593 هـ / 1196 م. . ولا علاقة لعلوم الأوائل، أو الزهرة، أو ما قيل عن الزرافة، بالأمر، وإن ما أشار إليه منشور الإدانة بشأن الكتب المسطورة في الظلام، ربما قصد بها هذا الكتاب، وما سوى ذلك لم يكن سوى تمويهاً وتبريراً لتهمة لم يكن في صالح الحكم إشهارها [109].

ولكن ما هي الدوافع الكامنة وراء هذا الموقف الذي أعلنه ابن رشد، وليس هناك مؤشرات موجبة تستدعي التصريح بما يطعن بالخليفة وسياسته، إذ أكدت المصادر علاقته الطيبة بالخليفة، واحتفاظه بمنزلته ومكانته في عهده، فما الذي كان يرجوه من دعمه لأبي يحيى، وحظه للمطالبة بالخلافة، أتراه كان يرى فيه الشخصية المؤهلة للإصلاح، ومن خلاله يسعى ابن رشد إلى إقامة المدينة التي تمثلها في منظوره السياسي، وأنه آمن بأحقيته بتولي الأمر بعد أخيه، الذي اعتقد أن أيامه كانت معدودة، ولم يمهله المرض ليطلع على آرائه، وبذلك لم يعد ذلك تواطئاً ولا خروجاً على شرعية، وإن انتقاده للأوضاع في الأندلس بريئة تماماً وصادرة عنه في إطار خطابه الانتقادي العام كما يقول الجابري [110]، وصدق أعيان أشبيلية عندما شهدوا لابن رشد لدى الخليفة، أنه على غير ما نسب إليه، فرضي عنه المنصور وعن سائر الجماعة التي أُدينت معه، وذلك سنة 595 هـ / 1198 م، وتراجع عن قراراته [111].

يبقى الاستفهام قائماً، إلى أن يتصدى من يقنعنا بأدلة تنأى عن الظن والتخمين لترتقي إلى مستوى اليقين.

هوامش البحث:

(1) عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، (ط 1، بيروت، دار الثقافة، 1973): 6 / 21، 22؛ ويقارن: برهان الدين إبراهيم علي بن محمد اليعمري بن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب (القاهرة، دار التراث، د. ت): 1 / 221؛ الحافظ الذهبي، العبر في خبر من ذهب، (الكويت، 1963): 4 / 287 (حيث يشيران إلى أربعة أو خمسة من أسلافه). وهناك من يشير إلى اسمه واسم أبيه وجدة. ينظر: عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: محمد سعيد العربان ومحمد العربي العلمي، (ط 2، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1978)، ص 435؛ علي بن موسى بن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، تحقيق: شوقي ضيف، (ط 2، القاهرة، دار المعارف، 1964): 1 / 104.

(2) عبد الواحد المراكشي، ص 435؛ أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي، المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتية، (بيروت، المكتب التجاري للطباعة، د. ت)، ص 111.

(3) عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة: 6 / 22؛ أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، (بيروت، المكتب التجاري للطباعة والنشر، د. ت): 4 / 320؛ خير الدين الزركلي، الأعلام، (ط 3، بيروت، دار صادر، د. ت): 6 / 213.

(4) صباح إبراهيم الشيخلي، " ابن رشد ومحنته في النصوص التاريخية الوسيطة "، بحث منشور ضمن كتاب ابن رشد وفلسفته بين الدين والمعاصرة، (بغداد، بيت الحكمة، 1998): 1 / 52.

(5) عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة: 6 / 31.

(6) أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال، كتاب الصلة، (القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966): 2/ 576.

(7) أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، (مدريد، 1884)، ص 40.

(8) القاضي عياض، الغنية، (تونس، الدار العربية للكتاب، 1979)، ص 23؛ ابن بشكوال، الصلة: 2 / 576؛ الضبي، بغية الملتمس، ص 47؛ النباهي، المرقبة العليا، ص 98؛ الزركلي، الأعلام: 3 / 210.

(9) ابن بشكوال، الصلة: 2 / 577.

(10) المصدر نفسه: 2 / 577.

(11) القاضي عياض، الغنية، ص 102؛ ابن بشكوال، الصلة: 2 / 577؛ الضبي، بغية الملتمس، ص 40؛ النباهي، المرقبة العليا، ص 99.

(12) القاضي عياض، الغنية، ص 123.

=

(13) ابن العباس أحمد بن محمد بن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج. س كولان، وليفي بروفنسال، (ط 2، بيروت، دار الثقافة، 1980): 4 / 72، 73؛ مؤلف مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق: سهيل زكار، عبد القادر زمامه، (ط 1، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، 1979)، ص97؛ النباهي، المرقبة العليا، ص 99.

(14) مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص 98.

(15) ابن عذاري، البيان المغرب: 4 / 73؛ مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص 98.

(16) ابن بشكوال، الصلة: 2 / 577؛ الضبي، بغية الملتمس، ص 40؛ ابن عذاري، البيان المغرب: 4 / 74؛ النباهي، المرقبة العليا، ص 99.

(17) ابن بشكوال، الصلة: 1 / 83.

(18) المصدر نفسه: 1 / 83.

(19) المصدر نفسه: 1 / 83؛ النباهي، المرقبة العليا، ص 103.

(20) ابن بشكوال: 1 / 83.

(21) عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة: 6 / 22.

(22) الذهبي، العبر: 4 / 287؛ ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب: 1 / 105.

(23) عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة: 6 / 21؛ الحنبلي، شذرات الذهب: 4 / 320.

(24) الذهبي، العبر: 4 / 287.

(25) موفق الدين أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، (بيروت، دار مكتبة الحياة، 1965)، ص 530؛ الحنبلي، شذرات الذهب: 4 / 320.

(26) ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب: 1 / 105؛ عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص 353، 354، 435، 436؛ الذهبي، العبير: 287/4؛ الحنبلي، شذرات الذهب: 4/ 320.

(27) محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي بن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، (مدريد، 1886): 1 - 2 / 269.

(28) المصدر نفسه: 1، 2 / 270.

(29) أبو العباس أحمد بن محمد بن عذاري، نص جديد في كتاب البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب يتعلق بتاريخ الموحدين، نشره: عبد القادر زمامة، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، جامعة محمد بن عبد الله، العدد (4)، 1980 - 1981، ص 301 - 303؛ عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، (بيروت، مؤسسة جمال للطباعة، 1979): 6 / 234، 235.

(30) المصدر نفسه: 6 / 235.

(31) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص 293.

(32) علي بن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس (الرباط، دار المنصور للطباعة، 1972)، ص 203.

=

=
(33) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص 293، 294.
(34) مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص 150، 151.
(35) عباس بن إبراهيم المراكشي، الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، (الرباط، المطبعة الملكية، 1976): 4 / 131.
(36) الأنيس المطرب، ص 205، 206.
(37) المعجب، ص 347.
(38) المصدر نفسه، ص 364.
(39) المصدر نفسه، ص 349.
(40) المصدر نفسه، ص 349، 352.
(41) محمد عابد الجابري، ابن رشد سيرة وفكر، (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1998)، ص 45، 46.
(42) المعجب، ص 353.
(43) المصدر نفسه، ص 353، 354.
(44) عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة: 6 / 22؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 207؛ إبراهيم المراكشي، الاعلام: 3 / 48.
(45) ابن خلدون، العبر: 6 / 244.
(46) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص 399؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 218؛ ابن خلدون، العبر: 6 / 244.
(47) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص 404.
(48) المصدر نفسه، ص 404.
(49) المصدر نفسه، ص 404؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 217.
(50) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص 404 - 406؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 220 - 228.
(51) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص 418.
(52) المصدر نفسه، ص 313؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 229.
(53) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص 411، 412؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 229.
(54) المصدر نفسه، ص 218.
(55) المصدر نفسه، ص 217.
(56) المصدر نفسه، ص 217.
(57) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص 531؛ الزركلي، الأعلام: 6 / 213.
(58) المعجب، ص 400 - 401.
(59) المصدر نفسه، ص 435.

=

(60) عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة: 6 / 25.
(61) المصدر نفسه: 6 / 24، 25.
(62) المصدر نفسه: 6 / 25، 26.
(63) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص 437؛ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص 532؛ ابن سعيد المغربي، المغرب: 1 / 205.
(64) ينظر: المصادر أعلاه.
(65) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص 436.
(66) ابن سعيد المغربي، المغرب: 1 / 105.
(67) عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة: 6 / 26.
(68) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص 532؛ عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص 436، 437.
(69) عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة: 6 / 25.
(70) المصدر نفسه: 6 / 25.
(71) المصدر نفسه: 6 / 25.
(72) المصدر نفسه: 6 / 26.
(73) إبراهيم المراكشي، الأعلام: 3 / 47.
(74) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص 353، 354؛ وينظر فيما سبق، ص 5 - 6.
(75) ابن الأبار، التكملة: 2 / 269.
(76) عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة: 6 / 24؛ إبراهيم المراكشي، الأعلام: 3 / 49.
(77) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص 531.
(78) المصدر نفسه: 3 / 531.
(79) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص 436؛ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص 532.
(80) المصدر نفسه، ص 532.
(81) صباح الشيخلي، ابن رشد ومحنته في النصوص التاريخية الوسيطة: 1 / 75.
(82) محمد عابد الجابري، ابن رشد سيرة وفكر، (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1998)، ص 61.
(83) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص 435، 436.
(84) ينظر فيما سبق: سيرة الخليفة أبو يعقوب.
(85) عبد الواحد المراكشي، ص 353، 354.
(86) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص 532؛ الزركلي، / الأعلام: 6 / 213.
(87) الجابري، ابن رشد سيرة وفكر، ص 60.
(88) ابن رشد، الضروري في السياسة، مختصر كتاب السياسة لأفلاطون، ترجمة: أحمد شحلان، تقديم: محمد عابد الجابري، (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1998)، ص 141.

=

=

(89) المصدر نفسه، ص 139، 140.

(90) المصدر نفسه، ص 141.

(91) المصدر نفسه، ص 141.

(92) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص 532.

(93) عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة: 6 / 25.

(94) المصدر نفسه: 6 / 29.

(95) الجابري: المثقفون في الحضارة العربية، ص 128.

(96) عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة: 6 / 26.

(97) المصدر نفسه: 6 / 26.

(98) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص 404.

(99) المصدر نفسه، ص 304، 404.

(100) محمد عابد الجابري، المثقفون في الحضارة العربية، (ط 3، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2000)، ص 131.

(101) ابن رشد، الضروري في السياسة، ص 207، 208.

(102) الجابري، المثقفون في الحضارة العربية، ص 135.

(103) ابن رشد، الضروري في السياسة، ص 184.

* **الكرامية**: هي المدينة التي قصد أهلها على أن يتعاونوا على أن يصيروا مكرمين ممدوحين مذكورين بين الأمم.

(104) ابن رشد، الضروري في السياسة، ص 196.

(105) المصدر نفسه، ص 196.

(106) المصدر نفسه، ص 176.

(107) المصدر نفسه، ص 178، 196.

(108) المصدر نفسه، ص 203.

(109) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص 4346، 437؛ عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة: 6 / 27، 28.

(110) الجابري، المثقفون في الحضارة العربية، ص 152.

(111) ابن أبي اصيبعة، عيون الأنباء، ص 532.

فهرس المحتويات

السيرة العلمية للأستاذة الدكتورة نهلة شهاب أحمد

- من مواليد الموصل ١٩٥٨.
- حصلت على شهادة البكالوريوس في التاريخ بدرجة جيد جداً في كلية التربية / جامعة الموصل عام ١٩٨٠. وكانت الأولى على دفعتها.
- عملت (مساعد باحث) في قسم التاريخ /كلية التربية/ جامعة الموصل في أول تعيين لها في (٤تشرين الأول ١٩٨٠).
- حصلت على شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي من كلية الآداب/ جامعة الموصل ١٩٨٧.
- حصلت على لقب (مدرس) في عام ١٩٩٣.
- نالت شهادة الدكتوراه في كلية الآداب / جامعة الموصل عام ١٩٩٦.
- حصلت على لقب (أستاذ مساعد) عام ١٩٩٧.
- حصلت على لقب (أستاذ) عام ٢٠٠٠.

الكتب المنشورة

- عقبة بن نافع الفهري (بغداد، دار الشؤون الثقافية، ١٩٨٨).
- المغرب العربي في عهد عقبة بن نافع الفهري (دراسة تحليلية) (إربد، دار الكتاب، ٢٠٠٣).

البحوث العلمية المنشورة

- لها نحو (٢٥) خمس وعشرين بحثاً منشوراً في مختلف المجلات العراقية والعربية، إضافة إلى عدد من المقالات المنشورة في الصحف العراقية والعربية.
- الإشراف على العديد من رسائل الماجستير، وأطاريح الدكتوراه في التاريخ الإسلامي، ولا سيما في تاريخ المغرب العربي والأندلس.
- إنجاز ترجمة نحو ٣٥٠ ثلاثمائة وخمسين عالماً عربياً وإسلامياً في الموسوعة العربية.
- شاركت في عدد من الندوات والمؤتمرات العلمية داخل العراق وخارجه.
- عضوة اتحاد المؤرخين العرب.
- عضوة اتحاد الأدباء والكتاب العرب.
- رئيسة لجنة الدراسات العليا في قسم التاريخ /كلية التربية/ جامعة الموصل.
- عضوة لجنة الترقيات العلمية المركزية في كلية التربية /جامعة الموصل.



أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban
ص.ب 9424-11 بيروت - لبنان
رياض الصلح - بيروت 2290 1107
هاتف 12/11/ 804810 5 961+
فاكس 804813 5 961+
e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
www.al-ilmiyah.com



DKI